

علاء الأسواني

نيران صديقة

الطبعة الكاملة
+ مقدمة جديدة

علي مولا

دار الشروق

فيران صديقة

طبعة دار الشروق الأولي ٢٠٠٨
الطبعة الثانية يناير ٢٠٠٩
الطبعة الثالثة فبراير ٢٠٠٩

رقم الإيداع ١٠٦٤٠ / ٢٠٠٨
ISBN 978-977-09-2404-4

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

٨ شارع سيدييه المصري
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

علاء الأسواني

فيران صديقة

رواية قصيرة وقصص

دار الشروق

إهداء

إلى عباس الأسواني...
أبى الذى علمنى...

«علاء»

فهرس

٩	- مقدمة الطبعة الجديدة
٢٣	- مقدمة
٢٥	- أوراق عصام عبد العاطى
١٠٩	- المرمطون
١٢٧	- إنا أغشيناهم
١٣٧	- سيدى المسئول عن تكييف القاعة
١٤٥	- أمر إدارى
١٤٩	- لحظة الكسر
١٥٥	- لاتينى ويونانى
١٦٣	- فستان قديم وغطاء للرأس
١٧١	- عزت أمين إسكندر
١٧٧	- أختى الحبيبة مكارم
١٨١	- أحزان الحاج أحمد

- ١٨٧ - جمعية منتظري الزعيم
- ١٩٩ - نظرة إلى وجه ناجي
- ٢٠٥ - لماذا يا سيد؟؟؟ (سؤال)
- ٢٠٧ - حصة الألعاب
- ٢١٣ - كلاب بوكسر .. جميع الألوان
- ٢١٩ - مدام «زتا منديس» صورة أخيرة

مقدمة الطبعة الجديدة

(١)

أقيم أول عرض للسينما فى العالم فى باريس فى شهر ديسمبر عام ١٨٩٥ ، فى الصالون الهندى بالمقهى الكبير (جران كافيه) فى شارع كابوسين . . . وبعد عام واحد ، انتقلت السينما إلى مصر . أقيم العرض الأول فى الإسكندرية فى نوفمبر ١٨٩٦ فى قاعة يملكها رجل إيطالى اسمه ديللو استرولوجو . . . كان ذلك حدثا فريدا فى حياة المصريين والأجانب المقيمين فى مصر وامتلات الصحف آنذاك بالتعليقات الحماسية على الاختراع الجديد . ولم تمنع الأسعار الباهظة للتذاكر الناس من الإقبال على السينما . كان العرض يستغرق نحو نصف ساعة وينقسم إلى عدة مناظر مصورة منفصلة لا تزيد كل منها عن بضع دقائق ، وتدور عادة حول مشاهد من الحياة اليومية فى الشوارع والغابات والبحار . وبرغم سذاجة الموضوع وبدائية التصوير فقد شغف الناس حبا بالسينما ، فكانوا يدفعون ثمن التذاكر ثم يهرولون داخل قاعة العرض ، يصطفون على المقاعد فى انتظار اللحظة السحرية عندما يتم إطفاء الأنوار فيسود الظلام التام ثم تبدأ المناظر فى الظهور على الشاشة . . لا شك أن المتعة التى أحس بها المتفرجون الأوائل وهم

يشاهدون لأول مرة حياة حقيقية على الشاشة أكبر بكثير من استمتاعنا اليوم بفن السينما . على أن تلك المتعة الكبرى قد جلبت معها آنذاك مشكلة طريفة . فالمتفرجون ، في حالة الإثارة القصوى التي كانت تتملكهم من جراء متابعة الفيلم ، كانوا كثيرا ما يندمجون تماما في الأحداث فيتخيلون أن ما يرونه حقيقى فعلا . فإذا ظهر البحر الهائج بأمواجه العالية أحسوا بالرهبة وما إن يظهر على الشاشة قطار مسرع ينفث دخانا كثيفا حتى يطلق كثيرون منهم صيحات فزع حقيقية ويتدافعون خارجين من القاعة خوفا من أن يدهسهم القطار . ولما تكررت هذه الحوادث المؤسفة ، بدأ صاحب السينما دليلو استرولوجو تقليدا جديدا . فكان ينتظر المشاهدين أمام مدخل القاعة ، وبعد أن يدفعوا ثمن التذكرة وقبل أن يجلسوا فى مقاعدهم . يصطحبهم إلى شاشة العرض ويمسكها بأصابعه ويقول :

ـ هذه الشاشة ليست سوى قطعة قماش ، لا تفرق كثيرا عن ملء السرير ، الصور التي سوف ترونها تنعكس على الشاشة ولا تنبعث منها . بعد قليل سترون قطارا مسرعا . تذكروا أيها السادة أن هذه مجرد صورة للقطار ، وبالتالي لا يوجد أى خطر عليكم . .

عندما نقرأ هذه الواقعة الآن ، بعد أكثر من مائة عام ، يبدو لنا فزع المتفرجين من صورة القطار غريبا ومثيرا للسخرية لكن بعض قراء الأدب لا زالوا بكل أسف ، حتى اليوم ، يمارسون نفس الخلط بين الخيال والواقع . . . هذه المشكلة عانيت منها كثيرا كما عانى روائيون كثيرون . . . في روايتي «عمارة يعقوبيان» قدمت شخصيتى أسخرون وملاك ، شقيقان قبطيان فقيران يتميزان بسعة الحيلة والطرافة وخفة الظل ، لكنهما أثناء صراعهما المريع من أجل البقاء لا يتورعان أبدا عن الكذب والسرقه . وبعد نشر الرواية فوجئت بصديق قبطى يسألنى موبخا :

- كيف تجرؤ على تقديم الشخصية القبطية بهذه الصورة الحقيرة . . ؟

وكانت إجابتي (التي لم تقنعه أبدا) أنني لم أقدم الشخصية المصرية القبطية بشكل عام وإنما قدمت شخصية أدبية، حدث أنها قبطية. كما أن الرواية حافلة بشخصيات مسلمة منحرفة، لكننا لا يمكن أبدا أن نستخلص من ذلك أن المسلمين جميعا منحرفون. وفي روايتي شيكاغو، قدمت شخصية. «شيما»، فتاة محجبة سافرت من الريف المصري إلى شيكاغو لكي تدرس وقد جعلتها إقامتها في أمريكا تعيد النظر في تربيتها المحافظة فوقعت في حب زميل لها وشيئا فشيئا نشأت بينهما علاقة جسدية، ولأن الرواية كانت تنشر على حلقات في جريدة الدستور. فقد كنت أتلقي جرعة أسبوعية من شتائم القراء المتطرفين دينيا ولعناتهم، لأنني في رأيهم قدمت شخصية فتاة محجبة تتخلى عن مبادئها، وفي ذلك إساءة للمسلمات المحجبات جميعا وبالتالي إلى الإسلام نفسه.

وطالما فكرت في السؤال: ما الذي يدفع قارئنا ذكيا متعلما إلى اعتبار تصرفات شخصية أدبية في رواية متخيلة محاولة للإساءة للدين أو لفئة من المجتمع. السبب في هذا الخلط، للأمانة، لا يقع كله على عاتق القارئ، بل إنه موصول بخيوط دقيقة بطبيعة الأدب ذاته. . . وذلك لسببين:

أولا: إن جزءا كبيرا من متعة الأدب يرجع إلى أنه يمنحنا سلطة الخيال. إننا نستمتع بتخيل أحداث الرواية وشخصياتها كما يحلو لنا. وهذا التخيل لا يتحقق بدون حدوث الإيهام، بمعنى أننا لا يمكن أن نستمتع بالقراءة بدون أن نتوهم، في لحظة ما، أن ما نقرأه ليس مختلفا وإنما قد حدث فعلا. (ومن أجل تحقيق هذا الإيهام يتم إطفاء الأنوار في

قاعات العرض سواء في السينما أو المسرح) . . وبالتالي فإن الخلط الذي يقع في أذهان البعض بين الخيال والواقع ، هو دليل على إجادة الفنان لعمله ، لأنه نجح في تحقيق الإيهام للقارئ . لكن الإيهام في هذه الحالة يكون مبالغاً فيه فيخلط بين الصورة والحقيقة .

أما السبب الثاني فحقيقة أن الأدب فن الحياة . إن الرواية «حياة على الورق تشبه حياتنا اليومية ، لكنها أكثر عمقا ودلالة وجمالا» . من هنا فإن الأدب ليس فنا منعزلا ، بل هو شأن الحياة نفسها ، يتداخل مع العلوم الإنسانية مثل التاريخ وعلم الاجتماع وعلم الأجناس . وهذا التداخل سلاح ذو حدين . فهو من ناحية يمنح الروائي ذخيرة لا تنفذ للكتابة لكنه من ناحية أخرى ، سلبية ، يدفع البعض إلى قراءة العمل الأدبي باعتباره دراسة في علم الاجتماع . وهذا خطأ بالغ . إن الأديب ليس باحثا علميا لكنه فنان يتأثر وجدانيا بشخصيات من الحياة فيسعى إلى تقديمها في أعماله . وهذه الشخصيات تقدم لنا حقيقة إنسانية لكنها لا تمثل بالضرورة حقيقة اجتماعية . إن العمل الأدبي قد يفيد في إعطاءنا بعض الدلالات عن مجتمع ما لكنه لا يستطيع أن يقدم الخلاصة بالمعنى العلمي للكلمة . إن علم الاجتماع ، بدراساته الميدانية والنظرية وإحصائياته ورسومه البيانية ، هو القادر على تقديم الخلاصة العلمية عن مجتمع ما وليس ذلك إطلاقا دور الرواية أو قصيدة الشعر . إن شخصية فتاة مصرية محجبة في رواية قد تعطينا فكرة عن أحاسيس بعض المحجبات أو مشكلاتهن ، لكنها بالتأكيد لا تمثل كل المحجبات في مصر . فمن يريد أن يعرف «الحقيقة» في ظاهرة الحجاب عليه بمطالعة الدراسات التي أجراها علماء الاجتماع عن هذا الموضوع . . .

لماذا أكتب هذا الكلام . . ؟

لأن هذا الخلط بين الخيال والحقيقة، بين العمل الأدبي والدراسة الاجتماعية.. قد لاحق روايتي «أوراق عصام عبد العاطي»، كاللجنة، وأدى إلى منعها من النشر لسنوات طويلة... كيف كان ذلك...؟

(٢)

بعد عودتي من بعثتي الدراسية في الولايات المتحدة أواخر الثمانينيات: قررت أن أكرس كل مجهودي لكي أكون كاتباً وفي نفس الوقت كان عليّ أن أعمل بطب الأسنان حتى أكسب عيشي. وهكذا انقسمت حياتي إلى شقين منفصلين تماماً: الحياة المنتظمة الوقورة لطبيب الأسنان المحترم، وحياة الأديب الحرة المتخلصة تماماً من كل القيود الاجتماعية والأحكام المسبقة. كنت، كل يوم، بعد أن أنتهي من عملي الطبي، أندفع إلى اكتشاف الحياة في أشكالها الأكثر أصالة وإثارة. أجوب كل الأماكن الغريبة وأتعرّف إلى شخصيات غير تقليدية، يدفعني إلى ذلك فضول قاهر واحتياج حقيقي لفهم الناس والتعلم منهم... وكم من ليلة قضيتها في سهرة صاخبة طريفة مع شخصيات أثارت اهتمامي، اضطرت بعدها إلى المرور بالبيت لأخذ حماماً وأشرب فنجان قهوة على عجل ثم أنطلق بعد ذلك لأبدأ عملي في المستشفى بدون نوم. ويوماً بعد يوم، استطعت أن أشكل مجموعتي الخاصة من الشخصيات المدهشة. صاحبت فقراء وأثرياء وسياسيين متقاعدین وأمراء سابقين مفلسين، مدمني خمر وخريجي سجون ونساء ضائعات ومتطرفين دينياً ونصايين وبلطجية وفتوات... كل ذلك وأنا أحافظ بدقة وصرامة على المسافة بين عالمي الليل والنهار. أحياناً، رغماً عني، كانت تحدث مشاكل: ذات ليلة كنت أسهر في

حانة رخيصة فى وسط البلد، وفى آخر الليل نشبت فجأة معركة حامية بين اثنين من السكارى وجر جر أحدهما الآخر خارج الحانة وبدأ يضربه فى الشارع واندفعت مع بعض رواد الحانة من أصحاب النوايا الطيبة من أجل فض الاشتباك وإجراء الصلح اللازم. . . وقد صاحب كل هذا المشهد، بالطبع، جلبة شديدة وصياح عال وشتائم مقذعة. ولم نلبث أن سمعنا صوت فتح نافذة فى العمارة المقابلة وظهر رجل على وجهه آثار النوم، أخذ يصيح غاضبا ويهددنا باستدعاء البوليس إن لم نكف حالا عن هذه العريضة. ورفعت رأسى نحوه فتعرفت عليه، كان أحد زبائنى فى العيادة. . كنت واثقا أنه رأتى. انسللت منسحبا فى هدوء، وبعد بضعة أيام كان لديه موعد معى لأخذ مقاس من أجل تركيب أسنان صناعية. استقبلته بطريقة عادية وبينما كنت أعمل فى فمه، أخذ يرمقنى بنظرة مستريبة وفى لحظة لم يتمالك نفسه فسألنى:

- عفوا يا دكتور. . هل تسهر أحيانا فى أماكن فى وسط البلد. . ؟

كنت أتوقع السؤال فرسمت ابتسامة بريئة وقلت بنبرة كاذب محترف:

- لا أستطيع أن أسهر أثناء الأسبوع لأننى أستيقظ مبكرا لإجراء عمليات جراحية كما تعلم.

وهنا تنهد الزبون وقال بصوت مرتاح:

- هذا ما اعتقدته أيضا. . بالأمس رأيت شخصا يشبهك فى الشارع الساعة الرابعة صباحا، قلت لنفسى يستحيل أن تكون أنت.

على أن هذه الحوادث لم تقع كثيرا لحسن الحظ. وأثناء جولائى الليلية الخلابة التقيت ذات ليلة بمحمود تريبل، عرفنى إليه صديق،

ومنذ اللحظة الأولى ، انبهرت بذكائه الخارق وأصالة أفكاره . كان مختلفا عن أى شخص آخر ، حتى اسمه كان فريدا من نوعه . فلسبب ما فضل أبوه وجده اسم محمود على الأسماء الأخرى . فكان اسمه بالكامل محمود محمود محمود . وقد أثار هذا الاسم الغريب سخرية زملائه فى المدرسة حتى أطلقوا عليه محمود أس ثلاثة أو محمود تريبل والتصقت به هذه التسمية حتى صار هو نفسه يرددها . كان محمود فى ذلك الوقت قد جاوز الأربعين بقليل ونستطيع أن نلخص حياته فى محاولات دعوية متعددة للإنجاز فى شتى المجالات باءت كلها بالفشل . . فقد التحق بالدراسة ، على الترتيب ، فى كلية الهندسة وكلية الفنون الجميلة ومعهد السينما . . ثم تركهم جميعا . ولما سألته عن سبب ذلك قال :

لقد أدركت أن نظام التعليم فى مصر يؤدى إلى خنق الإبداع فى التلاميذ بالإضافة إلى تعذيبهم نفسيا .

وعندما بان الشك على وجهى . . قال موضحا :

إن الفنانين الكبار ، رواد السينما فى مصر . . صنعوا السينما أولا ثم أنشأوا بعد ذلك معهد السينما . . مما يدل على أنهم لم يحتاجوا إلى دروس المعهد من أجل إقامة السينما . .

ذلك المنطق الغريب الشاذ الذى لا يخلو مع ذلك من وجاهة ، هو نموذج لموقف محمود من الحياة . فقد كانت معظم تصرفاته وأفكاره تتسم بنفس القدر من الشذوذ والأصالة معا . لم تكن لديه القدرة على التكيف مع الغباء والبيروقراطية والنفاق الاجتماعى . كان مستقيما صريحا ، ومعتزا إلى أقصى حد برأيه وكرامته . . وكل هذه صفات تجلب الفشل حتما فى الواقع الفاسد الذى نعيشه فى مصر . على أنه

برغم تمرده على نظام التعليم لم يكن كسولا ، كان إذا اقتنع بفكرة ما بذل مجهودا مخلصا خارقا من أجل تنفيذها ، وكان من أكثر من رأيت في حياتي إقبالا على القراءة ، وقد ثقف نفسه بنفسه حتى وصل إلى معرفة موسوعية بالفن والتاريخ والأدب . كان فنانا تشكليا موهوبا ، وقد أقام معرضه الأول في مصر فلم يلق الاهتمام الذي توقعه . فقرر حينئذ أن يحمل لوحاته ويسافر لعرضها في فرنسا . وقال لأصدقائه :
- سوف أحمل فني إلى من يفهمون في الفن . .

وقد سأله بعضهم :

- كيف تذهب إلى فرنسا وأنت لا تعرف كلمة فرنسية واحدة . ؟

فأجابهم وهو يرمقهم باستنكار وكأنه يلعن غباءهم :

- وهل أنا ذاهب إلى فرنسا لأتكلم . . ؟

وغنى عن البيان أنه فشل في فرنسا وكان يحلو له بعد ذلك أن يصف - بمزيج من السخرية والمرارة - حالته وهو جالس على الرصيف على ضفاف السين ، مفلسا جائعا ، والمطر الغزير ينهمر عليه وعلى لوحاته .

صاحبت محمود زمنا وتأثرت به . كنت أحبه وأحس بحزن عميق من أجل مصيره الذي كان قد تحدد . فبعد ذلك بأعوام قليلة اضطرب محمود نفسيا ودخل إلى المصحة أكثر من مرة ليعالج ، ثم وقع بعد ذلك في مستنقع المخدرات الذي أسلمه إلى موت مبكر مفاجئ وهو لم يتجاوز الخمسين . كان حزني على محمود شخصيا وعاما في الوقت نفسه . فمن ناحية كنت أفهم محنة الإنسان عندما يتمتع بموهبة أصيلة وتداعبه آمال كبيرة عريضة ثم يفشل في تحقيق أى منها . ومن ناحية

أخرى كنت أشعر بأن مصر تفقد مواهب وطاقات كبرى مثل محمود فى كل المجالات بسبب الاستبداد والفساد . ولو أن محمود ولد فى بلد ديمقراطى يوفر العدالة والرعاية لأبنائه لكان له شأن آخر فى الفن والحياة . شغلتنى مأساة محمود كثيرا حتى استيقظت ذات يوم وأنا أسأل نفسى : ماذا لو كتبت عنه؟ كيف يشعر وكيف يفكر؟ وكيف يلقى بهذه التعليقات الذكية المتهكمة العميقة التى تقف على الحد الفاصل بين الحكمة والجنون؟ تغمصت شخصية محمود وكأننى ممثل ، وقد تم ذلك بدون صعوبة كبيرة لأنه كان يشغل تفكيرى كليا ، وما أن وضعت رزمة ورق أمامى وفتحت القلم ، حتى اندفعت وكتبت عدة صفحات دفعة واحدة . وظللت أعمل بحماس ، يوما بعد يوم ، حتى أنجزت الرواية .

.. وكان بطل الرواية ، عصام عبد العاطى ، يشبه محمود تربيل كثيرا ، شابا مثقفا محبطا ، يعانى من الاستبداد والفساد والنفاق فى المجتمع المصرى ويقارن ذلك بخطاب التباهى الكاذب الذى يردده الإعلام الحكومى عن عظمة المصريين وحضارتهم الممتدة آلاف السنوات . كانت الرواية مكتوبة بضمير المتكلم ، يبدأها البطل بالسخرية من مقولة الزعيم مصطفى كامل الشهيرة «لو لم أكن مصرىا لوددت أن أكون مصرىا» . ثم ينهال بعد ذلك على المصريين بالنقد اللاذع . والحق أننى أثناء كتابتى لهذه الرواية لم يدر بذهنى إطلاقا أنها سوف تجر على المشاكل . عرضت الرواية على أصدقاء لى فتحمسوا لها جميعا وأثنوا عليها مما شجعنى فسمعت إلى نشرها فى هيئة الكتاب وكلى ثقة فى أنها ستحظى بالاهتمام وربما الحفاوة أيضا وهناك ، فى مبنى هيئة الكتاب الفخم على كورنيش النيل ، تلقيت الصدمة الأولى من مؤسسة الفساد الثقافى الحكومى فى مصر . . فقد تبين أن العرف فى هيئة الكتاب يقسم المؤلفين إلى ثلاث طبقات :

- مؤلفون مشهورون وهؤلاء تنشر أعمالهم فوراً .

- مؤلفون حاصلون على توصيات من شخصيات مهمة فى الدولة . . وهؤلاء تنشر أعمالهم أيضاً ، وفقاً لنفوذ صاحب التوصية بغض النظر عن جودة العمل أو موهبة المؤلف . .

- أما الفئة الثالثة ، وهى تشكل القطاع الأكبر من المؤلفين ؛ فهؤلاء ليسوا مشهورين وليس لديهم توصيات . وبالتالي يتم تحويل أعمالهم إلى لجان القراءة . والغريب أن أعضاء لجان القراءة ليسوا متخصصين فى الأدب وإنما هم موظفون عاديون ، وقد أراد رؤسائهم مكافأتهم أو معاملتهم فألحقوهم بلجان القراءة ليحصلوا على أجور إضافية . أى أن موظفاً فى الإدارة المالية أو شئون العاملين هو الذى يُقَيِّم روايتك أدبياً ويقرر مدى صلاحيتها للنشر . . والحق أن إدارة هيئة الكتاب لا تهتم كثيراً بتقارير لجان القراءة . لأن من يتقدمون إليها مؤلفون مغمورون وليست لديهم علاقات مع المسؤولين . وبالتالي فإن نشر أعمالهم من عدمه ليس بالأمر الذى يشغل أحداً فى هيئة الكتاب على أن مشكلة الرواية لم تأت فقط من الفساد والمحسوبية فى قواعد النشر . وإنما جاءت ، أساساً ، من ذلك الخلط بين المؤلف وشخصياته وانعدام التمييز بين الخيال والواقع . . ولن أنسى ما حيت تلك اللحظة العصبية وأنا جالس أمام موظف لجنة القراءة فى هيئة الكتاب وهو يقلب فى مخطوطة روايتى الموضوعة أمامه على المكتب . وإذا به يبادرنى قائلاً بوجه متجهم ونبرة عدائية :

- مستحيل أن أنشر هذه الرواية .

- لماذا؟

- هل تجهل السبب حقا؟

- من فضلك قل لى أنت .

- لأنك تشتم مصر .

- أنا لم أشتم مصر .

- أنت تسخر من الزعيم الوطنى مصطفى كامل . .

- أنا لم أسخر منه . أنا أحب مصطفى كامل وأحترمه . الذى سخر منه هو بطل الرواية عصام عبد العاطى .

- أتريد إقناعى بأنك لا توافق على هذا الكلام ، بينما أنت الذى كتبته؟

ورحت أشرح للأستاذ عضو لجنة القراءة الفرق بين المقال والقصة . وكيف أن المقال يعكس رأى صاحبه بينما القصة عمل متخيل من شخصيات متنوعة لا تمثل آراؤها بالضرورة وجهة نظر المؤلف .

ظل الموظف صامتا . واندمجت أنا فى المرافعة قائلا :

- لو اتبعنا المنطق الذى ترفض على أساسه نشر الرواية . سيصبح المؤلف لصا إذا قدم شخصية لص وإذا وصف شخصية الجاسوس سوف نعتبره هو ذاته خائنا لبلاده . . وهذا المنطق ينسف العمل الأدبى من أساسه .

ظهر بعض الارتباك على وجه الموظف . ثم ارتسمت ابتسامة مأكرة على وجهه وقال :

- أنت إذن لا توافق بطل الرواية على رأيه؟

- إطلاقا .

- متأكد .

- طبعاً متأكد .

- هل بإمكانك أن تكتب استنكاراً؟

- استنكار؟!

- نعم . . سأوافق على النشر إذا كتبت استنكاراً بخط يدك تدين فيه كل آراء بطل الرواية عن مصر والمصريين .
- وهو كذلك . .

أخذت من الموظف ورقة وقلمما وكتبت تحت عنوان «استنكار» . «أعلن أنا مؤلف هذه الرواية أنني لا أوافق إطلاقاً على الآراء الواردة على لسان البطل عصام عبد العاطي . . وأنها تمثل عكس ما أعتقد عن مصر والمصريين» . ثم أضفت من عندي : «أحب أن أؤكد أن بطل هذه الرواية شخص أخرج غير متزن نفسياً وقد لاقى جزاءه في النهاية» . وقد كتبت هذا الاستنكار بناء على طلب لجنة القراءة في هيئة الكتاب» .

قرأ الموظف الاستنكار بعناية وتهدد بارتياح ثم كتب تأشيرة الموافقة على الرواية ووعدني بنشرها في القريب .

(٣)

لماذا وافقت على كتابة هذا الاستنكار الهزلي؟ . . لأنني كنت أريد أن أنشر روايتي الأولى ولأنني قدرت أنه سيمثل فضيحة تنم عن مدى الفساد والجهل في هيئة الكتاب ولذلك أضفت أنني كتبت هذا

الاستنكار بناء على طلبهم . مضت بضعة أسابيع على هذه الواقعة وذهبت مرة أخرى إلى هيئة الكتاب لأسأل عن مصير الرواية . فوجدت موظفاً آخر غير الأول . وعندما أخبرته بما حدث أخرج ملف الرواية (الذى لم يكن قد تحرك من الدرج طوال هذه الفترة) . وما إن فتح الملف وقرأ الاستنكار حتى بدا على وجهه الجزع . وسألنى فأخبرته بالحكاية فقال :

- لا . هذا كلام فارغ .

قام بتمزيق الاستنكار أمامى وقال لى بهدوء :

- اسمع . . سوف ننشر هذه الرواية بعد حذف أول فصلين منها . .
ما رأيك؟

. . وكان رأيى ، طبعاً ، أن انتزعت من أمامه مسخوطة الرواية وخرجت من مبنى الهيئة ولم أعد لها بعد ذلك أبداً . . أصبت بإحباط بالغ ، لكننى بعد فترة تمالكت نفسى وقررت أن أنشر الرواية على نفقتى . ولما كنت قد انتهيت فى تلك الأثناء من مجموعة قصصية . . فقد جمعت القصص والرواية فى كتاب واحد طبعت منه على نفقتى ثلاثمائة نسخة فقط ، قمت بتوزيعها على النقاد والأصدقاء . . وقد لقي الكتاب حفاوة نقدية كبيرة . . وقد أدى ذلك إلى ظاهرة غريبة لازمتنى زمناً ؛ أن أكون كاتباً معروفاً بلا قراء . فالتقاد يشيدون بكتابى على صفحات الجرائد لكن من يقرأ هذه المقالات ويبحث عن الكتاب لن يجده أبداً . . على أن سوء الفهم ظل دائماً يلاحق هذه الرواية . . وبعد النجاح الكبير الذى حققته رواية «عمارة يعقوبيان» أصبح ناشرون كثيرون يلحون علىّ حتى أدفع إليهم بأى عمل من أعمالى ، ذهبت برواية «أوراق عصام عبد العاطى» لناشر كبير فى مصر ، فقرأها وقال :

- لقد أعجبتنى الرواية جدا لكننى ، بصراحة ، لا أستطيع تحمل تبعات نشرها . الآراء الواردة فيها من الممكن أن تؤدى بى إلى السجن .

بل إن ناقدًا معروفًا ، يكرهنى لأسباب شخصية ، كتب بلا أدنى حرج أو إحساس بالذنب ، مقالًا طويلًا خلط فيه عمدا بينى وبين بطل الرواية ، وبناء على ذلك اتهمنى باحتقار بلادى والانبهار بالغرب . .

هذا تاريخ الرواية التى بين يديك ، أحببت أن تعرفه قبل أن تبدأ القراءة ، وأنا واثق أن معظم القراء سيتفهمون أن الشخصيات الأدبية تمتلك دائما وجودا مستقلا عن المؤلف . . أما الذين سوف يحاسبوننى على آراء البطل ويعتبروننى مسئولا عنها . . فسوف أكرر عليهم ، باحترام ، ما قاله صاحب السينما الإيطالى ديللو استرولوجو يوما للمشاهدين :

- هذه الشاشة ليست سوى قطعة من القماش تنعكس عليها الصور . . بعد قليل سوف يظهر قطار مسرع . تذكروا أيها السادة أن هذه مجرد صورة للقطار ، وبالتالي لا يوجد أى خطر عليكم

علاء الأسوانى

٢٠٠٨

مقدمة

هذه المجموعة لها حكاية غريبة

فقد فرغت من كتابتها عام ١٩٨٩ وتقدمت بها إلى هيئة الكتاب لكي تنشرها، وعندما عرضها المسئولون بالهيئة على لجنة القراءة . . رفضتها بإجماع الآراء! لماذا؟! لأن هذه المجموعة كما جاء في التقرير . . تحتوى على آراء هدامة وتسخر من قيم المجتمع والدولة والوطن!! وحاولت أن أشرح للمسئول في الهيئة أن الآراء التي في المجموعة هي آراء أبطال القصص وليست آرائى الشخصية، وقلت لهم إن الكاتب لا يحاسب . . فى كل العالم . . إلا على آرائه فى مقالاته . . أما القصص فهى خيال من خيال ولكل شخصية روائية منطقها الفنى إلخ . . إلخ . . وهنا اقترح على المسئول فكرة عجيبة وهى أن أكتب توضيحاً ينشر فى أول الكتاب أتصل فيه من كل الآراء التى وردت فى المجموعة ووافقت وكتبت ما معناه أننى فلان الفلانى لا أوافق مطلقاً على الآراء التى وردت على لسان أبطال قصصى . . وبعد ذلك . . أعاد المسئول عرض المجموعة على لجنة قراءة أخرى فوافقت تلك اللجنة على نشر المجموعة بشرط واحد . . هو أن أحذف فصلين كاملين من القصة الأولى . . ورفضت طبعاً وأخذت المجموعة من الهيئة وسعيت جاهداً

حتى تحمس لها ناشر صديق، هو الأستاذ أمين المهدي ووافق على إصدار طبعة خاصة من ٣٠٠ نسخة فقط (مع مساهمة مالية مني) وبدأت أبعث بنسخ المجموعة إلى الكتاب والنقاد في الصحف والمجلات وهنا حدثت المفاجأة فقد أشاد بالمجموعة عدد من كبار الكتاب لم أكن أتوقعه، أو حتى أحلم به .

لقد كتب عن مجموعتي المتواضعة كل من الأساتذة :

علاء الديب وجمال الغيطاني وأحمد زكي عبد الحليم ورأفت الحياط وثناء أبو الحمد ونوال مصطفى وشريف فتحى ومصطفى عبد الله والمستشرق الفرنسى ريشار جاكمون . . وآخرون .

ولا أستطيع أن أصف سعادتي بتقدير هذه الأسماء الكبيرة لعملى الأدبى، لكن سعادتي ظلت ناقصة . . إذ لم يكن متاحاً لجمهور القراء أن يحصلوا على هذه المجموعة من الأسواق ولذلك سعدت عندما تم الاتفاق بإعادة نشر المجموعة، مع دار سبيل للنشر .

وأخيراً، بعد رحلة طويلة ومضنية حقاً، ها هى مجموعتي القصصية بين يديك أيها القارئ العزيز .

علاء الأسوانى

أوراق عصام عبد العاطى

(١)

«لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً»

مصطفى كامل

اخترت هذه العبارة لأبدأ بها أوراقى لأنها فى رأى أسخف ما سمعت فى حياتى! وهى تمثل - إن كان صاحبها صادقاً - نوعاً من التعصب القبلى الغبى الذى ما إن أفكر فيه حتى يتملكنى الغيظ، فماذا لو أن السيد مصطفى كامل ولد صينياً مثلاً أو هندياً؟ هل كان سيردد نفس العبارة معتزاً بجنسيته الصينية أو الهندية؟ وهل لاعتزازه هذا أية قيمة إذا كان وليد الصدفة؟؟ وإذا كان مصطفى كامل يختار - بإرادته الواعية كما يزعم - أن يكون مصرياً! فلا بد أن أسباباً هامة تدفعه إلى هذا الاختيار! لا بد أن يرى فى الشعب المصرى فضائل لا توجد فى أى شعب آخر! ما هى هذه الفضائل إذا؟! هل يتميز المصريون مثلاً بالجدية وحب العمل كالألمان أو اليابانيين؟! هل يعشقون المغامرة والتغيير كالأمريكان؟! هل يقدرّون التاريخ والفنون كالفرنسيين والإيطاليين؟!

ليسوا على أى شىء من ذلك . . بماذا يتميز المصريون إذن؟! أين هى فضائلهم؟ إننى أتحدى أى شخص أن يذكر لى فضيلة مصرية واحدة؟! الجبن والنفاق، الخبث واللؤم، الكسل والحقد، تلك صفاتنا المصرية ولأننا ندرك حقيقة أنفسنا فنحن نداريها بالصياح والأكاذيب. شعارات رنانة جوفاء نردها ليل نهار عن شعبنا المصرى «العظيم». والمحزن أننا من فرط ترديدنا للأكاذيب صدقناها، بل إننا. وهذه مدهشة حقاً. ننظم أكاذيبنا عن أنفسنا فى أغنيات وأناشيد، هل سمعتم عن أى شعب فى العالم يفعل ذلك؟ هل يردد الإنجليز مثلاً «آه يا إنجلترا يا بلدنا . . أَرْضك مرمرة وترابك مسك وعنبر»!! هذا الابتذال من خصائصنا الأصلية! تصوروا! لقد قرأت العبارة التالية فى كتاب المطالعة المقرر على الصف الثانى الابتدائى :

«إن الله يحب مصر كثيراً وقد ذكرها فى كتابه الكريم ولذلك فقد حباها بجو معتدل جميل صيفاً وشتاء وهو يحميها من كيد الأعداء» .

انظروا إلى ركाम الأكاذيب الذى يعشونه فى عقول الأطفال . إن جونا «المعتدل الجميل» هذا، هو الجحيم بعينه ؛ سبعة أشهر من مارس إلى أكتوبر والحمر المستحرة يشوى جلودنا حتى تنفق البهائم ويذوب أسفلت الشوارع من وطأة القيظ ، ومازلنا نحمد الله على جونا الجميل ! ثم . . إذا كان الله يحمى مصر من كيد الأعداء كما يقولون فلماذا تم احتلالنا من كل شعوب الأرض؟ إن التاريخ المصرى ليس فى الواقع سوى سلسلة متصلة من الهزائم منينا بها أمام كل الأجناس بدءاً من الرومان إلى اليهود .

كل هذه الغباوات تثير أعصابى والذى يخفقنى أكثر أن تتمسح نحن المصريين الحاملين فى الفراغة ، كان الفراغة أمة عظيمة حقاً ولكن ما علاقتنا نحن بهم؟ نحن نتاج مشوش فاسد لاختلاط جنود الفاتحين

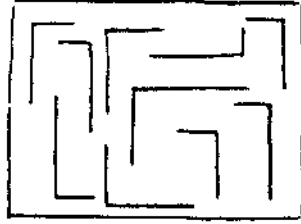
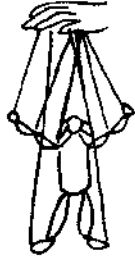
« السبايا من الرعايا المهزومة . إن الفلاح المصرى الذى استبيحت أرضه
« انتهكت رجولته على يد الغزاة قرونًا طويلة قد فقد كل ما يربطه
« بأجداده العظام ، وهو من طول عهده بالذل قد ألفه واستكان إليه
« انتسب مع الوقت نفسية الخادم . حاول أن تتذكر كم مصريًا شجاعًا
بمعنى الكلمة رأيت في حياتك ! إن المصرى - مهما علت مكانته وزاد
علمه - ينحنى أمامك ما دمت الأقوى ، يبتسم فى وجهك ويداهنك
وفى نفس الوقت يمقتك ويسعى للقضاء عليك بطريقة خفية مأمونة لا
تكلفه مواجهة أو خطورة . مجرد خادم . هذا هو المصرى . أنا أكره
المصريين وأكره مصر ، أكرهها من كل قلبى وأتمنى لها المزيد من التردى
والبؤس ، وبرغم حرصى على إخفاء كراهيتى لمصر تجنبًا لمشاكل غبية
فإننى أحيانًا ما أعجز عن الكتمان . مرة كنت أتفرج فى بيت زميل لى
على مباراة كرة قدم بين مصر وبلد أفريقى اسمه زائير وعندما أحرز
اللاعب الأفريقى هدف الفوز فى مرمى مصر هلت فرحًا واستنكر
الحاضرون سعادتى بالهزيمة ، كانت نظراتهم كابية منكسرة وملامحهم
تقطر بالحزن والعجز ، هكذا يبدو المصريون دائمًا من آلاف السنين .

(٢)

تحرر عقلى من الخرافات دفعة واحدة وأنا فخور بذلك ، فقد عرفت
رجالًا كثيرين - بينهم أذكىاء ومثقفون - أضاعوا العمر فى الأوهام ،
عقائد ونظريات خدعتهم فأمضوا سنوات يلاحقونها كالسراب :
الوطنية ، الدين ، الماركسية ، كل هذه الكلمات البراقة تكشف لى زيفها
فى وقت مبكر . كان التخلّص من الدين يسيرًا ، أما الماركسية
فاستغرقت وقتًا أطول . أعترف أن فى الماركسية جانبًا عقليًا يحترم ، كما

أنها تترك في النفس أثراً لا يزول بزوال الفكرة . ظللت ماركسياً ملتزماً لمدة عامين لكنني كنت أشعر دائماً بأنني سوف أتحوّل . لم أفهم قط لماذا ينبغي على أن أضحي من أجل مخلوقات سوقية كالعمال والفلاحين؟ كنت أراقب العامة وهم يتبادلون القفشات المبتذلة، أتأملهم في أيام الأعياد عندما يندفعون إلى الشوارع كالبهائم الهائجة، يدوسون بأقدامهم الثقيلة العمياء كل شيء جميل ، عندئذ كانت كلمات ماركس العظيمة عنهم تتضاءل أمام احتقاري وكرهي ، هل أناضل وأموت من أجل هؤلاء؟ إنهم حيوانات ، لا يستحقون إلا الازدراء والإرهاب ، هذه هي اللغة الوحيدة التي يفهمونها . جرب بنفسك أن تبدو ضعيفاً مرة واحدة أمام واحد من هؤلاء وانظر ما يفعله بك . بانقضاء الماركسية تمت سيطرتي على عقلي وتحريره وشعرت حينئذ بالوحدة . إن الأوهام كما تخذعك تؤنسك ، أما الحقيقة الباردة الصارمة فهي تلقى بك في وحشة قاسية ، على أنني بقدر نجاحي في ترويض العقل كان فشلي في السيطرة على مشاعري ، إن أعقد المشكلات العقلية لا تستعصى على فكري لكن التصرف البسيط العفوي مع الناس يربكني ويعجزني . ثمة علاقة عكسية مؤكدة بين الوعي والفعل فيكون أقدر الناس على الفعل أحملهم ذهنًا وأكثرهم بلادة والعكس صحيح ؛ يزداد الوعي حدة فتضطرب حينئذ القدرة على الفعل . إن رأسي التي لا تتوقف لحظة عن التفكير ويبحث كافة الإمكانيات والاحتمالات ، هذه الرأس تعوقني عن التصرف السليم في مواقف يعتبرها الناس عادية ويعبرونها بكل يسر . عندما أذهب لزيارة صديق في بيته لأول مرة ، تؤرقني فكرة أن البواب الذي لا أعرفه ؛ سيستوقفني ويسألني إلى أية شقة أنا ذاهب؟! إن قلقي من سؤال البواب يسيطر على لدرجة أنني كثيراً ما ألح على أصدقائي لئلا يسألني في مكان عام بدلاً من زيارتهم في بيوتهم (وهم طبعاً لا

محددسون السبب) وعندما أضطر في النهاية لمواجهة الموقف، في اللحظة التي أعبر فيها مدخل العمارة التي يسكن فيها صديقي أكون مرتبكاً كطفل، أصفر بفي أو أتشاغل بالنظر إلى ساعة يدي أو أعبت بكم قميصي، أظاهر بأنني لا أهتم. وسرعان ما يأتيني صوت البواب. يناديني وأكون قد جاوزته فأتجاهل ندائه وأمضى مسرعاً ولا ألتفت لكنه يندفع خلفي، يلاحقني، ويوقفني في النهاية ويسألني، وبرغم توقعي لسؤاله إلا أنني في كل مرة أشعر بإهانة بالغة من كل ما يحدث، وأرد على سؤال البواب بخشونة وقسوة أحياناً، وأحياناً أخرى أنسحق أمامه تماماً، أتلثم وتخرج كلماتي مترددة مضطربة وعندئذ يستأسد البواب ويعلو صوته ويحدق في وجهي بعينين قويتين مفتوحتين لأنه يكون قد شعر بضعفي، الذي لا أستطيعه أبداً في هذا الموقف هو أن أبدو في هيئة السيد الواثق المطمئن لقدرته، أن أرد على البواب بصوت هادئ وابتسامة قائلاً: أنا طالع لفلان بك، ولو أنني رددت عليه مرة واحدة بهذه الطريقة لتراجع في الحال وانكمش فوراً إلى حجمه الطبيعي. هذا الاتزان في التصرف هو ما ينقصني ولا أستطع أن أحدد إن كانت مشاعري المضطربة ترجع إلى وعيي الزائد أم إلى ظروف نشأتني. إن ذكريات صباي وشبابي تنطبع في ذهني بطريقة «تاريخية» على نحو ما، أحس وأنا أسترجع أحداث حياتي وكأنني بطل تراجيدي يتلقى ضربات القدر بقلب شجاع نبيل. إن الأبطال لا يلقون كالعامية أحداثاً عابرة وعادية. كل ما يحدث لهم هو «جلل» وقدرى بالضرورة، كما أن الأحداث لا تنطبع في ذاكرتي كومضات متفرقة متناثرة، بل كخط متصل من نقاط متوالية بغير ما توقع أو تمهيد. أتخيل ذلك على هيئة صندوق من الكارتون يحتوى داخله على فواصل وقواطع تقسمه إلى ممرات صغيرة متداخلة.



هكذا يبدو الصندوق من أعلى ، وفي داخل عمرات الصندوق الملتوية
تمضى دمية خشبية صغيرة تتحكم في حركتها خيوط كثيرة ، خيوط
دقيقة لا تكاد ترى لكنها قوية لا يمكن أن تنقطع ، وتتجمع الخيوط في
يد واحدة كبيرة خارج الصندوق . هذه اليد تتحكم في حركة الدمية ،
وصاحب هذه اليد يرى الصندوق كاملاً بمراته ومنحنياته ، أما الدمية
فلا يمكن أن ترى إلا الممر الذى تعبره ، وما إن تدرك نهاية الممر حتى
تجذبها الخيوط إلى ممر جديد . أنا هذه الدمية والصندوق الكارتون
حياتى واليد الكبيرة يد القدر .

إن القدر يقبض على مصائرنا كما تقبض اليد الكبيرة على الدمية .
حاكم صارم لا مهرب منه ، وهو يبعث بمقدراتنا وأمانينا ، يبعث بنا ولا
يدفعه إلى ذلك سوى حبه الشديد للعبث ، لا خير ولا عدل ولا حق
ولا يحزنون ، ولو أنه أدرك مرة ما يسببه لنا من أحزان ، لو أنه أحس
مرة بما يصيبنا من ألم ، لتوارى حينئذ خجلاً من أفعاله .

(٢)

أحبّ الرسم من الصغر . وجوه الناس ، الأشجار ، السيارات فى
الشوارع ، كل ما تراه عيناه كانت تنطبع تفاصيله فى ذهنه الصغير ثم

بجنى خطوطه على الورق لتعيد تشكيل الأشياء كما يحب أن يراها .
لما بلغ الخامسة عشر تحول حبه للرسم إلى مشكلة لأنه أهمل دراسته
مات ، كان يهرب كل صباح من المدرسة ويشترى بمصروفه ألواناً
و حراسة رسم ثم يذهب إلى حديقة المجلس البلدى فى الزقازيق
و يتزوى وحيداً على مقعد خال فى الحديقة يرسم ، وأخذ أبوه بالشدّة ،
فصر به كثيراً ، وكثيراً ما أخفى ألوانه ومزق الرسوم ولكن كل ذلك لم
يجد ، كان حبه للرسم أقوى ، وفى سن العشرين مات أبوه بمرض
مفاجئ وتحدد يومها مصيره ، انكسر الحاجز الأخير وسرعان ما هجر
الزقازيق - حيث نشأ - إلى القاهرة وعاش فى غرفة صغيرة فوق سطح
منزل قديم فى حى بين السرايات ولم يمض عامان حتى كان يرسم
الكاريكاتور الرئيسى لثلاث مجلات أسبوعية ، وفى الرابعة والعشرين
أقام معرضه الأول للرسوم الزيتية .

هذه البداية لا شك جديرة براغب أو بىكار أو غيرهما من كبار
الرسامين ، لكننى لا أتحدث عن هؤلاء ، تلك كانت بداية «عبد العاطى»
فهل سمع أحد عن هذا الاسم ؟! عبد العاطى هو أبى ، وبرغم بدايته
الحارة المفعمة جاءت النهاية غريبة عن التوقع ، لم يلمع عبد العاطى ،
لم يتحقق أمله الكبير فى الرسم . لم يغير شيئاً فى مسار الفن التشكيلى
كما كان يحلم ، وبعد ثلاثين عاماً من هجرته إلى القاهرة ظل أبى رساماً
مغموراً يكتسب من الرسم فى مجلة اسمها الحياة لا يقرأها أحد
ويستعين على حياته بأعمال أخرى صغيرة بأن يشرف على صحافة
الحائط فى بعض المدارس ويعطى بعض الدروس الخصوصية فى الرسم
لأولاد الأثرياء ، هذا ما توصل إليه عبد العاطى فى سن الخمسين
وأسأل نفسى : لماذا فشل أبى ؟ هل كانت الموهبة تنقصه ؟ كان بالتأكيد

أكثر موهبة من رسامين كثيرين نجحوا واشتهروا، هل قضى على أبى كسله وجهه للملذات؟ بالعكس . أبى لم يسرف فى الخمر والمخدرات إلا فى السنوات الأخيرة، قبل ذلك كان يعمل بغزارة وإصرار، كثيراً ما كنت أستيقظ فى الصباح وأنا صغير فأجده لم ينام وقد قضى الليل كله فى لوحة جديدة، كنت أحبه عندئذ . عينيه المرهقتين ووجهه المشكود وضحكته الخافتة الراضية . يجفف يديه بسرعة فى مزيله الملمطة بالألوان وينحنى على ليقبلنى فتحتوينى رائحته الخشنة الطيبة، ثم يجذبني من يدي ويجرني إلى الخلف قليلاً ويشير إلى اللوحة على الحامل ويسألني وهو يتصنع الوقار:

- ما رأيك يا أستاذ فى الشغل؟ عجبك؟

وتحتج أمى بدعابة: أنت بتسأل عصام؟ هو يفهم فى الرسم العيل ده؟

ويؤكد أبى وهو يحملنى إليه ويقبلنى:

- إزاي بقه! سيكون فناناً كبيراً! بكره أفكرك.

* * *

ليس الكسل ولا نقص الموهبة، ما السبب إذن؟ لما كبرت أدركت السبب . إن ما ينقص أبى هو اللمعان: تلك الهالة التى تحيط بالأعلام وتمنحهم التأثير فى الآخرين .

إن اللمعان صفة لا تكتسب لكنها توهب لأناس دون غيرهم، واللامعون يولدون وأماكنهم محفوظة على القمة، يكفيهم أن يعملوا ببعض الإتقان حتى ينهمر عليهم الإعجاب والتقدير، أما غير اللامع

فإن اجتهداه معركة يائسة ضد الطبيعة لا بد أن يخسرها، ومهما تفانى في عمله فإن تقدير الناس يجيئه متردداً يتخلله شك وحذر .

إن الذى اكتشف العالم الحديد ليس «كريستوفر كولبس» ، بل هو ملاح عجوز موهوب اسمه «بنزون» كان يرافقه على السفينة وقد أشار بنزون على كولومبس بالطريق الصحيح للكشف ثم غمر اسمه النسيان فى ضجة المجد التى انطلقت حول اسم كولومبس اللامع المحفوظ .

كان قدر أبى كقدر بنزون . أن يخلق باهتاً ، عادياً كملايين متشابهة لا يهزها شيء متوسط القامة أصلع وبدين نوعاً ، تجلس معه ساعة كاملة ثم ينصرف فلا تفكر به أو ربما تخطي فى اسمه إذا لقيته بعد ذلك . صوته كانت له بحة خفيفة يظن من يسمعها أنها سرعان ما تزول فينجلي صوت يؤثر فى الأسماع ، ولكن البحة لم تكن تزول وكان صوت أبى يصدر مخنوقاً وجمله مدغومة ، كان يتحدث بسرعة وكأن الكلمات تتساقط من فمه وكان مستحيلاً أن يحتفظ بانتباه الناس لما يقول أكثر من دقائق قصيرة ، بعد ذلك ينصرف الناس عنه إلى محدثين آخرين وقد يجذبهم أبى حيثئذ من أكمامهم أو يضغط أكتافهم بأصابعه ليستبقى الاهتمام ، طفل عاجز تسبقه أمه فى الزحام فيتعلق بأهداب ثوبها لئلا يضيع . فى البيت لم يكن أبى الزوج الذى يضع القواعد ، كان منصاعاً تماماً لأُمى وكنت وأنا طفل لا أستشعر رهبة من أبى وعندما كان ينهرنى أحياناً كانت رغبة خبيثة ولذيذة تدفعنى لتحديه وعصيانه ، ولما بلغت المرحلة الثانوية كان زملائى فى الإبراهيمية يندهشون عندما أخبرهم بأن أبى يعلم بتزويغى من المدرسة . كنت أخبر أبى بهدوء بأنى سأزوغ غداً وأذهب للسینما وكان يستمع إلى ثم يعبث فى شاربه . كعادته عندما يضطرب أو يفاجأ - ثم يتظاهر بالتفكير لحظة ويسألنى بين ضحكة عصبية تصلح للاعتذار :

ـ ألا تخشى أن تفوتك دروس هامة إن زوغت؟

ويكون هذا كل شيء، سؤال والأمر متروك لى، لو تجاهلت السؤال لانتهى الأمر عند ذلك أما لو ترددت وبان على التفكير عندئذ يتشجع هو ويدفع، يحدثنى بحرارة عن أهمية الانتظام فى الدراسة ثم يقول بنبرة متلجلجة :

ـ لا أعرف . . . يعنى؟ أظن لا داعى لموضوع التزويغ، ما رأيك أنت؟ كان أبى ضعيفاً؛ فلحقته به هزيمة كاملة، لكنه برغم فشله وضعفه كان يعجبني . يعجبني لأنه تقبل هزيمته فى صمت من يعرف القواعد، لم يملأ الدنيا صياحاً ولم ينقلب إلى حشرة سامة . فى مسابقة كبرى ينتظر أبى نتيجة وسط المتسابقين وحين يعرف بخسارته وفوز سواه لا يندعش أو يغضب بل يللملأ أشياءه بعناية وهو يتسم فى حزن ثم لا يلبث أن يسرع الخطى ليلحق بالأتوبيس الأخير، وإذا ما ارتاح لجاره فى المقعد يحكى له بلهجة محايدة كل ما جرى فيتابعه الجار بإشفاق لأول وهلة لكنه بعد ذلك عندما يتأمل له فإن شيئاً صغيراً كحذاء أبى أو قميصه أو حتى وجهه يدفع الجار لأن يفهم لماذا فشل فيقل أسفه حينئذ أو يزول .

كثيرون يسهرون فى بيتنا، أسماء كثيرة، مهن وأعمار مختلفة، يختفى البعض بالسفر والموت وتظهر وجوه جديدة، برغم اختلافهم فإن خيطاً واحداً يجمعهم، كلهم مشروعات كبيرة لم تتحقق: «الغامدى» مدرس اللغة العربية كان الشعر أملة، و«محمد عرفان» ماركسى قديم ترك حلمه بتغيير العالم وقنع بالصحافة الفنية، يلقق أخبار الرافضات والمغنين ويتز نقودهم، حتى عم «أنور» عرفت من أبى أنه كان يحلم بأن يكون ملحنًا كبيراً وانتهى إلى عزف القانون وراء الرافضة «سكر»، وغيرهم كثيرون . مجموعة من ذوى الأحلام

المحطمة، عجائز الفرح، يجتمعون كل ليلة ليلعنوا الحظ الأعمى
، الزمن الفاسد، فلان رأيناه وعرفناه عندما كان يسأل الله في حق
السيجارة وهو الآن يلعب بالأموال، فيللا في المعادى وشاليه في
العجمى وثلاث سيارات فارهة، وفلان المغنى المشهور ألم يرسب في
اختيار الإذاعة في الخمسينيات؟ صدقوا هذه الحكاية لأننى كنت عضو
اللجنة . عندما أجلس مع أصدقاء أبى لا أشعر لحظة بأنهم أصدقاء
متحابون، يتشاحنون كثيراً وقد تنشب بينهم مشادات عنيفة لكنهم
يحرصون دائماً على المجيء، لا يقطعون لأن ما يجمعهم أقوى من
العداوة، إنهم يحتاجون للاجتماع ببعضهم لأن إحساسهم بالإخفاق
يذوب فى شعورهم بالجماعة، إذا اجتمعوا لا يخجل أحدهم من
فشله .

أهرب من الجلوس معهم، أتعلل بأى عذر، لا أسهر معهم إلا إذا
كان عم أنور موجوداً. عم «أنور» مختلف، أقرب أصدقاء أبى،
تربطهما عشرة ثلاثين عاماً، يوماً ما كانا يعيشان معاً فى غرفة واحدة فى
بين السرايات، أبى يحلم بالرسم وأنور يحلم بالموسيقى، أنور يكسب
كثيراً من عمله مع «سكر» وينفق ببذخ على نفسه وأصدقائه، أعزب لم
يتزوج لأن الزواج فى رأيه نكد والنكد يعجل بالموت . عم «أنور»
ظريف، لا يكف لحظة عن السخرية وإثارة الضحكات من حوله، فى
ليالى الهنا كما يسميها (ويكون ذلك بعد فرح أحد الأثرياء) يظهر عم
«أنور» فى المجلس محملاً «بالخيرات»: زجاجة براندى كبيرة وقرش
حشيش من الصنف الغالى وكيلو كباب وحلويات وعندما يلقاه
الأصحاب مهللين يتصنع أنور هيئة الجذ ويلقى إليهم بما يحمله وهو
يردد فى نبرة أب حازم:

• كلوا واشربوا حتى يتبين الخيط الأبيض فى نهار أبوكم الأسود .

لا يكره عم «أنور» أحداً كما يكره سكر الراقصة وهو يخصها بالجزء الأكبر من نواته وتشنيعاته ، حتى إنه أحياناً عندما ينقطع الحديث ويسود الصمت فإن أحد الحاضرين يسأل أنور عن أخبار الست ، حيثئذ يندفع أنور ساخراً ببراعة من جهل سكر وتحكمها وعشاقها الأغنياء وخيبة أملهم ، ويضح المكان بالضحكات من جديد وبرغم حب أنور الطاغى للموسيقى فهو يقضى ليلالى كاملة بغير أن يعزف ، ويرفض فوراً وبخشونه إذا ما طلب إليه أحد أن يعزف ، ولو أصر الطالب قد تحدث مشاجرة ، وأصدقاء أنور يعرفون طبعه فلا يطلبون منه ، ويعرفون أنه فى لحظة معينة ، ليس بمقدور أحد أن يتوقعها ، يمد أنور فجأة يده ويتناول القانون ويلبس الخواتم ويشرع فى العزف ، وإذا تأملت وجهه بعد لحظات من العزف لهيئ إليك أنه لم يعد يرى الحاضرين أو يميز ما حوله ، بعدما يفرغ أنور يتلقى صيحات الإعجاب والتصفيق بوجه مأخوذ شاحب ، ويظل وقتاً كذلك حتى إذا ما عاود شغبه وسخريته ، عرفنا أنه عاد .



اليوم الثلاثاء ، لا توجد أفراح . عم «أنور» يظهر مبكراً . أول القادمين . لم تزل على وجهه آثار النوم وصخب سهرة أمس . يحيى أمى بأدب ويدلف إلى المرسوم . يخلع بذلته ويعلقها بعناية ثم يرتدى جلبابه . يحتفظ دائماً بجلباب له فى بيتنا . بعد قليل يدخل إليه أبى . يحتسيان الشاي معاً ثم يجلسان على أرض الغرفة وينهمكان فى إعداد عدة السهرة . يبدأان بالجوزة . تنظيف الجوزة وإعدادها مهمة ينشغل بها أنور وأبى وكثيراً ما يحتدم حولها النقاش ، يكون رأى أبى أن التخشينة

تكتم الدخان بينما يرى أنور أن البوصة مسدودة . أتأملهما : أنور بجلبابه المخطط وقد جلس ورَبَّ ساقيه وراح يمزق بأصابعه وربقات صغيرة يدسها بين عامود الجوزة والحجر وأبى بجواره يكرر النفخ في ميسم البوصة فتسمع قرقرة الماء . عندما جاء إلى القاهرة من ثلاثين عاماً ، فنانان شابان مليئان بالعزم والطموح ، هل كان يدور بذهنيهما هذا المصير ؟ ما أبعد البداية وأغرب النهاية . فى العادة يكون أنور الأمهر فى تشخيص مشكلة الجوزة وعندما يفرغ من وضع التخشينة يشعل حجراً للتجربة ويجذب نفسه طويلاً يسعل بشدة بعده وتحمّر عيناه ويمد البوصة ناحية أبى ويقول :

- قلت لك التخشينة . أهى اتعدلت وبقت لوز . خد . اشرب وادعى لى .

وينظر أبى ناحيتى ويقول ضاحكاً قبل أن يدس الميسم فى فمه :
- عمك أنور أصله قبل المزيكا كان شغال ميكانيكى جوز فى بين السرايات .

وينبرى أنور قائلاً :

- يا بن القحبة . بلاش الكلام ده . إنت عاوز عصام يأخذ عنى فكرة وحشة .

ثم يلتفت إلى ويتخذ وجهه هيئة المظلوم ويقول :

- إوعى يا أستاذ عصام تصدق أبوك . أنا طول عمري راجل مستقيم ! أبوك هو اللى علمنى الحشيش ، أنا كنت فاكره فى الأول شوكلاته .

وينطلق وابل من النكات والقفشات حتى يتخذ وجه أنور هيئة الجدد فجأة ويقف ويدس يده في جيب سترته المعلقة على الحائط ويخرج قطعة خشيش ملفوفة في سلوفانة يناولها لأبى الذى يشمها ثم يعضها بأسنانه ويضغطها بين أصابعه ويقول :

- حلوة يا أنور ! من عند مصطفى ؟ ! إيه رأيك نستنى الجماعة ولا نبدأ بعزف منفرد .

ويجلس أنور القرفصاء من جديد ويقول بلهجة جادة تمامًا :

- نبدأ بعزف منفرد من مقام السيكا .

يقطع الخشيشة بأسنانه ، قطعاً صغيرة يوزعها على أحجار المعسل ثم يشعل الفحم وسرعان ما يبدأ التدخين ، ويستبقيانى فأجلس وأدخن معهما ، وبعد بضعة أحجار يسرى المخدر إلى رأس أنور فيسبل جفونه المتفتحة وتبدو فى عينيه نظرة ساهمة ويهز رأسه وكأنه يتابع حواراً داخلياً لا يسمعه سواه ثم يلتفت إلى أبى ويبتسم ويربت على ساقه البدينة يقول :

- يعنى يا سى عبده مش كنت سبتك من مسألة الرسم دى . فيها إيه يعنى لما كنت اتعلمت الرقص البلدى هو الرقص عيب . كان زمانك بقيت حاجة تانية دلوقت . الوليه سكر بتعمل كده (وهنا يهز أنور وسطه وقد رفع ذراعيه إلى أعلى فى حركة راقصة) . وتأخذ ٥٠٠ جنيه فى الليلة بنت الحرام .

ويهم أبى بالرد لكن عم «أنور» ينهض فجأة واقفاً فى وسط الحجره وقد أخذته الحمية ويصيح :

. حتقول لى إيه يا عبده بس؟ يا راجل حرام عليك . . باقولك بتعمل
٥٠٠ تاخذ ٥٠٠ جنيه . ثم يغيبان ، أنور وأبى ، فى ضحك طويل .

على الغداء ، يشرب أبى كأساً من الروم . عادة تساعده على نوم
مسيق فى الظهيرة كما يقول . يبعث الروم حرارته فى أبى فيتحدث إلينا
أنا وأمى . ويضحك وأحياناً يتسرب إليه شجن غامض لكنه فى ذلك
اليوم بدا مضطرباً على غير العادة ، راح يعبث فى شاربه فى صمت
« عيناه تحملقان فى الفراغ ولما سألته أمى مالك . وكأنه كان ينتظر السؤال
زفر أبى وتجرع رشفة من كأس الروم وقال وهو يعبث بعود كبريت بين
أسنانه :

. تصوروا جاءنى النهاردة جواب من واحد معجب بأعمالى .

بدأ أبى خجلاً واستطرد بصوت أعلى وكأنه يقول ما أعده من قبل :

. أنا طبعاً مبسوط كأى فنان بخطاب من معجب . بس مبسوط أكثر
إن فيه حد متابع الفن التشكيلى فى مصر فى الزمن بتاعنا ده .

ساد الصمت لحظة ورشف أبى من كأسه ونظرت أنا إلى أمى وخيل
إلى أنها تود لو تقول شيئاً ولكنها لم تحدده بعد واندفعت أقول :

. هو فى الجواب؟

. عندك فى جيب البدلة .

نهضت ودسست يدى فى جيب الجاكيت المعلقة على الشماعة فى
ركن فى الصالة وأخرجت الخطاب . كان مكتوباً على الظرف بخط
أسود أنيق : الفنان الكبير «عبد العاطى» جريدة الحياة ٦٠ شارع القصر
العينى . فتحت الظرف وأخرجت الرسالة ولما بدأت أقرأ هتفت أمى :

. أقرأ بصوت عال يا عصام .

مازلت أذكر اسم مرسل الخطاب، «محمود على فرغل» من منية النصر محافظة الدقهلية. قال إنه يعمل مدرساً للرسم وأنه يرسم لوحات بالألوان الزيتية وأنه يحلم بأن يكون رساماً كبيراً مثل أبى وأكد أنه يتابع أعماله فى جريدة الحياة كل أربعاء، وأنه رأى معرضاً واحداً أقامه أبى فى القاهرة منذ سنوات، وبرغم أنه جاء إلى القاهرة خصيصاً لرؤية المعرض وأنه كان يتمنى لو تحدث مع أبى إلا أن خجله الشديد منعه من تقديم نفسه إليه، لكنه عاد وأكد أنه سيزور أبى قريباً فى مكتبه بجريدة الحياة حتى يتعرف عليه ويعرض عليه لوحاته، ثم أنهى الخطاب بعبارة «تقبل تحيات تلميذك السائر على دربك» محمود على فرغل.

سواء كان فرغل معجباً حقيقياً بأعمال أبى، وهذا احتمال قائم لأنك تجد دائماً نوعاً من الناس يتابعون أشياء لا يعرفها سواهم ويتحمسون لها جداً أولئك الذين يشجعون نادى «الترسانة» أو عشاق صوت «عبد اللطيف التليانى» مثلاً، سواء كان فرغل معجباً بأبى أو منافقاً يتقرب منه ليساعده أو يقدمه لأحد فعندما انتهيت من قراءة الخطاب كان وجه أبى يتضرج بسعادة غامرة، أخذ يعبث بالشوكة فى الصحن الخالى وبدأت فى عينيه نظرة سعيدة، وزمت شفثيه كطفل يمنع نفسه من الابتسام، وهتفت أُمى التى بدا أنها استوعبت لأول مرة ما يحدث:

- حلو قوى يا عبده. ألف مبروك. أنا رأى بقى نبروز الجواب ده ونعلقه فى الصالون.

وضحكت أنا عالياً وصاح أبى مستكراً:

- نبروز ونعلق إيه؟! أما أنت ولية عبيطة صحيح.

وبهتت أُمى لحظة لكنها انفجرت ضاحكة وهى تدمدم :

- يا سيدى خلاص .. خلاص .. بلاش نبروزه . ما تزعش .

وأشعل أبى سيجارة وأكدها . بلهجة هادئة رصينة هذه المرة . أنه ليس سعيداً بالمعجب لكنه سعيد من أجل الفن التشكيلى ، ودار أبى حول هذه الفكرة وأكدها بعبارة مختلفة ، ثم انتقل إلى كلام كثير عن واجب الفنان الكبير تجاه الناشئين الموهوبين . وتحدث عن أساتذته فى الرسم وتشجيعهم له ، وأحسست أن أبى يتوق لليوم الذى يرى فيه فرغل ، وأنه سيعمل كل جهده ليساعده .

دخل أبى لينام ثم حملت أُمى الصبحون إلى المطبخ وجلست وحدى . كان الخطاب لا يزال موضوعاً أمامى على المائدة . تأملته . كان خط فرغل جميلاً مصقولاً . مددت يدى وتناولت الخطاب ونقل ملمس الورق لأصابعى إحساساً منتظماً ناعماً . ونظرت إلى صورة أبى وأُمى بثياب الزفاف المعلقة على الجدار . فكرت فى البدء فى طراز بدلة أبى فى الصورة . ثم ضاع تركيزى بعد ذلك للحظة ووجدتنى أشد الخطاب بين يدى . أمزقه . أصدر المزق صوتاً خافتاً خشناً وشكنى قلق مبهم لما انتهيت لكنى طردته واندفعت . وكأنا لأطمئن نفسى . أمزق الخطاب إلى قطع صغيرة ثم قطع أصغر . كان التمزيق يزداد صعوبة فى كل مرة ، لكننى أكملته حتى صار الخطاب وريقات صغيرة تناثرت فجمعتها بعناية بيدي ودلفت إلى المطبخ وألقيت بها من نافذة المنور ورأيت الهواء يبعثرها فى كل اتجاه ثم تبادلت مع أُمى حديثاً عادياً وتركتها ودخلت إلى غرفتى ونمت .

فى المساء أيقظتنى أُمى وقالت وهى تقدم لى كوب الشاي «أبوك

يريدك» لم أفكر بشيء محدد وقلت لنفسي أشرب الشاي وأدخن
السيجارة ثم أغسل وجهي وأذهب إليه .

كان المجلس منعقدًا كالعادة واستقبلتني غيمة كثيفة من الدخان
ورائحة الحشيش النفاذة وأدركت من عيني أبي المحققتين أنه يشرب من
مدة وهلل عم «أنور» مرحبًا .

- أهلاً يا عصام . أنت فين؟

ودعاني أبي للجلوس فجلست ومد إليَّ عم أنور الجوزة فاعتذرت
لأن لدى مذاكرة وعقب عم أنور وهو يدخل مبسم البوصة في فمه :

- وماله . . هو ده يمنع . . أحسن مذاكرة تعملها وأنت مسطول .
بالك وأنا في ثانوى كنت ألف السيجارتين واتسلطن وبعدين أجعص
مسألة رياضة ما تخدمش في إيدي ثانية .
- أتاريك ما نفعتش في التعليم يا فقرى .

هكذا هتف محمد عرفان وضحك، وصدرت ضحكات خافتة من
الجالسين، وشعرت بأن الجو متوتر لسبب ما، ولم ألبث أن أدركت أن
دخولي عطل نقاشًا كان محتدمًا بين أبي والغامدى . جاوز الغامدى
الخمسين لكنه يبدو أصغر، وسيم، عيناه خضراوان واسعتان وملامحه
واضحة قوية محددة، شعره الكستنائى مصفف للوراء بعناية وبشرته
بيضاء متوردة، شيء فى هذا الرجل ينفرنى منه، هذا الشيء أجده كثيراً
فى مدرسى اللغة العربية، روح دعية وطابع لرج كربه، ابتسم الغامدى
وقال بصوت واضح وبطء رصين، أستاذ يلقي على تلاميذه درس
اليوم:

- المشكلة أنك متفائل يا عبده . متفائل أكثر من اللازم . اعلم أن الفن

• الأدب فى مصر قد ماتا تماماً ، أمامنا نصف قرن على الأقل قبل أن
• يستعيد المصريون اهتمامهم بالفنون ، قبل أن يتشكل للفن جمهور
• سقى ، مع احترامى الشديد للأخ الذى بعث لك الخطاب .

كان وهو يتكلم يتسم ويحدق بعينه الخضراوين اللواتق فى وجوه
الجالسين وبدا واضحاً أنه أثر فىهم وأنهم مقتنعون بما يقول ، وبدا أبى
مضطرباً يجيش صدره بالاعتراض فتمللمل فى جلسته وتنهَّد ثم قال
بطريقته السريعة المتقطعة :

- معلش برضه يا غامدى . أفراد قلائل يصلحون كبداية .
وصاح الغامدى معترضاً فى نبرة تمثيلية وبدا من الواضح أنه مصر
على هزيمة أبى للنهاية :

- بداية إيه يا أستاذ اصح بقى ! كل ده لأن واحد معجب كتب لك
جواب ! عاوز تقنعنا أنه يوجد فى مصر جمهور للفن ! انزل الشارع
وأنت تفهم ! مر على محطات الأنوبيس ! بص فى وجوه الناس ! دول
ممكن يهتموا بالفن دول ! دول بيناموا يحلموا بفراخ الجمعية .

ضحك الغامدى وضحك الحاضرون لكنى لم أضحك ولا عم أنور
الذى تشاغل بتنظيف الجوزة وإن بدا أنه يتابع الحوار باهتمام . انحنى
الغامدى للأمام وهو جالس وقال بطريقة من ينهى موضوعاً تافهاً طال
حواله الجدل :

- اسمع يا عبده . أنا أريحك . إنت قلت لى كاتب الجواب بيشتغل
إيه ؟

- مدرس .

هكذا أتم أبى بصوت خافت .

- أيوه يعنى مدرس إيه؟!

سكت أبى لحظة ثم أجاب .

- مدرس رسم! بس . . .

- بس إيه يا راجل! واحد مدرس رسم مش عاوزه يفهم فى الرسم .
على الأقل المبادئ اللى درسها . مدرس رسم لما يتابع الرسم تقوم
سيادتك؟ تعتبر إن دى علامة على وعى فنى . يا راجل حرام عليك .

أشاح الغامدى بيده وضحك وهو ينظر للحاضرين ، كما يفعل
لاعب الشطرنج بعدما يقوم بحركة أخيرة بارعة تنتهى الدور لصالحه ، ثم
عاد لأبى وقال بنبرة نهائية تنضح بالسخرية :

- يا أستاذ عبد العاطى! أنت أعطيت موضوع الخطاب أكثر مما
يستحق .

وصاح أبى مقاطعاً وقد بدا لأول مرة أنه نفسه قد بدأ يشك فى صحة
رأيه :

- لا! المسألة مش إنه مدرس رسم! أنا حسيت من كلامه إنه شخص
بيفهم .

- بيفهم! ده بيفهم؟!

هكذا تساءل الغامدى وأطلق ضحكة ساخرة وبدا المعنى الخبيث
للجميع ، إذ كيف يفهم من يعجب بأعمال عبد العاطى ، وأربد وجه
أبى بغضب صادق وتتم بانفعال .

- أيوه بيفهم يا غامدى! بيفهم أنا متأكد .

ثم التفت أبى حوله وكأنه يبحث عن شىء ونظر إلى وقال :

- قوم يا عصام هات الجواب من جوه .
 نظرت إليه ووجدتني أنهض ببطء وأتجه إلى باب الحجرة . ولعله
 أرجع ترددى إلى النسيان فقال :
 - تلاقى الجواب فى الصالة . على الترايزة . أنا فاكرو .
 استدرت من جديد ونظرت إلى أبى وقلت بنبرة خالية :
 - أنا قطعته .
 - إيه ؟ !
 هكذا صاح أبى وقد اتسعت عيناه وشعرت أننى أنزلق للنهاية فقلت
 مؤكداً ببطء :
 - أنا قطعت الجواب .
 كان ذلك فوق احتمال . انتفض واقفاً ودنا منى . أخذ يقترب حتى
 لفحت وجهى حرارة أنفاسه اللاهثة وتوقعت أن يصفعنى لكنه عاد
 فجأة للخلف وصاح :
 - أنت مجنون ! قطعاً مجنون ! قطعت الجواب يا مجنون .
 بدا وكأنه لا يجد ما يقوله وجعل يتحرك ويستدير ويصيح بنفس
 العبارات وكان عم «أنور» قد قام إليه وأمسك به يهدئه ووقفت أنا أرقب
 ما يحدث . لم أكن أشعر بخوف أو ندم . كان وعيى قد انفصل . كنت
 أرى أبى وأنور والجالسين وكأنهم أشكال هائمة غير محددة وأفقت
 على صوت أبى وهو يقول :
 - سامع بيقول إيه ! غور من وشى .
 ران الصمت لحظة وسمعت عم أنور وهو يهمس لأبى :

- مش كده يا عبده! كده كثير .

صوت أمى الخافت الملح بطن فى أذنى وأنا أجتاز الردهة :

- دى عملة يا عصام . . تقطع الجواب؟! شفت أبوك كان فرحان به
قد إيه! تقوم تقطعه؟!!

لم ألتفت إليها . دلفت إلى حجرتى وأغلقت الباب ورائى .
وجلست بهدوء إلى المكتب وأشعلت المصباح وأخرجت كتاباً وبدأت
أستذكر . ما زلت أذكر الدرس الذى قرأته فى تلك الليلة : «الضغط
الأسموزى» . تنتقل السوائل من خلال الأغشية نصف النفاذة . ينتهى
تبادل السوائل على الناحيتين عندما يتساوى الضغط حول الغشاء . أبى
وعم أنور والغامدى والخطاب وخط فرغل الجميل ، كل ذلك كان يظهر
فى ذهنى من حين لآخر وأنا أقرأ ، صور منفصلة تلمع وتخبر ولكنى لا
أنفعل بها . عندما يفاجئنى الحدث فإن ذهنى يسجل تفاصيله بدقة ويمر
وقت قبل أن يعيد عقلى ترتيب الأحداث . عندئذ أنفعل . ويكون
انفعالى قوياً لكنه ينجى متأخراً . فرغت من المذاكرة حوالى الثالثة
صباحاً وكانت تصلنى من المرسوم ضجة بعيدة ، أصوات وضحك
وموسيقى . خلعت ثيابى وارتديت «البيجاما» وكنت أستعد للنوم لما
سمعت وقع أقدام ثقيلة فى الردهة . خطوات أبى . نقر بأصبعه على
الباب . لم أرد فتح الباب ببطء وأطل وابتسم ودخل . ظللت أنا واقفاً
أمام السرير واقترب هو وارتمى على المقعد ومد قدميه وبدأ من وجهه
الذى بانث تفاصيله فى ضوء مصباح المكتب أنه مخدر تماماً ومتعب .
مرت لحظة وجلست ببطء على السرير ولم يلبث أبى أن قال فجأة :

- أنت عندك محاضرات بكره الساعة كام؟

وأجبت :

. الساعة ١٢ .

فقال وكأن ما يشغله فعلاً هو موعد المحاضرات :

- كويس! تلحق تنام شوية عشان تروح بكره فايق .

عاد إلينا الصمت وشعرت بضيق مفاجئ، وودت لو ينصرف أبى
* يتركنى لكنه ثاءب وقال لى :

- تعرف يا عصام أنا متفائل بمستقبلك جداً . متأكد أنك هتبقى عالم
سير .باحس إنك بتحب دراستك . إنت مش بتحب دراسة الكيمياء؟!

كان فى صوته رنين زاد من ضيقى فلم أجبه ولكنه استطرد :

- أكيد أنت بتحب الكيمياء والا إزاي تبقى متفوق كده! بس أهم
حاجة إنك تكمل يا بطل . . آه مش تاخذ البكالوريوس وتريح . لا بد
من الدكتوراه . على أيامنا كان البكالوريوس حاجة كبيرة . إنما دلوقت!
مش أقل من الدكتوراه عشان تقول إنك عملت حاجة! وبعدين إنت
وراك إيه؟ لا مرتبط بواحدة ولا مستعجل على الجواز . . مش كده والا
أنا غلطان! قول . . قول ما تتكسفش .

أطلق أبى ضحكة وبدت دعابته مخرجة وثقيلة ثم استأنف وقد بدا
مصرأ على المرح :

- حتى لو فى واحدة شاغلاك . تقدر برضه تكمل دراستك .
بالعكس يمكن الزواج المبكر يدفعك للشغل أكثر . أهم حاجة إن مالكش
طموح فنى . الفن هيا الحاجة الوحيدة اللى يتخاف منها . تعرف
يا عصام! أنا لما سبت دراستى ما فكرتش لحظة . كنت حاسس إنى
بعمل حاجة طبيعية جداً . طبعاً أنا مش ندمان . عمري ما ندمت على
تفرغى للفن . ما كنتش ممكن أتخيل نفسى حاجة تانية . صحيح

الظروف وقفت ضدى كثير . لكنى عملت اللى على . قبل الثورة كنت باشتغل فى ٣ جرائد وكانت الناس بتقرأ وتفهم وتقارن ، وكان أى رسام جديد الناس تشوفه وتقدر موهبته . بعد التأميم المسألة بقت أكل عيش ساعات يتهاى لى إن لا الناس بقى لها نفس تضحك ولا الرسامين لهم نفس يرسموا . الموضوع بقى أداء واجب . أنت بترسم نكتة وعارف أنها بايخة والناس بيقرأوها وعارفين إنها بايخة بس بيقرأوها ،

هممت بأن أطلب من أبى أن ينصرف . لكنى لم أستطع .

. أنت قرئت النكتة اللى رسمها شاكر فى الأهرام النهاردة .

. لأ .

. لازم تقرأها . دى غريبة قوى . أنا مش عارف شاكر ده اتهيل واللا إيه؟ تصور راسم إيه النهاردة؟ قرص شمس ومطلع منه خطين لافهم حوالين بعض وكاتب تحت فى التعليق «تريكو» . شوف السخافة . المفروض إن دى نكتة ومنتظر الناس تضحك لما تقرأها . تضحك على إيه؟ على غباوة الرسام طبعاً إنما الأستاذ شاكر طبعاً رسام معروف والأهرام بيديله ٨٠٠ جنيه شهري ولو رسم شخبطة ما حدش يقدر يكلمه . لأ والمهم إن شاكر فاهم نفسه فنان كبير وتقابله فى نقابة الصحفيين يعمل نفسه مش عارفك أو يفتكرك بعد شوية ويقولك «أهلاً يا فلان ، معلش أصل شكلك اتغير وأنا دماغى زى ما أنت عارف» طبعاً الحركة دى ما يعملهاش معايا أنا بالذات ، ييجى لغاية عندى ويحفظ أدبه .

لم أعد أحتمل فانتفضت واقفاً وبدا على أبى أنه فوجئ فصمت لحظة ثم نهض من مقعده وقال وهو يستدير ليخرج وكأننا انتهينا من حوار عادى فى ليلة عادية :

- طيب أسيبك بقى عشان تنام. تصبح على خير .

تقدم بخطوات ناحية الباب وأطرقت أنا ونظرت إلى الألوان المتداخلة المنقوشة على السجادة وغمرنى للحظة إحساس مبهم بأن أبى لم يخرج من الغرفة وأنه اقترب منى ولما رفعت رأسى كان واقفاً أمامى ومد يده بغير أن يتكلم ووضعها على كتفى ونظر إلى لحظة ثم قال :
- أنا متأسف يا عصام .



يكون أبوك شيخاً مريضاً عاجزاً وتمشى بجواره فى الطريق، ويتشبث هو بيدك، يتوكؤ عليك لئلا يسقط، يحدق المارة فى عاهة أيبك ويتفحصونك، تستقر نظراتهم على وجهك، كيف تشعر حينئذ؟ قد تخجل من عجز أيبك وقد تبالغ فى إظهار عطفك لتحظى بتقدير الناظرين وقد تنهره، تقسو عليه لأنك تحبه ولأنك حزين من أجله ولأنك تريده أن يعود كما كان قوياً قادراً .

تصدر مجلة الحياة يوم الأربعاء، وأنا ذهبت إلى بائع جرائد أمام الجامعة لأشتريها لكن البائع لم يعرفها، وذهبت إلى بائع آخر فى ميدان الجيزة وبائع ثالث ورابع فلم يعرف أحد أن مجلة تصدر بهذا الاسم، وركبت إلى ميدان سليمان ودخلت إلى محل كبير للجرائد ولما اقترب منى البائع سألته بغير اهتمام :

- تسمع عن مجلة اسمها الحياة؟

تكلمت بهذه الطريقة لأنى كنت أشعر بالحرج والحزن فى كل مرة ينكر الباعة وجود المجلة التى يرسم فيها أبى وكنت أتوقع ألا يعرفها هذا

البائع بدوره ، وكان سؤالى عنها - وكأنى لا أهتم - يقلل من حرجى ويضعنى أنا والبائع على طرف واحد من الموقف وكأنى أيضاً وبرغم سؤالى عن المجلة أستنكر أن توجد مجلة بهذا الاسم ، لكن البائع - لمفاجأتى - عرفها وقال :

- ١٥ قرش .

شعرت بالراحة ودفعت الثمن وأخذت المجلة وبحثت فى الصفحة الأخيرة حتى وجدت رسم أبى . مربع صغير موقع أسفله اسم «عبد العاطى» ، تأملت النكتة المرسومة فى الطريق ولما وصلت إلى البيت كانت الساعة الثانية بعد الظهر وكان أبى نائماً لم يزل وفتحت باب غرفته ودلفت بهدوء ، ثم أزحت الستائر السوداء الثقيلة فغمر النور الحجرة وفتح أبى عينيه ببطء وانتبه إلى فقلت وأنا أبتسم :

- صباح الخير .

- صباح الخير يا عصام . هى الساعة كام دلوقت ؟

- أخبرته فتشاءب ومد يده إلى المنضدة وجذب علبة السجائر وأشعل سيجارة وجذب نفساً أسلمه إلى نوبة سعال وجذبت أنا مقعداً واقتربت وجلست أمامه وكانت المجلة فى يدى فخطبت عليها وقلت ضاحكاً :

- عاجبك يا سيدى ! النكتة الللى رسمتها النهاردة كانت حتودينا القسم .

وانزعج أبى وسأل فقلت وأنا أسوى طرف السجادة بقدمى وكان ما أحكيه عارض وعادى ويحدث كثيراً :

- أبدأ ! اتخانقت مع واحد صاحبى حول قصدك من النكتة .

- يا ستار ! اتخانقت ؟

هكذا تساءل أبى بدهشة .

- أنا عاوز أسألك الأول ! الراجل اللي أنت راسمه النهاردة ! مش
«صديقه» «أنور السادات» !

ورد أبى :

- أيوه فعلاً .

وزفرت كمن استراح وقلت :

- يبقى أنا كان عندي حق .

ونفض أبى واستند بظهره إلى حاجز السرير وقال وقد بدأ الاهتمام
فى عينيه :

- هى إيه الحكاية ؟ !

- أبدا ! أصل أنت عارف مجلة الحياة مقروءة عندنا فى الجامعة وأنا
بقى كل يوم أربعاء لازم لى مشكلة مع أصحابى . كلهم يقرءوا النكتة
بتاعتك وبعدين يوجعولى دماغى «أبوك قصده فلان ولا فلان» النهاردة
بقى الرسم ده لو ماكنش ده أنور السادات المعنى كان هيتغير خالص .

ويسأل أبى وهو يضع النظارة ويتأمل ما رسمه بقلق :

- هى ملامحه مش واضحة ؟

وأرد بتأكيد :

- طبعاً واضحة جداً . بس ده صديقى ده شيوعى وأنت عارف
الشيوعيين فيهم مراهقة ، وهو مصر أنك يمينى ولا يمكن تهاجم
السادات فى رسوماتك .

وأبداً نقاشاً طويلاً مع أبي نختلف فيه دائماً وقد يحتد هو ويهاجمنى لكنى أكون مدركاً أنه برغم غضبه وحده يكون سعيداً . وفى المساء يشكونى أبى لأصدقائه ، يحكى لهم عن نقاشه معى ويصفنى بأبى - ككل جيلى - متعصب ومغرور ثم يقول بسرعة وسط الحديث :

«تصوروا يا جماعة! عصام يقوللى إن «الحياة» مقروءة فى الجامعة وأن زملاءه اتخانقوا معاه بسبب الرسم بتاعى النهاردة .

يدس أبى هذه الجملة ثم يكمل حديثه بسرعة وأكد أستشعر قلقه من أن يعترض عليه أحد أو يكذبه .



كان الوقت صيفاً وكان رمضان وكنت فى إجازة من الجامعة ، أنا لا أصوم ولا أبى ولكننا نراعى خاطر أمى فنحتفظ بنظام رمضان . إفطار وسحور . سهرات مع أصدقائى فى الفيشاوى وكان المقهى مزدحماً ومزعجاً ورجعت إلى البيت فى الثالثة صباحاً . كان أبى وأمى جالسين إلى المائدة . أمى تتناول السحور وأبى مستغرق فى التهام طبق من الكعك مع الشاى ، من تهدل شفتيه ونظرته الداهلة وتساقط فتات الكعك على جلبابه أدركت أنه مخدر ، تبادلنا حديثاً عابراً ثم دخلت حجرتى وتصفحت جرائد اليوم التالى التى اشتريتها من الحسين ثم غمت واستيقظت فى الصباح على هزات محمومة ترج جسدى بقوة وفتحت عيني فرأيت أمى تلطم وجهها وتشدنى لأنفص . هرولت وراءها إلى غرفة أبى . رأيته عارياً مسجى على الفراش وكان يبدو وكأنه نائم لولا دمدمة تصدر من فمه وحركة واهية يهتز بها جسده الضخم وبدا على وجهه وكأن كابوساً يطارده فيحاول أن يستيقظ ليتخلص من الكابوس ولكنه يعجز وصرخت أمى مولولة :

- شوف أبوك يا عصام .

ثم انحنى عليه واحتضنته بذراعيها وأخذت تناديه ثم دفنت وجهها في صدره وأجهشت بالبكاء . جاء الطبيب بعد ساعة وبعدما كشف على أبي بعناية انتحى بي وأخبرني بصوت هامس أنه أصيب بجلطة في المخ ونصحني بنقله فوراً إلى المستشفى ثم طلب عشرين جنيهاً دسها في جيبه شاكراً وانصرف ، وبذل عاملو الإسعاف جهداً مضنياً مع أمي حتى تمكنوا من إلباس أبي جلباباً أبيض ثم وضعوه على النقالة ونزلوا على السلم وأنا وأمى وراءهما وبينما هم يجتازون بأبي مدخل العمارة ظهرت هدى خادمتنا الصغيرة فجأة وراحت بجسمها الضئيل وعصبتها وضفيريها تعدو وراء النقالة وتقفز حولها وتصرخ . وفي ضوء المصباح المعلق فوق سرير المستشفى بدالى وجه أبى للمرة الأولى وكأنه انفصل إلى جزئين ، جزء عينه جاحظة ومفتوحة على اتساعها ومحتقنة وجزء آخر مهزوم ومتهدل وكان أبى يحاول أن يتكلم فتصدر عنه حشجة مكتومة مبهمه . تركتني أمى معه وذهبت تستعلم عن بعض الشؤون من إدارة المستشفى وبعد الظهر ظهر أصدقاء وأقارب وزملاء عمل وآخرون لا أعرفهم ، تحدثوا معنا . أنا وأمى - عن رحمة الله وعن العلاج في الخارج وعن أصدقاء لهم - يعرفونهم جيداً - أصابتهم نفس حالة أبى وقاموا بعون الله منها وهم الآن يرفلون في ثياب الصحة والسعادة ثم انصرف الزوار واحداً بعد الآخر وتركوا وراءهم باقات الورد وعلب الشيكولاته الملونة ، وظللت وأمى جالسين أمام أبى ولما أغمض عينه الجاحظة وانتظمت أنفاسه أدركت أنه نام . كان الوقت متأخراً . وربما بعد منتصف الليل عندما سمعنا طرقة خفيفة على باب الحجرة ثم فتح الباب قليلاً وظهر من ورائه وجه عم «أنور» ، كان يرتدى بدلة الشغل السموكن السوداء ذات الباقة اللامعة وتحتها القميص الأبيض والبايون

الأسود المتهدل ، جال عم أنور بنظره فى أركان الحجره ثم أشار إلى بيده فخرجت إليه وتبعتنى أمى واستمع منا إلى ما حدث ، سألنا بالتفصيل عن آراء الأطباء وتوقعاتهم ، كان وجهه مريدا وبدا من مقاطعته لنا ونحن نتحدث أنه ضيق الصدر ولم يلبث أن أطفأ سيجارته بحذائه وسأل أمى إن كان يستطيع أن يراه وتقدم وأزاح الباب ودخل ولما اقترب من أبى خيل إلى أن ومضة وعى مرت بسرعة فى عين أبى وأنه عرف أنور لكنها سرعان ما انطفأت وعادت للعين نظرتها الذاهلة وضحك عم أنور بصوت عال وقال :

- جرى إيه يا سى عبده! دى حركة تعملها دى! إنت يعنى غاوى تقلقنا! ما إنت زى البمب أهوه! دول بيعتولى فى الفرح قالولى الحق عبده قلت لازم حصل حاجة وحشة .

والتفت أنور إلى أمى وقال :

- ده كلام يا مدام! كده تخضينى! ماله عبده ما هو زى الحصان أهوه .

ثم عاد إلى أبى وبدا وكأنه يريد أن يفرغ كلامه دفعة واحدة أو أنه قد قرر ألا يصمت لحظة واحدة .

- بص بقى يا عبده! عقاباً لك على أنك فلقتنى أنا حاجيلك يوم الثلاثاء والعزومة على حسابك قزازه ٨٤ وكيلو كباب على حسابك . عصام والمدام شاهدين أهوه .

أكاد أقطع بأن وجه أبى قد اختلج فيما يشبه الابتسامة ، واستمر عم أنور يتكلم ويضحك ثم ودع أبى وحيانا وخرج وخرجت وراءه ولما جاوز الباب إلى ردهة المستشفى لم يلتفت إلى واتجه إلى اليمين حيث

١٠٠ المصعد لكنه لم يلبث أن أبطأ خطواته ثم توقف وانحنى للأمام
« نزع يديه على وجهه وعلا شهيقه فى بكاء عنيف .

وفى صباح اليوم التالى اشتبكت إحدى ممرضات المستشفى فى
نجار مدو مع عامل النظافة واتهمته صراحة بسرقة طعام المرضى
« مساح العامل بشتائم بذية ، واندفع محاولاً أن يضرب الممرضة لكن
« ملأه اجتمعوا عليه ومنعوه ، وفى اللحظة التى أجلسوه فيها على
« معد وبدأوا فى تهدئته كان أبى قد مات .

(٤)

حصلت على بكالوريوس العلوم وعينت فى وظيفة باحث فى
مصلحة الكيمياء . كان التعيين مناسباً لظروفى لأننى فى ذلك الوقت
كنت أبذل محاولات مضيئة متوالية لتخفيف عزلتى وكان تعرفى إلى
شخص ذكى واحد كفيل بتبسيط مهمتى لأننى كنت عندئذ سأساءل :

« لماذا أتحمل كل هذا الألم لأنقطع عن الناس ما دام بينهم شخص
ذكى بمقدوره أن يفهمنى » ، بهذا المعنى فإن وجودى فى مصلحة
الكيمياء عجل بعزلتى . المبنى عتيق كالح مترب أقيم فى ركن منسى من
شارع رمسيس ، وطيلة خمسين عاماً هى عمر المصلحة ظلت الحياة
الصاخبة تضج من حوله وهو قابع فى صمت الموت .

إنك تستعمل حمام منزلك أعواماً طويلة دون أن يخطر بذهنك مرة
أن حياة ما تجرى داخل البالوعة . ولو أنك جربت مرة ورفعت غطاء
البالوعة لتبدي لك عالم كامل ، عشرات الديدان والحشرات المتنوعة
تأكل وتتكاثر وتتنازع وتقتل بعضها ، ولسوف تدهشك عندئذ فكرة أن

هذه المخلوقات تحيا معك من سنين وأنت لا تعرف . نفس الصورة تراودنى كل صباح وأنا أمشى وسط الجموع فى شارع رمسيس الحافل بالحركة والضجيج ثم أتركه وأنحرف وحدى إلى اليسار لأدخل إلى مصلحة الكيمياء ، بالوعة تحوى فى ظلامها ورطوبتها مجموعة من الصراصير القذرة التى لو وطأت إحداها بقدمك لانسحقت وأفرزت سائلاً أبيض لزجاً ، الحشرات ، هو الوصف «العلمى» لزملائى فى المصلحة ، أما رئيسى فى العمل الدكتور سعيد فصعب أن أجد وصفاً يلائمه ، الدكتور سعيد لم يحصل على الدكتوراه لكنه تقدم لامتحانها ثلاث مرات متوالية وفشل فأطلق عليه موظفو المصلحة -معاملة أو سخرية - لقب الدكتور وسرعان ما تمسك هو باللقب وصار يغضب إن لم يُناد به . هذا الرجل يشغل منصب رئيس وحدة الأبحاث -أى رنين - ومع ذلك فإن معاناته الحقيقية فى الحياة تكون عادة بعد وجبات الطعام ، فى ساعة الضحى يجلس الدكتور سعيد إلى مكتبه ويلتهم صينية كبيرة عامرة بالقول والطعمية والبيض المقلى مع البصل الطليانى والباذنجان المخلل ، بعدما يفرغ لا بد يفك حزام بنظونه ليخفف الضغط على بطنه العظيم ثم يزدرد كوباً من الفوار المستورد ويبعث فى طلب الشاى . رأسه أصلع بلا شعرة واحدة وكأنه مريض أو متنكر ومع عينيه الجاحظتين وحواجه الخفيفة ولغده المتدلى وصوته السوقى فإن النظرة الأولى إليه تخلف انطباعاً حيوانياً . كنت أتأمله أحياناً فتخطر لى فكرة غريبة ، أتوقع على نحو غامض أن يقطع الدكتور سعيد حديثه فجأة ويكشف عن طبيعته الأصلية فيزوم أو يبرز لنا ذيله ويضعه أمامه على المكتب ، كنت أدرك طبعاً أن هذا لن يحدث ، لكنه لو حدث لم يكن ليدهشنى كثيراً . فى وقت الشاى يتوافد على مكتب الدكتور سعيد كل أعضاء الوحدة ، يتحلقون حوله ويقطعون الوقت بالحديث حتى ساعة

الانصراف . ثلاثة أحاديث محبة إلى قلب الدكتور ، والدورى العام
للكرة لأنه أهلاوى مخلص وسوق السيارات لأنه يتوسط فى السيارات
ويتكسب من ذلك ثم الأهم الجنس ، أسراره وفنونه لأنه مغرم بالنساء
بشكل فاضح ، وسبب ذلك كما يتردد أن زوجته مصابة بالبرود وهو لا
يقوى على طلاقها أو الزواج من أخرى لأنها غنية وتنفق عليه ، ولذا
فهو يشيع رغبته بعيداً عن البيت ، يشبعها فى مكتبه فى مصلحة
الكيمياء . نعم فى مكتبه . الدكتور مغرم بشكل خاص بفرآشات
المصلحة وعاملاتها ، ذوق لا شك نشأ من تجاربه الأولى . إذا ما
أعجبت عاملة الدكتور فهو يناديها كثيراً إلى مكتبه ويتسبط معها ويجزل
لها العطاء وشيئا فشيئا يداعبها بنكاته الجنسية ، يلقيها عليها بثبات
ويضحك من قلبه وعندما يحين يوم الحسم يستدعى الدكتور المرأة إلى
مكتبه ويأمرها بإغلاق الباب ، باب مكتبه له قفل مخصوص لا يمكن
فتحه من الخارج . بعدما تغلق الباب يطلب منها إحضار شئ من
الدولاب ثم يقوم وراءها ويلصق جسده الضخم فى ظهرها ثم
يحتضنها ويضاجعها ، عندما يحدث هذا فى المكتب يكون العاملون فى
الوحدة على علم ، ويهمسون بذلك ويثرثرون ويضحكون أو يأسفون
لكنهم أبداً لا يعترضون بوضوح .

مضت أعوام والدكتور يمارس حياته الخاصة فى وحدة الأبحاث
بسلام . مرة واحدة حدث ما عكر الصفو ، عندما ظهرت فى المصلحة
«أم عماد» شابة جميلة عيونها خضراء نرحت من طنطا بعد موت
زوجها ، والتحقّت بالمصلحة كعاملة بعقد مؤقت ، أعجبت «أم عماد»
الدكتور من اليوم الأول ، وعدها بالسعى فى تعيينها وصار يأتى إلى
المصلحة فى كل صباح وقد امتلأت جيوبه بأنواع من اللبان والبنون
يعطيها لأم عماد من أجل الأولاد . هل تعجل الدكتور يوم الحسم أم هو

أساء التقدير من البداية؟! نادى عليها وأمرها بإغلاق الباب فأغلقتة وكما هي العادة قام ليتصقق بها لكنها قاومته بجدية، لم يأبه واقترب أكثر فدمدمت محذرة بصوت واضح لم يرتفع بعد: «عيب كده». كانت الحكمة تقتضيه أن يكف لكنه استمر ربما لشدة هياجه أو لأنه لم ير في رفضها إلا نوعاً ثقيلاً من الدلال. انقض عليها بكل جسده وطبق عليها بذراعيه فصرخت وظلت تصرخ ودوت الصرخات في وحدة الأبحاث فتجمع الموظفون في لحظة أمام المكتب، ولما استمر الصراخ تشجع أحدهم ودق على زجاج الباب، مرت لحظات من الصمت ثم سُمعت خطوات الدكتور الثقيلة، فتح لهم الباب بنفسه فتدافعوا إلى الداخل يمينون أنفسهم بمشهد العمر، أمام الدولاب وقفت أم عماد، مبهورة الأنفاس شعرها مشعث وجلبابها مشدود ممزق في أكثر من موضع، كان منظرها ينم عن مقاومة عنيفة جرت من لحظات وراحت تردد بصوت باك وهي تعقد يديها على رأسها كأنها تندب:

- يا راجل حرام عليك! حنبقى إنت والزمن! هو أنا لو كنت بتاعة كده كان بقى ده حالى! ربنا هو اللى يعلم. أنا قاعدة على عيالى حرام عليك.

دقيقة أو دقيقتان كادت خلالهما أم عماد أن تؤثر في الموظفين لكن الدكتور سعيد استرد ثباته، أشعل سيجارة واقترب من أم عماد وأمسك كتفها بقوة ثم دوى صوته غاضباً كالرعد وهو يحرك إصبعه الأوسط في حركة بذية:

- اسمعى يا روح أمك. الحركات دى تعملها فى المولد. أه شى الله يا سيد. أنا لا أنا كروديا ولا أنا هندى. الحكاية، والرواية والشوية دول أنا فاهمهم كويس. لآخر مرة باقولك قدام الرجالة دى. يا إما ترجعى

١٠٠ ١١ جنيه اللى كانت فى الدرج يا إما بشر فى حابلق النيابة . فاهمة
لا لأ .

سرى اللغظ والهمسات واستمع الموظفون إلى رواية الدكتور ثم
استمعوا أيضاً إلى أم عماد وحاول بعضهم عقد مصالحة سريعة لكن
الدكتور سعيد أبى . رفض الفكرة من أساسها وصاح فيهم :

- الله - جرى إيه يا إخوانا! دى ١٠٠ جنيه هى لعبة؟! يعنى الأجر
الإضافى بتاعى يروح أونطة؟ وضرب كف بكفًا وتمتم وكأنه مغناط :

- حلوه قوى دى .

وأقسمت أم عماد بأغلظ الأيمان ودعت على نفسها بالعمى وعلى
ابنها عماد بالموت تحت الترام لو أنها لمست أو حتى رأت أية نقود ولكن
عبتاً ، ظل الدكتور مصراً على استرداد المبلغ الذى قبضه بالأمس ونسيه
فى الدرج ولم يجده فى الصباح بعدما نظفت أم عماد الحجرة . وكان
الموظفون جميعاً يدركون الحقيقة لكنهم عقدوا اتفاقاً صامتاً على احترام
رواية الدكتور والوقوف ضد أم عماد . كانوا يشعرون بأن انتصار أم
عماد على الدكتور سعيد سيكون هزيمة لهم أيضاً بمعنى ما ، فى اليوم
التالى ذهبت وفود إليها ترهبها وترغبها فى الصلح وإرجاع النقود ،
وبدت هى وكأنها فقدت صوابها تصرخ وتدعو على نفسها وتقسم على
المصحف ، وتشعب الموضوع وعقدت جلسات وانفضت واستغرقت
المشكلة الموظفين أسبوعاً كاملاً ، حتى نجحوا أخيراً وذهبت أم عماد
يدفعها الموظفون إلى مكتب الدكتور سعيد واعتذرت له وحببت على
رأسه وكادت تقبل يده لولا أنه سحبها مستغفراً وصرح أمام الجميع -
بنبرة يفهم منها غير ما يقول - أن أم عماد لم تسرق وأنه وجد الفلوس
منسية فى جيب الجاكتة وأن أم عماد فى الواقع ولية بنت حلال وأنه

يحبسها وكأنها ابنته . كنت حاضراً في مجلس الصلح ولما اقترح عبدالعليم الساعى على الحاضرين قراءة الفاتحة لمباركة الصلح خيل إلى فى تلك اللحظة أن ما يحدث أمامى غير حقيقى ، خطر لى أن الجالسين جميعاً ممثلون ، الدكتور وأم عماد والموظفون ، وأنهم يؤدون مشهداً متقناً ولن يلبثوا فى النهاية أن يخلعوا ثياب التمثيل ويسترجعوا شخصياتهم الحقيقية . ولا شك أن فكرتى الغريبة بانث على وجهى لأننى لاحظت أن الجميع يتحاشون النظر إلىّ وهم يتكلمون . لم يكن لدى شك فى أن زملائى يكرهوننى ويتوقون إلى فرصة يلحقون بى فيها أى أذى . من يومى الأول فى المصلحة تعمدت أن أحقرهم وأتعالى عليهم ، بغير أن أتكلم كنت أعرف كيف أشعرهم بتفاهتهم ، حدث فى تلك الأيام أننى احتجت إلى نظارة طبية وتعمدت أن أختار إطار النظارة من النوع المستدير المصنوع من السلك الرفيع لأننى كنت أشعر أن هذا النوع من الإطارات يضيف على الوجه طابعاً متفوقاً يستفز الناس بشكل ما ، كل صباح كنت أذهب إلى مكتبى متأبطاً الجرائد وكتاباً ضخماً أتعمد اختياره من نوع أعرف أن أحداً فى المصلحة لم يسمع عنه : «الأغانى» للأصفهاني ، «تدهور الإمبراطورية الرومانية» لجيبون . بعدما أفرغ من الجرائد أفتح مجلدى الضخم وأستغرق فى القراءة وحين تزدحم الحجرة بالموظفين يزداد الضجيج أرفع رأسى عن الكتاب وأسدد الحاضرين نظرة ثابتة بغير أن أتكلم ، عندئذ يخفت الضجيج فى الحال وربما ينسحبون إلى الخارج .

كنت أرفض بإصرار محاولاتهم الملحة للاقتراب منى ، للاتفاق معى على نقطة مشتركة ، عندما كان يدنو منى أحد الموظفين مبتسماً ويسألنى متردداً :

- بتقرأ إيه يا أستاذ عصام؟

كنت أجيبه جاداً بلا تردد :

- الحقيقة الكتاب اللي معايا ده متخصص قوى وصعب عليك
لفهمه . ثم أعاود القراءة فينسحب هو واجما ، وبعد شهر واحد في
المصلحة كنت أستطيع أن ألمس بيدى كراهِيتهم لى ، الدكتور سعيد كان
بعاملنى بحذر ، كنت أرى فى عينيه نفوراً ورهبة . أنا بالنسبة إليه شىء
غامض يخافه ويدرك أنه أرقى منه ، جاءنى ذات صباح ولا منى ضاحكاً
لأننى لا أزوره فى مكتبه كبقية الزملاء قال :

- يا أخى ابقى تعالى اشرب معنا الشاى . دى المجموعة طريفة وادى
إحنا بنتسلى . وغمرتنى لذة خبيثة لأنه منحنى فرصة رائعة لصفحه
فنظرت إليه بجدية وكأنى لا أفهم ثم قلت بهدوء وأنا أعود للقراءة :
- أنا ما عنديش وقت أتسلى .

وبطرف عينى رأيت وجهه يريد بالغضب وقال وهو يغادر الحجرة :
- خلاص ما تجيش . الحق علىّ . هو إحنا يعنى اللى فاضيين ما إحنا
ورانا مشاغل قد كده .

شعرت حينئذ بأنه لن يترك إهانتى له بغير عقاب ، وأن معركة عنيفة
قادمة لا ريب ، وكان إحساسى صحيحاً .

فى شهر رمضان يتحول الدكتور سعيد إلى مؤمن ورع . المسبحة
الطويلة الخضراء لا تفارق يده وطاقية شبكية بيضاء يضعها على صلته
وفى قدميه يرتدى صندلاً مفتوحاً تبرز منه أصابع قدميه الغليظة المنتفخة
بأظافرها السمكية ، يقضى اليوم بين مكتبه والحمام يعيد الوضوء ويكثر

من التسبيح ويؤم الموظفين الوقت بوقته ، وقرأ القرآن من مصحف كبير يفتحه أمامه على المكتب .

فى اليوم الأول من رمضان جلست إلى مكتبى وأخرجت الصحف وبدأت أقرأ وطلبت من عبدالعليم فنجان قهوة كعادتى كل صباح ، ولاحظت أنه تلكأ ودمدم بصوت خافت لكنى لم أعره اهتماماً وانصرفت للقراءة . مضت نصف ساعة ولم يحضر عبدالعليم القهوة ولما دخل إلى الحجرة لسبب آخر سألته عن القهوة فأجاب بصفاقة :

. ما فيش قهوة النهارده . كل سنة وأنت طيب . رمضان كريم .

وقبل أن أرد استطرده بسرعة :

. دى تعليمات الدكتور سعيد . . ما فيش قهوة وشاى فى رمضان .

عبدالعليم فلاح عجوز ، منوفى ، يتجسس على الموظفين ويتقل أخبارهم إلى الدكتور سعيد . يكرهنى كالجميع والتشفى واضح فى نبرته لأنه خادم والخدم يشعرون بلذة طاغية خبيثة إذا ما رأوا أحد السادة فى موقف ضعيف . نظرت إليه محققاً وهممت بأن أشتمه وأمره بصنع القهوة وليكن ما يكون لكنى عدلت وأشعلت سيجارة وعادوت القراءة .

فى تلك الليلة ظللت متيقظاً حتى أذن الفجر . لم أستطع أن أنام من الغيظ . كانت فكرة أن الحيوان سعيد يقوم سلوكى ويتحكم فى تصرفاتى وأن الجهال والخدم يتناولون على تملؤنى بالمرارة .

فى صباح اليوم التالى عازمت على أمر فطلبت من هدى أن تعد لى ترموساً مليئاً بالقهوة وحملت الترموساً تحت إبطى ودخلت من باب المصلحة متحفزاً ولما وصلت إلى حجرتى وجدت على بابها ورقة معلقة

قرأت فيها : «السادة أعضاء وحدة الأبحاث برجاء الامتناع عن تناول المشروبات خلال شهر رمضان المعظم احتراماً لمشاعر الصائمين . توقيع . الإدارة» كنت أعرف خط الدكتور سعيد ومددت يدي ونزعت الورقة بعنف وكورتها في يدي وألقيت بها على الأرض والتفت حولي بحثاً عن واحد منهم أبدأ معه المعركة لكن الردهة كانت خالية . دخلت إلى المكتب وصبيت لنفسي كوباً من القهوة وأشعلت سيجارة وحاولت أن أقرأ الصحف لكنني عجزت عن التركيز من فرط الانفعال . كنت أشعر بالمواجهة القادمة وكنت أتعجلها ، سوف ألقن هذا البغل درساً لن ينساه . هكذا قلت لنفسي وتخيلت أنني أطرحة أرضاً وأنهار بحذائي ركبلاً في رأسه الأصلع حتى ينسال منه الدم . بعد نصف ساعة سمعت وقع أقدام في الردهة ولم يلبث أن ظهر الدكتور على باب الحجره ووراءه عبدالعليم . نظر سعيد إلى السيجارة في يدي وقال بصوت عال :

- جرى إيه يا عصام؟! إيه الحكاية؟! مش معقول كده!

- هو إيه اللي مش معقول؟

- هكذا سألت بصوت يرتجف بالانفعال .

- وعلا صوت الدكتور سعيد أكثر :

- يا أخى إذا بليتيم فاستتروا . هو أنت مش مسلم والا إيه؟!!

- لاً .

- إيه!!!

- هكذا قال سعيد بدهشة .

- إنت مش بتسألنى إذا كنت مسلم! أدبنى باقولك لا. أنا مش مسلم.

- آمال أنت إيه؟

- وأنت مالك.

لحظة من الصمت ثم اقترب سعيد خطوات ودوى صوته بالغضب:

- لا.. إنت زودتها قوى! اسمع يا جدد أنت أنا مش عايز أفبج معاك علشان الشهر الكريم ده، إنما خللى بالك! إنت بتكلم مدير إدارتك فاهم والا لا.

كان جسدى يرتجف من الغضب ولم أتكلم ووقفت فى مكانى أحرق فى وجهه بحرق وابتسم هو ساخراً وأشار بأصبعه وقال:

- وبعدين تقدر تقولى واحد قدك.. مش قادر يصوم ليه...؟!

- لازم عنده عذر يا دكتور!

هكذا هتف أحد الموظفين ساخراً وكانوا قد تجمعوا وراء الدكتور وتعالى بعض الضحكات فأفقدنى الغضب صوابى. وجدتنى أضرب الترموس بيدى فسقط على الأرض محدثاً دويًا هائلاً وانفتح غطاؤه وسالت القهوة على أرض الغرفة. تراجع الموظفون خطوات وأصابهم وجوم وصحت أنا بكل غضبى:

- بتريقوا علىّ يا جهلة أنتم مش فاهمين حاجة.

استغرقتهم صيحتى لحظة ثم هتف نفس الموظف واسمه أحمد

جوده:

- لا إنت اللي فاهم يا عبقرى!

ضحك بعض الواقفين وصفق جوده بيديه وقال بصوت ماجن
منظره «عبقرينو». فاشتد الضحك الصاخب وصحت فيهم وغاب
صرى فى الضجة:

- اضحكوا! اضحكوا! أنا قرئت عن الإسلام أكثر منكم.

لم يستمعوا إلى واستمر الضحك وبدأ لى أن منظرى وأنا أصبح
يزيد من ضحكهم فتأجج غيظى وصرخت فيهم:

- يا جهلة يا رعاع.

توقف الضحك فى الحال وسرت همهمات وهتف الدكتور وهو
يقترب منى:

- إخرس.

- إنت اللي تخرس يا حيوان! إنتم شوية رعاع ولا فاهمين أى
حاجة!

أخذوا. ران الصمت لحظة وفجأة اندفع عبدالعليم ناحيتى وقد رفع
يده وصاح بصوت محشرج:

- يا كافر يا بن الكلب.

لا أذكر بعد ذلك إلا خيالات مشوشة، هجمت على عبد العليم
وصفحته على وجهه لكن يدي طاشت وأصابته رقبته وأمسك هو بى
من قديصى وأخذ يشتمنى وفصل الموظفون بيننا وجذبونى بالقوة خارج
الغرفة وصوت الدكتور سعيد الأجنح يلاحقنى:

- ده شيوخى يا ناس . شيوخى . أنا قلبى كان حاسس من الأول .
حوّلوه للتحقيق فوراً .

(٥)

تبدو قطرة الماء نقية شفافة كبللورة فإذا ما كبرتھا العدسات ظهرت
فيھا آلاف الشوائب ويظل القمر جميلاً صافياً ما دام بعيداً فإذا ما
اقتربت بدا لك كشاطئ قذر مهجور . حتى وجه التى تحب ، بشرتها
الغضة المتوردة التى تأخذ قلبك ، ما إن تضاعف قدرتك على رؤيتها
حتى تتبدى لك كنسيج قبيح مجعد . فى كل مرة تتأكد الحقيقة . ليس
إعجابنا بالجمال إلا خداعاً للنظر وكلما اتسعت الرؤية بانت التجاعيد .

(٦)

بيتنا . طراز الأربعينيات . الأسقف الشاهقة المزدانة بالنقوش وبلاط
الأرض العريض ذو مربعات صغيرة ذهبية بألوانها الأقدام ، والأثاث
الخشبى الرصين له رائحة عتيقة وأغطية المقاعد والمفارش ، القدم أحال
لونها وجعلها تهترئ فى أكثر من موضع . بيتنا حجرات واسعة فسيحة
ترن فى أرجائها الأصوات ، وشرفات كبيرة على الشارع وأخرى ضيقة
جانبية وحمام كبير للسادة وآخر صغير منزو للخدم والطوارئ
ومدخلان منفصلان واحد للأسرة وآخر إلى حجرة الجلوس حيث
جعل أبى مرسمة . بيتنا كل جزء يشى بحياة قديمة حافلة تشارف الآن
نهايتها . بعد موت أبى انتقلت إلى مرسمة أقيمت كل شىء على حاله :
اللوحات المكدسة بجوار الخائط وعلب الألوان ولوحة الرسم والمقعد

الصغير المستدير ومجلس الأصدقاء ، والشلت الصغير والحصير حتى الجوزة والمنقد وأكياس الفحم تركتها في أماكنها . فقط في ركن الحجرة البعيد أفسحت لنفسى مكاناً ونصبت سريراً «سفرى» أنام عليه . قبل أن أغمض عيني كل ليلة أجول بنظري في المرسوم . هذا مكان أبى . وأشعر بوجوده على نحو مبهم لكنه مؤكد . أنام بجوار أشياءه لأحرسها . عندما يرجع يوماً سأطمئن وأعود لحجرتي القديمة . فى داخل الشقة تنام أمى المريضة فى حجرة وفى حجرة أخرى جدتى التى تجاوزت التسعين وفى الممر بين الحجرتين تفرش الخادمة «هدى» وتحتضن رضيعتها وتنام . هدى تزوجت من سباك سافر للعمل فى العراق من عامين وانقطعت أخباره فعادت إلى بيتنا تخدمنا . وخالى الأخ الوحيد لأمى قضى عشرة أعوام فى السعودية ولذلك فهو ينفق علينا جميعاً أنا وأمى وجدتى وهدى وابنتها . نحن أسرة مترابطة على الطريقة القديمة لكننى اقتربت ورأيت .



عدت يوماً من المصلحة فوجدت أمى واجمة قلقة وألححت فى سؤالها فبكت وقالت إنها خائفة ولم توضح ، أشارت إلى هدى من ورائها وانتحت بى فى المطبخ وأخبرتني بأن أمى خائفة لأن صدرها متورم . والورم ظهر من شهور لكن أمى قررت ألا تخبر أحداً وحاولت أن تعالج الأمر بنفسها . جربت كل شىء . دهنت صدرها بالعجين ، وضعت عليه اللبخة وضمدته بالماء والسكر حتى حبوب منع الحمل أخذتها أمى بعد نصيحة من جارة ، وفى النهاية لما فشلت الوسائل قررت أمى أن تتجاهل ورمها ، أن تتكلم وتضحك وتغضب وتعيش وكأنه لا يوجد ورم ، أمل ضعيف باهت كان يحدثها بأنها ستستيقظ ذات صباح فتكتشف أن الورم اختفى فجأة كما ظهر ولكن عبثاً إنما

يجيء الورم ليبقى ويغزو وينتشر ولما وصل الورم إلى رقبة أمى وبدت متفخة تغطيها خيوط زرقاء بات مستحيلًا إخفاؤه أو تجاهله، وفي المساء كانت عيادة الدكتور مزدحمة بالمرضى وذويهم . من نظرة واحدة كنت أميز المريض من أهله، ليس فقط شحوبه وإعياؤه بل من نظرتة، نظرة غائبة وكأن غمامة تغشاها، وكأنهم حين ينظرون إليك يتطلعون إلى شيء ما خلفك لا تراه، شيء غامض لا ينكشف للرؤية إلا قبيل الموت .

الدكتور أستاذ في علاج الأورام ومع ذلك فهو عميد في القوات المسلحة ومتدين، تتوسط جبهته علامة داكنة من أثر السجود وفوق رأسه على الحائط آية الكرسي مذهبة وجميلة وبعدما فحص أمى بعناية عاد إلى مكتبه بدأ حديثه بالبسملة ثم قال وهو يطأطئ رأسه لكيلا تلتقي عيناه بعين أمى :

«يا حاجة أنت مؤمنة بالله وقد قال تعالى في كتابه الكريم : «قلن لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا» صدق الله العظيم . يؤسفنى أن أقول لك إنك مصابة بأورام خبيثة متشرة . النوع ده نسميه أورام الدرجة الرابعة وهى للأسف غير قابلة للجراحة، إنما أملنا فى العلاج بالكيماويات كبير وأملنا فى الله سبحانه وتعالى أكبر .

كان أساتذتى فى الكلية يجرون تجاربهم على الفئران بعد قتلها، وكان الفأر الذى يحين دوره، تمتد إليه فى القفص يد الأستاذ الضخمة المغلفة فى القفاز الأبيض لتمسك به، ويسعى الفأر بضراوة للإفلات من القبضة وعندما يفشل فى النهاية وتحكم اليد قبضتها وتخرجه من القفص لتقتله، كان الفأر يصدر صريراً متقطعاً ويسيل برازه رغماً عنه . صرخت أمى فى عيادة الطبيب ولطمت وجهها وارتمت على الأرض

وتمكنت أنا والطبيب من تهدئتها بعد جهد، كتب هو قائمة بالتحاليل والأدوية وانصرفت أنا معها فى تاكسى إلى البيت . فى الطريق لم أتكلم . لذت بالصمت وأدركت من بريق لمحته على وجهها فى الظلام ومن نشجة أفلتت أنها تبكى ، وما إن وصلت البيت حتى اتصلت أُمى بخالى عباس وارسم على وجهها وهى تخبره تعبیر من الجزع لم يفارقها بعد ذلك .

مرت شهور من العلاج وهزل جسد أُمى وضمر ثدياها تماماً وصار لون جلدها داكناً وسقط شعر رأسها لكن عينيها لم يفارقهما الجزع لحظة . تملكها توجس لا يهدأ وسيطرت عليها فكرة واحدة : أن تدفع عنها الموت بأى ثمن . أن تفلت من القبضة المكدقة وتعيش . قرأت مرة أن الفيلة إذا شعرت بالموت مشت على قدميها إلى مكان تختاره ليكون المقبرة . هناك . تقف الفيلة تنتظر نهايتها فى هدوء . ما أبلى أن تكون شجاعاً فلا تجزع . أنا ابن أُمى الوحيد وهى تحبني أعرف ، وأعرف أيضاً أنها لو خيرت بين موتى وشفائها التام لاختارت أن أموت بلا تردد ، وليحزنها موتى بعد ذلك ما شاء وهى صحيحة معافاة .

إن ذعر أُمى من الموت لم يترك لها ما تهتم به . عندما يأتى خالى عباس لزيارتنا تزيد أُمى فى إظهار ضعفها وعجزها وتملقة وتدعو له بحرارة أن يوسع الله رزقه ويحفظ أولاده وتمسح بيديها على صدره فى شوق كاذب وتصيح غاضبة فى وجهى - إذ ما تكون قيمتى حينئذ - لأننى نسيت الشباك مفتوحاً والهواء البارد سيؤذى خالى ، وعندما يهم بالانصراف تجهش أُمى بالبكاء وتقول له إنها تخاف أن يقسو قلبه عليها يوماً من «زن» أولاد الحرام - تقصد زوجته - وعندئذ يبتسم خالى وينحنى ليقبل جبينها ويخرج من جيبه ظرف النقود الذى أعده من قبل ثم يهمس لها بقلق وهو يدس الظرف تحت الوسادة :

- والنبى وحياتك بلاش تجيبى سيرة لحكمت مراتى إنى بازورك
لحسن أنت عارفة دى كبرت وبقت خلقية وأنا مش ناقص مشاكل .

* * *

أضاجع هدى الخادمة . تظل الرغبة تنهشنى . تقوض أعصابى
لدرجة أنسى معها رائحة العرق المنبعثة من جسمها ويديها الخشتين
الغليظتين وأظافر قدميها المشققة البنية القبيحة . أناديها فتدرك من نبرتى
ما أريده وتدخل الحجرة وتغلق الباب وتنتظر صامتة ، لا تنظر إالىّ ،
وأنقض وأحتويها بين ذراعى ويجرى كل شىء بغير كلمة وبسرعة ،
أكون متلهفًا على إنهاء اللحظة وبعدما نفرغ تغلب هى وتلملم ثيابها
ويسرى إالىّ شعور بالخواء وتعاودنى تفاصيل اللقاء وقد ذهب عنها
صخب اللذة ، فأحس بنفس التقزز الذى كان يتابنى أيام الكلية حين
ألمس يدي بطن الضفدعة اللزج المغطى بالإفراز وأحاول أن أطرد كل
ذلك بحمام ساخن .

فى بداية علاقتنا كنت أحرص على التأكد من أن أمى نائمة قبل أن
أدعو هدى لحجرتى . مع الوقت لم أعد أعبا . أمى تعرف ما بيننا ولا
تهتم . على الأقل لا تجرؤ على الاعتراض لأنها تحتاج هدى كل دقيقة .
هى التى تطعمها وتغسل جسدها وتغير ثيابها وتذهب بها لدورة المياه
وتحفظ . عن ظهر قلب . مواعيد الأدوية وأنواعها .

بعد لقاء مع هدى . أخرج فأجد أمى جالسة فى السرير منتبهة ،
تبادرنى دائماً بحديث أو سؤال تنفى به معرفتها بما حدث فى حجرتى
منذ قليل . وعندما أشكو أحياناً إالىّ أمى من إهمال هدى لشئونى ،
وألوح بأننى أفكر فى الاستغناء عنها ، تنظر إالىّ أمى يعينين مذعورتين
وتقول :

- ولا يهملك ! حابعتها لك النهاردة تنظف حجرك .

أكون واثقاً أنها تقصد أنها ستبعث بها لأضاجعها . لا تتخيل أُمى حياتها بغير هدى ويفزعها خاطر أن يغضبها أحد فترك البيت وتود لو أنها تركت كل شئ ، وجلست أمامها طيلة الليل والنهار ، تخاف أُمى وترتعد من فكرة أن تحتاج يوماً لهدى فلا تجدها ، وعندما تضطر هدى لإهمالها من أجل ابنتها الرضيعة «كوثر» ، حين تذهب لترضع ابنتها أو تغير ملابسها أشعر بسخط أُمى البالغ على الوقف ، مرضت كوثر يوماً وارتفعت حرارتها فأعطيت أنا عشرة جنيهات لهدى لتذهب بكوثر إلى الطبيب لكن أُمى اعترضت ، وراحت تهون الأمر وتؤكد أن الأطفال كثيراً ما يسخنون وتزول السخونة وحدها بغير علاج أو ضرر ، وكادت هدى أن تقتنع بعدم جدوى الطبيب لولا إصرارى ، وأخيراً عندما خرجت هدى بابنتها وصرنا أنا وأُمى وحدنا ، نهزنتى لأننى ألححت على موضوع الطبيب وأجبتها بأن الأطفال يحتاجون إلى عناية ، وأن السخونة ربما تكون عرضاً لمرض خطير وسهمت أُمى لحظة ووضعت إصبعها فى فمها - وهذه عادة اكتسبتها مع المرض - ثم نظرت إلى وقد بان على وجهها تعبير شرير مذعور وهمست :

- يا سلام يا عصام . لو ربنا يخلص هدى من البنت دى . تبقى فعلاً متفرغة لخدمتى .

دمدمت مستنكراً وأنا لا أصدق لكن أُمى أشاحت بوجهها بعيداً ولوحت بيدها وقالت مهونة :

- وإيه يعنى؟! يا ما عيال بتموت . واحدة تروح مع اللى راحوا .



قدر لهدى التى ألقى بها شخص وهى رضية أمام باب ملجأ
للأيتام، التى التقطتها وهى طفلة سيدة من الإسكندرية أخذتها خادمة
فى بيتها وتعودت لأقل خطأ أو إهمال أن تكوى ذراعيها وصدرها
بملعة محمية فى النار، التى ترك الشقاء المبكر على وجهها أثراً يجعلها
تبدو فى توهج اللذة ككلب ضال يلتهم طعاماً مفاجئاً بمزيج من اللهفة
وعدم التصديق، قدر لهدى أن تسيطر علينا جميعاً، أنا وأمى وجدتى .
تقبض على إرادتنا بأصابعها وتضغط، أحياناً أغضب عليها. ويكون
ذلك بعد لقائى بها وإشباعى - وأصبح فيها موبخاً كما يفعل السيد
بخادمتة، عندئذ، تقتل غضبى بنظرة واحدة منها فأسعى لإفهامها
خطأها بهدوء . تقول لى نظرتها «هل نسيت؟» وربما جعلتنى أندم على
غضبى أسبوعاً كاملاً أو اثنين، أنادى بها لحجرتى فتدخل وتغلق الباب
وتقف وأهم بها فتدفعنى بحزم وتخرج بخطوة هادئة قاتلة، تؤجج
رغبتى وتتركنى، طال رفضها مرة أكثر من شهر فتوسلت إليها أن
تسمح، توسلت . عندئذ نظرت إلى مليا لتسجل مرة أخيرة انتصارها
على وتركت لى جسدها بعد ذلك . فى الليل تنادى أمى هدى لتذهب
بها للحمام، يحدث هذا مرتين أو ثلاثة فى الليلة، وأحياناً تتظاهر
هدى بأنها نائمة لا تسمع، وتستمر أمى فى النداء، تحبس بولها وتتألم
وتنادى، وعندما تتوسل أمى باكية فى النهاية، تنهض هدى حيثئذ من
رقدها فى تمهل الإله وتأخذ أمى إلى الحمام، لا تجرؤ أمى برغم
دموعها على لومها بل تلقاها بوابل من الدعوات . بقيت جدتى ذات
الثمانين وهذه تزجرها هدى بعنف أمام الجميع وعادة ما تشترك أمى
معها، إذا بلغت الثمانين فلن يحبك أحد لأن العواطف الطيبة لها أيضاً
عمر تذبل آخره وتذوى، ولأن بقاءك إذا فاق التوقع فإنه يستفز
الآخرين على نحو ما . لا شك أن أمى وخالى عباس كانا من عشرين أو

ثلاثين عاماً يحبباً جدتي كثيراً ويفكران رغماً عنهما في اليوم الذي تموت فيه وكيف أنهما سيحزنان طويلاً حينئذ، لكن اليوم الذي سيحزنهما تأخر حتى إنهما شعرا بدنوهما من النهاية بينما جدتي قابعة لا يرحلها الموت .

وقد كان ردهما على هذه الحقيقة غير المريحة هو التجاهل ، التجاهل عقاب فرضاء على جدتي لأنها استمرت إلى الآن ، يجلس خالي عباس مع أمي طويلاً يتحدث ويضحك ويشرب الشاي ولا يلتفت مرة ناحية جدتي الراقدة في نفس الحجرة ، يفقد شعوره بوجودها تماماً ، وتظل جدتي وسط الضحك والكلام مستلقية على السرير ، صامتة . تحديق في السقف بنظارتها المعوجة وعينيها اللتين زحف إليهما بياض الشيخوخة ، قد تطول رقتها بالساعات وأحياناً تفعل شيئاً فجأة ، تسأل الحاضرين سؤالاً ينم عن ضعف تركيزها وذهنها المشتت ، نكون في عز الحر وتطلب جدتي من أمي أن تغطيها ببطانية لأنها تشعر بالبرد ، أحياناً تخاطب خالي عباس على أنه هدى ، أحياناً تسعى للنزول من السرير فتعجز وتحاول وحدها حتى تكاد تقع على الأرض ، عندئذ لا بد لأحد أن يهب لمساعدتها ، يكون هدف جدتي العجوز هو إشاعة القلق وإفساد الجو الذي انعقد بدونها . تذكر الحاضرين بأنها عجوز ضعيفة تحتاج لرعاية لا تتوفر لها بسبب جحودهم . من شهور بدأت جدتي في التبول على نفسها وأحضر خالي طبيباً لحل هذه المشكلة الجديدة . وفحص الطبيب جدتي وخرج ورأيت في وجهه أنه لا يفهم شيئاً وقال لخالي بعدما تنهد «أعراض شيخوخة . ليس لها علاج» ثم وصف دواء توضع منه كل ليلة سبع نقاط بالقطارة قبل أن تعطى هدى الدواء للجدة صاحبت أمي بعنف :

. ما تحطيش سبع نقاط . حطى لها عشرة ولا اتناشر . خليها تبطل
القرف بتاعها ده .

إن الأوقات التي تتخيرها جدتي لتتبول على نفسها تكون ملائمة
تماماً، أمام زوار أقارب أو غرباء . فى اللحظة التي يعدب فيها الحديث
ويطمئن الحاضرون فى جلستهم ، تبول جدتي فجأة فيشييع الجزع
والانقباض . شابة من أقاربنا اسمها نادية كانت تزورنا وعندما رأت
جدتي تنهض وتمشى بخطى بطيئة إلى وسط الحجرة ثم تقف ويسود
السكون ملامحها العجوز ثم تطأطئ رأسها كطفل مذنب وينهمر البول
منها فيبلل ثيابها ويسيل على الأرض .

لما رأت نادية ذلك حملقت لحظة وكأنها لا تفهم ثم انخرطت فى
بكاء شديد حار واشتعل غضب أمى وهدى على جدتي واختلط
صياحهما لكن صوت أمى علا وهى تقول :

- يا شيخه عيب عليك كده . ما قلنا لك من الصبح خشى النيلة
الحمام .

بين أمى المريضة بالسرطان الشاحبة المذعورة من الموت وجدتي
العجوز عداوة مريرة قد تكون نفسها دليلاً على محبة عميقة وحزن
بالغ . صراع شرس بئس بالأظافر والأنياب ينشأ بين مسجونين فى
زنازة ضيقة لمدة طويلة بعدما فقدوا كل أمل فى الخروج . عندما تنهال
أمى على جدتي بالشتائم واللعنات يخيل إلى أن رجفة خفيفة تعترى
وجه جدتي العجوز الساكن ، جدتي لا شك تغضب لإهانتها وهى
أيضاً ترد لأمى قسوتها بإتقان . مرة كانت جدتي وأمى وحيدتين فى
البيت وانتهزت جدتي فرصتها . كانت أمى حيثنذ قد سقط شعرها كله

من أدوية السرطان وكانت تغطي رأسها الأصلع بمنديل كان ينزلق بسهولة فيكشف عن سطح دماغها الأملس الداكن الذى تقشر جلده . قامت جدتى من سريرها بغير مساعدة من أحد وقطعت الممر إلى حجرة أمى بخطواتها الثقيلة البطيئة التى يسمع وقعها بوضوح ولما دخلت إلى الحجرة صرخت فيها أمى :

- عايزة إيه !

لكن جدتى لم ترد واقتربت من أمى وقد بان على وجهها ابتسامة وشغف كذلك الذى يلوح على وجه طفل يقدم على لعبة مثيرة فيها خطورة ومتعة . دنت جدتى حتى حاذت أمى الراقدة ولم تأبه لصياحها الذى تعالى وانحنت عليها ومدت يدها وجذبت المنديل عن رأسها فانكشف عارياً . ونظرت جدتى لأمى وقالت بصوت واضح :

- الله ! هو راح فىن شعرك ؟ !

ولما دخلت إليها بعد لحظات كانت أمى تعوى بالبكاء وتصرخ :

- إنت إيه اللي معيَّشك لحد دلوقتى ! موتى بقه ، موتى ريحينا .

ورأيت جدتى تغادر الحجرة بنفس خطواتها الثقيلة وقد تركت وراءها الزوبعة ولمحت فى تلك اللحظة على وجهها العجوز علامة رضا وراحة .

(٧)

أنا اقتربت ورأيت ولست نادماً ولا سعيداً ، كيف تشعر حين تتأمل ملامحك فى المرأة ؟ ! بعض الدهشة من تفاصيل وجهك التى تراها عن

قرب لأول مرة، لكن وجهك : أنفك، عينيك، حاجبيك، فمك يتأكد له مختلفاً عن وجوه الآخرين .

هكذا أشعر بنفسى الآن . أنا أدركت الحقيقة . قبضت عليها بيدي فحُكمت على بالوحدة، صارت العزلة قدرى لأننى فهمت ، لم يكن تحقيق العزلة سهلاً ولم يجرى سريعاً، سعيت جاهداً . حاولت مرات وفشلت حتى انتصرت فى محاولة أخيرة وانعزلت، تكون لي جدار صارم شفاف لا يسمح إلا بالرؤية، وانسحبت إلى حدودى وتملكنى هدوء العالم الذى يخلط المحاليل فى أنابيب الاختبار ويرقب نتيجة التفاعل ليسجلها بدقة وحياد فى دفتره الصغير .

لست الآن مع أى شىء أو ضده . أنا وحيد تماماً وتغمرنى الوحدة بالرضا والارتياح . لم أعد أهتم بإثبات تفوقى أو إشعار الآخرين بدناءتهم . ولى زمن المشاحنات والمشاكل . أستيقظ كل صباح فأحمل كتيبى وأذهب إلى المصلحة وأمضى اليوم وكأننى فى مكتبى الخاص . أضع جدولاً لقراءات اليوم وأنفذه، وأبدأ بالجرائد ثم إحدى المجلات ثم فصلاً من نيتشه أو «شينجلر» وقد أختتم اليوم بشكسبير أو رواية عربية، نادراً ما يتحدث إلى الموظفون . بعد مشاجرتى مع الدكتور السعيد أدركوا أننى مخلوق خاص والتعامل معى يرهقهم لأنه يدفع بهم إلى أنماط من التفكير غير مألوفة ومؤلمة، ومن ثم فقد اتخذوا بشأنى قراراً جماعياً صامتاً، أن يستأنفوا حياتهم التى يعرفونها ويتركونى وحيداً فى ركنى المظلم الغامض . يتذكروننى أحياناً عندما تلد موظفة أو يتزوج موظف ويكتبب الزملاء لشراء هدية، يبعثون إلىَّ بعبد العليم الفراش الذى صار يحدثنى بكل أدب ويخيل إلىَّ أحياناً عندما أسدد إليه نظرتى أن رعدة خفيفة تعترى وجهه وأنه يتوقع فى أى

لحظة أن أثور وأقذفه بشيء، أكنتم ابتسامتي لهذا الخاطر وأدفع المبلغ المطلوب دونما كلمة وأعاود القراءة، العزلة نعمتي أحفظها بإصرار، إذا ما خيم الليل دلفت إلى مرسوم أبى وأغلقت على نفسي، قد أقضى أياماً لا أرى أمى ولا يهمنى ما يجرى فى البيت، حتى هدى لم أعد أشتيهها إلا نادراً، الرغبة الحارة مشاركة فى حياة انسحبت منها، فى مرسوم أبى صنعت لنفسى عالمى الآخر الجميل العادل، أفر إليه كل ليلة كطفل مفرغ يلوذ بصدر أمه، يستنشق بلهفة رائحتها الطيبة ويشكو ويبكى حتى يسكن ويطمئن وينام، عالمى الجميل تلفه غيمة الحشيش كما تلف الوردة أوراقها، الحشيش سلطان عادل، يمنحك ما تستحق، لكل ذى حق حقه، البسطاء يغدق عليهم الحشيش البهجة الضاحكة، أما من يفكر، من يعرف السلطان عنه حبه للحقيقة فهو يأخذ بيده، يقربه إليه ويكشف له الأسرار. عندما تلذع حلقي نكهة الحشيش ويدب التأثير أجوب الآفاق وأتعلم، الحقيقة واحدة أزلية تتولد عنها الأشكال المختلفة المتناثرة التى تربطها خيوط واهية لا ترى عن بعد. . اقرأ عن هاملت وعلى بن أبى طالب وسقراط، إيفايرون وجيهان السادات وعائشة بنت أبى بكر، روما القديمة وبغداد ونيويورك، اقرأ ما شئت واقترب وحدق تبدي لك خيوط الترابط وتكشف لك الحقيقة عن وحدة رائعة. من حين لآخر أتناول الإفطار مع أمى، أتأملها وهى تلعق بنهم حيوانى أربع ملاعق من عسل النحل ثم تزدرد كوباً من اللبن وتأكل طبقاً من البيض، تحدثنى أهى عن أخطاء الأطباء فى التشخيص وتؤكد أن أجدادنا لم يعرفوا المرض لأنهم كانوا يتغذون جيداً ثم تبسم فى توسل وتقول:

. تعرف يا عصام! أنا مش مصدقة ولا حرف من كلام الدكتور! أنا ما عنديش سرطان وحاعيش لغاية لما أدفته ابن الكلب.

ثم تضحك بشدة وترقب وجهي بنصف عين ، أدرك حينئذ أنني لو اعترضت عليها أو بان على الحزن أو حتى ابتسمت في إشفاق ، فإنني أقطع بذلك خيطاً رفيعاً لا يزال يربطها بأمل مبهم . أرقب ضحكها في صمت وأسجل في ذهني بحروف كبيرة : أن حرصنا الدليل على الحياة شيء دنيء حقاً . تصوروا موظفاً نشيطاً كفتاً محباً لعمله ، يتقاضى راتباً قدره مائة جنيه ، لم يهمل عمله يوماً ولا صدرت عنه أقل هفوة ، لكنه ذات صباح يفاجأ برئيسه - بغير ما سبب إلا رغبته في ذلك - يخفض مرتبه إلى عشرة جنيهات فقط ، كيف تسمون هذا الموظف إن لم يترك العمل ، ألا يكون دنيئاً لو أنه استمر في العمل بعشرة جنيهات وتظاهر أمام رئيسه بالرضا والسعادة .

لو أن أمي رفعت المنديل أمام المرأة وتأملت رأسها ووجهها الشاحب المنهك ثم وضعت أمامها صورة قديمة لها أيام الشعر المصفف الجميل والبسمة المشرقة . أيام السعادة . لو أنها مرة قارنت بين الصورتين وسألت لماذا؟ لأمكنها حينئذ أن ترفض . أن تحتج . ضعفها ليس عذراً لأنها برغم الضعف تستطيع دائماً أن تضع حداً لظلم فادح ومجنون . نفثة واحدة من الشجاعة . نفثة واحدة ويرفض الموظف أن يعمل بمرتب أقل وتتنظر الفيلة نهايتها وبأبي محمد كريم أن يفترق حياته بجزية يدفعها إلى أعدائه الفرنسيين فيمضي إلى الموت هادئاً نبيلاً متصراً ويحكم الأثنيون الجهال على سقراط بالإعدام وليلة التنفيذ يتسلل إليه أفلاطون حاملاً إليه خطة للهرب ، ويستمع المعلم لتلميذه المتحمس حتى يفرغ ثم يرفض الهرب ويسأل أفلاطون مذهولاً عن السبب فيبسم سقراط بحزن ويجيب :

- لقد أدركت ظهوري لهذا العالم الدنيء .

* * *

النهاية . كنت جالساً على مقعد الحلاق . الحلاق كما هي العادة لنزع وفضولي وثرثار ويكرهنى لأننى ترددت على دكانه عامين كاملين ولم أمكنه من معرفة شىء عنى . فقط اسمى الأول . طالما جهد وألح ليجرنى للحديث معه لكننى قاومته حتى يش ، وصار يقص شعرى بغير ما كلمة ، كان الصمت يرهقه أحياناً فيحدث الزبائن الآخرين وأظن أنا مطرّقاً أقرأ . فى ذلك اليوم نسيت أن أحضر معى كتاباً أقرأه . كان لابد أن أقرأ شيئاً فالتفت إلى المجلات المصفوفة على رف المرأة أمامى . أعداد من مجلة فرنسية اسمها «فن الديكور» . أنا لا يهمنى الديكور لكننى جذبت عدداً من المجلة وبدأت أتصفح بعض الموضوعات الخاصة بالديكور . صور كثيرة لأثاث طرازاته مختلفة ، عبرت الصفحات بسرعة واستبدلت المجلة بأخرى ، فى الصفحة الأولى من المجلة الثانية رأيته ، صورة توقفت أمامها وشدتنى ، ما زلت أذكرها بوضوح . كانت صورة لغرفة نوم من الطراز الحديث ، سرير عريض منخفض قريب إلى الأرض مغطى بملاءة حريرية سوداء . على الحائط لوحة كبيرة تمثل أنفاً كبيراً صلباً تحيطه ظلال كثيرة متداخلة ملونة بتنوعات بين الأبيض والأسود ، كانت أرضية الغرفة مغطاة تماماً بالفرو الأبيض وبدأت داخل الأبيض والأسود رائعاً ، تأملت الصورة فانبعث داخلى إحساس جميل أدهشنى ، لم يلبث أن تحول إلى حب جارف . مرت دقائق وأنا أتذوق الجمال فى الصورة . جربت أن أقلب الصفحة ، أنظر إلى صورة أخرى ، لكننى عجزت بعد لحظة ، عدت إلى صورتنى الأولى وبعدما فرغت من الخلاقة قلت للحلاق وأنا أنقده أجره :

ـ ممكن أحتفظ بالمجلة؟

وافق فوراً وتهلل لأن فرصة للتدخل فى شئونى قد سنحت واندفع فى ثرثرة طويلة عن الديكور الفرنسى ورقته ولم يلبث أن سأل :

- حضرتك عاوز المجلة عشان البيت الجديد؟ ألف مبروك يا أستاذ عصام.

تخلصت من الحلاق وتأبطت المجلة وأخذت تاكسيًا إلى البيت . كنت متلهفًا . مراهق يحمل في جيبه صورة امرأة عارية ويندفع إلى حجرته ، يغلق على نفسه ويخرج الصورة وهو يلهث بالرغبة يغيب ساعات في لذة عارمة وكأنها حقيقة . قضيت الليل أدخن الحشيش وأتأمل الصورة . كل جزء منها كان يبعث في داخلي جمالاً مختلفًا : الأنف في بروز اللوحة . غطاء السرير المجدد ، الأرضية البيضاء . نهلت من الجمال حتى شبع . ولما استلقيت على السرير لأنام كان نور الفجر يتسرب من فتحات الشيش وكنت أدرك أنني بدأت تجربة مفعمة غريبة .

في اليوم التالي خرجت من المصلحة ولم أرجع إلى البيت . وذهبت إلى ميدان سليمان ، إلى محل الصحف الكبير ، ابتسم البائع فبانت أسنانه الذهبية وأشار إلى ركن المحل وقال :

- إلى اليمين المجلات الأجنبية الجديدة وعلى شمالك «القديم» بربع الثمن . لم ألتفت إلى المجلات القديمة ، كان تصورى لمجلة أجنبية متربة أو مهترئة يضايقني . وقفت طويلاً ، تصفحت وتأملت وقارنت وانصرفت في النهاية وقد اشتريت مجلتيين : واحدة فرنسية (مع أنني لا أعرف الفرنسية) . وأخرى أمريكية .



انقضت الليلة كالبارحة . الصمت والحشيش والصور والأحلام . حاولت أن أقرأ موضوعاً سياسياً في المجلة الأمريكية لكنني سئمت

وتوقفت . الصور وحدها تجذبني . كل شيء في الصورة يبدو رائعاً حتى أصغر الأشياء لها رونقها الخافت . حياة زاخرة متنوعة وزاهية . الشوارع والمباني والناس حتى الأمطار والثلوج والشيطان . فنانون يطلقون لحاهم ويقفون أمام لوحاتهم ، موسيقيون يثيابههم السوداء الكاملة يجلسون أمام آلاتهم ونوتهم ، حتى المظاهرات رائعة ، مئات الأشخاص يسرون في ميدان واسع نظيف ، وجوههم بيضاء وشعرهم أشقر ، يحملون لافتات احتجاج ويتقدمون في صمت ، رجال البوليس بأجسادهم القوية وزيهم الأنيق وشاراتهم اللامعة يحيطون بالمظاهرة ، يحمونها ، قد يخطف في المتظاهرين أحد السياسيين ، يكون وقوراً وعادة ما تكون له نظارة إطارها ذهبي أو فضي أنيق ، انتهيت من المجلتيين وفي اليوم التالي اشتريت غيرهما ، ثم غيرهما ، يوماً بعد يوم انسحرت تماماً ، انزلقت إلى آخر المدى ، وبرغم سعادتي بمشترواتي اليومية ضبطلت بائع الجرائد أكثر من مرة وهو يتأملني بشك وقلق وأنا أقلب في المجلات ، ويبدو أنه لاحظ أنني أنطلع كثيراً إلى الصور لأنه اقترب مني مرة وقال :

ـ عندنا جوة «بوستر» يعجبك ! تحب تشوفه؟!

لم أكن أعرف معنى «بوستر» لكنني لما دخلت وراءه أدركت أن «البوستر» هو صورة كبيرة ملونة تغطي الحائط ، عددت ما معي من النقود فلم يكف ، لم أشتري وذهبت واقتضت من أمي وعدت وحملت معي إلى البيت أربعة «بوسترات» كبيرة ، ساعدتني هدى حتى غطيت بها حوائط غرفتي الأربعة ، كان لا بد أن أكس كل لوحات أبي في الركن لأفسح مكاناً للبوستر ، لم أشعر بأسف أو ندم ، حجرتي الكثيرة باتت تتألق بالبهجة ، وأنا راقد على سريري أرى على الحائط بيتاً ريفياً

سقفه معقوف تحوطه حديقة صغيرة يحدها سور قصير من ألواح الخشب البيضاء وفى الخلفية البعيدة غابة كثيفة من أشجار «السابان» الطويلة، الوقت شتاء، الجليد يغطى الأرض وعلى الأشجار وسقف البيت تتساقط كريات ثلجية هشة صغيرة.

ماذا يحدث لى؟ لست مراهقاً. أنا فى الخامسة والثلاثين. ولّى زمن الاندفاعات والمشاعر المحمومة. إن تعلقى بالصور الأجنبية يرجع لفكرة ما لا بد لى أن أجردها وأفهمها. ما الذى يجعل صورة لمقعد أو سرير تبعث فى نفسى كل هذه البهجة: هل هو جنون؟! للمجانين بالتأكيد منطقهم الخاص لكننا لا نعرف لأن اتصالنا بهم ينقطع حين يتصرفون بشكل مختلف عنا. أياكون الجنون رغبة عاتية كتلك التى تسيطر على الآن؟ أجهدت عقلى فى التفكير لىالى عديدة حتى توصلت، انبثقت الرؤية فجأة بوضوح تام. أنا لا أحب الصور. إن ما أحبه هو ما تبعثه الصور فى نفسى. فى الأفراس والأعياد ترتدى الفلاحات المصريات ملابس مزركشة، ألوانها زاعقة متنافرة ويصبغن أيديهن وأرجلهن بالحناء، ثم يستأجرن عربية كارو يجرها حمار معصوب العينين ويقضين النهار فوق العربية يصفقن ويزغردن وينشدن أغانيهن. إن مشهد الفلاحات على الكارو يبعث فى نفسى شعوراً محدداً، إحساساً «مصرياً» مميزاً وبالمقابل فإن صورة الغابة الكثيفة المغطاة بالثلوج أو الفنان ذى البايب واللحية يبعث فى إحساساً «غريباً»، روح الغرب هو ما يأسرنى فى الصور. بالضبط. إن الروح الغربية تحيط بنا، نراها فى كل شىء لكننا قلما نجردها من مظاهرها، كل ما هو أنيق فى حياتنا غربى بالضرورة! أمثلة؟! معطف الطبيب الأبيض، الأجهزة العلمية وحتى المنزلية، رابطة عنق ممثل سينمائى، سيارة فاخرة حديثة الطراز. كل شىء. كل ما يعجبنا يتمنى إليهم. لما

بلغ تفكيرى هذا الحد من الصفاء خفت أن أنسى ما فهمته أو تطمسه بعد ذلك أفكار أقل أهمية . فأخرجت كراسة من مكتبى ودونت على صفحتها الأولى : « لقد أدركت الآن أننى وقعت أسيراً لروح الغرب ، وبقدر ما تأكد لى عدم جدوانا فإن روحهم تتبدى لى زاخرة بإمكانات رائعة » .

انفك غموض العشق وكان لابد لشغفى بالصور أن يهدأ . كانت الصور وسيلتى لمعشوقى وربّ وسيلة تدنّينى أكثر ، لماذا لا أحيا روحهم بدلاً من أن أبحث عنها فى الصور ، أعيشها ، أتفسها وألمسها ، سأسافر إليهم ، إلى شمسهم وجليدهم ومبانيهم ووجوههم ، وإن عجزت عن السفر سأفتش عنها هنا فى مصر ، هم يأتون ويجوبون الشوارع وكنت من قبل أراهم كثيراً ولا أتوقف عندهم . من عجب أن ترى الجمال عشرات المرات فتعبره بغير ما تأثر ثم تكتشفه مرة فى لحظة عبقرية وعندئذ يرتجف جسدك بالنشوة الحارقة .

أفضى اليوم فى المصلحة شارد الذهن قلقاً . لا أقرأ ولا أنظر إلى أحد . أرى أحبائى بعين الخيال وأتحرق شوقاً للقياهم . وما إن يحين الانصراف حتى أهرع إليهم . أذهب إلى أماكنهم : الأهرام ، المتحف المصرى ، قلعة صلاح الدين ، كل يوم ألقاهم فى مكان جديد . أنظاها بالفرجة مثلهم على المكان وأنا أتابعهم بنظري . ألتهمهم بعينى وأحتفظ فى ذهنى بتفصيلاتهم : وجوههم وأجسادهم ، ضحكاتهم وأصواتهم ، ثم أجترها بلذة كل ليلة وأنا أدخن الحشيش : أحياناً أتساءل ألا يعرف الله أنهم أرقى مخلوقاته ؟ ! هل يعتزم الله أن يعذبهم كما يعذبنا ؟ حتى الزانيات منهن واللصوص والقتلة هل يعاقبهم الله بشئ جلودهم البيضاء الجميلة ؟ مستحيل . إن الله لم يخلق هذه الروعة ليحرقها بعد

ذلك . وقفت ذات ليلة أمام المرأة وتأملت شعري الحشن ووجهي
الداكن القبيح وتذكرت وجه أمي وأبي وكل من أعرفهم وتقززت
وأسرعت أدون في مسكرتي : «نحن الجديرون بالعذاب لأننا
مشوهون» .

أحياناً أقترض من أمي وأحياناً أسرق من كيس نقودها، ابتعت
ملابس جديدة أنيقة أرتدى كل يوم منها وأشتري علبة سجائر مستوردة
وأذهب إليهم : مهرجانات الطعام، والمراكز الثقافية وحفلات الموسيقى
الكلاسيكية، كل مكان أعرف بوجودهم فيه أذهب، وصارت لى مع
الوقت خبرة المحبين . بت أعرف أن البيتزا الإيطالية هشة رقيقة،
والأمريكية سميكة ومحشوة . نظرة واحدة أميز بها استقامة الألمان ورقة
الفرنسيين وحيوية الطليان، الأمريكان طبيعتهم واضحة وبسيطة، كل
هذه تنوعات جميلة كألوان زاهية تبدو مختلفة لكنها تختلط في النهاية
ليخرج النور . تلامست أقطاب الحب والمعرفة واكتملت الدائرة فصرت
مؤهلاً للترقى خطوة جديدة أدنو بها من ذوبان النشوة .

(٨)

المركز الثقافي الألماني مبنى صغير أنيق في شارع صاخب . معرض
للتصوير الفوتوغرافي . المصور يقف في استقبال الزوار، شاب ألماني
في العشرينيات الأولى، لحية صغيرة مدببة وعينان زرقاوان وشعر
مسترسل كفتاة يربطه في خصلة تتدلى على ظهره . صافحني وابتسم
مرحباً ودمدمت بكلمات إنجليزية خافتة ودخلت . الزوار ألمان
ومصريون . الألمان في بنطلونات جينز وفانلات رياضية والمصريون
متأنقون . روائح عطور ثمينة تختلط وثياب فاخرة جديدة تبرق . تركت

اتجاه الحشد وبدأت المعرض من آخره . رحت أتفرج وحدى على الصور . بعض الصور التقطت فى ميونخ بلد المصور ، ومعظمها أخذ فى مصر . كل ما يعجب السياح : صورة لعربة كارو محملة بالليمون ، أخرى لبائع عرقسوس يتلاعب بالصاجات ، أخرى لرجل معمم يشتري بطيخة على السكين ، توقفت أمام صورة لمجموعة من الصبية فى ميدان الحسين ، أجساد ضامرة ووجوه أشحبها الضعف وقلة الغذاء يقفون حفاة فى جلايب ممزقة ، كانوا يضحكون أمام الكاميرا ورفع أحدهم جلبابه إلى ما فوق الساقين وأحنى جذعه للأمام فى حركة بذئية .

- هذه الصورة تسمى إلى مصر ! أليس كذلك؟

صدر الصوت من خلفى . إنجليزية واضحة ونبرة ودية . التفت ورأيتها . تكون سائراً فى الشارع فى يوم عادى لمناسبة عادية فتفاجئك الكاميرات ويندفع إليك المارة يضافحونك مهتين لأنك ربحت ثروة ضخمة لمجرد أنك كنت أول من يعبر الشارع هذا الصباح . هكذا كانت دهشتى برؤيتها . عيان زرقاوان عميقتان لا يمكن أن تلمحهما فيعبرهما نظرك كما يعبر عشرات الوجوه . انجذبت إليهما فتتوارى بقية الوجه الجميل فى الخلفية . عيان ليس منهما هرب . نظرت فيهما وتلعثمت ثم قلت بصوت أجش لأخفى اضطرابى :

- لماذا؟! أنا لا أرى فى هذه الصورة ما يسمى!! اقتربت أكثر واتسعت الابتسامة . أشرقت . قالت :

- أعرف فى مصر أشياء كثيرة جميلة تستأهل التصوير غير الأطفال الحفاة .

أستطيع الآن أن أميز أنفًا صغيراً وشفيتين ورديتين مكتنزتين وشعراً
أصفر ناعماً طويلاً تركته يتهدل فجاوز الكتفين . الجسد ملئ ناضج
ومنعت نفسى من تأمل صدرها العامر الشهى وقلت :

- إذا لم تصورى الحفاة والفقراء وأكوام الزبالة فى مصر ، فماذا
تصورين ؟! الأهرام وأبى الهول !!

كنت أسخر ونضحت من نبرتى مرارة فسألتنى فى دهشة :

- هل أنت مصرى ؟!

- نعم . للأسف .

اتسعت دهشتها ولم ترد . والتفت أنا من جديد إلى الصورة ثم
جاوزتها إلى الصورة التالية ووقفت أتفرج وخفق قلبى . ارتجى لما سمعت
خطواتها ورائى وشعرت بها بجانبى وسمعت صوتها من جديد :
- أمر غريب أن تشعر بالأسف لأنك مصرى . طالما تمنيت أنا منذ
الطفولة أن أكون مصرية .

احمر وجهها قليلاً وعبرت عينيها نظرة حاملة . وضحكت أنا
وقلت :

- من أى بلد أنت ؟!

- أنا ألمانية . لكنى أحب مصر ، أعشقها .

- أنت تحبين مصر تماماً كما تحبين عرضاً طريفاً فى السيرك أو حيواناً
نادراً فى حديقة الحيوان . لكن صدقينى . أن تولدى مصرية فهذه
مأساة .

كان لابد للحديث أن يمتد . أكدت دهشتها من رأيي وقالت إنها قضت في مصر عامين تعرفت خلالهما إلى عشرات المصريين لكنها لم تسمع أحداً يقول هذا الرأي من قبل ، واندفعت أنا مؤكداً رأيي بحرارة وظلت تستمع إليّ وأرى على وجهها الدهشة وعدم التصديق ، ويدفعني ذلك للتشبث أكثر . أكدت لها أن مصر بلد ميت وأن الحضارات كائن كأي كائن يمر بمرحلة الطفولة والصبا والشباب ثم شيخ وبموت ، وقد ماتت حضارتنا من مئات السنين ، فلا أمل يرجى في بعثها ، قلت لها إن المصريين لهم نفسية الخدم والعبيد ولا يفهمون إلا لغة العصا وحكيته لها حكاية المتنبئ عندما جاء إلى مصر وترجمت لها بيته :

لا تشتري العبد إلا والعصا معه

إن العبد لأنجاس مناكيد

استغرقنا الحوار تماماً فلم نعد نهتم بالصور ولا نشعر بالوقت ووجدتنا في النهاية نتجه ونحن نتكلم إلى باب الخروج وتوقفت ، وتوقفت وسُددت إلى نظرة عميقة ودودة أصابت قلبي وقالت وهي تبسم دائماً :

حقيقة أنا أشكرك على هذا الحوار الممتع . أنا سعيدة لأنني تعرفت إلى رأي أحد المثقفين المصريين في بلاده . صحيح أنا لا أوافق على رأيك لكني أحترمه لأنه أصيل ثم ضحكت واستطردت :

- تصور . أنا لا أعرف اسمك إلى الآن ؟

وضحكت أنا من قلبي وهي تحاول نطق اسمي وتتعثر وسألتها فأجابت :

- اسمي : «يوتا»

استدارت شفتها في دائرة وردية شهية وهي تنطق بالاسم ثم هزت
كتفها وقالت : - مجرد اسم ألماني . هل يعجبك؟!

هزرت رأسي ومدت يدها لتصافحني وقالت مودعة :

- عصام . سعيدة بلقائك وأرجو أن تتاح لنا الفرصة لتكمل النقاش
فيما بعد . ثم استدارت لتتنصرف لكنني هتفت فجأة :

- إلى أين تذهين الآن؟!

- الآن؟!

بدا أنها تفكر فيما وراء السؤال ثم أجابت ببطء :

- ليس لدى شيء معين أفعله .

- نكمل حديثنا إذن في مكان آخر؟ أنا أدعوك . هل لديك ما يمنع؟!

وتأملتني لحظة بجدية ثم هزت رأسها وبعد دقائق كنا نستقل تاكسيًا
وترددت قليلاً ثم قلت للسائق :

- فندق سميراميس .

لست شجاعاً ولا خبيراً بالنساء . وعندما أتذكر الآن ما فعلته مع
«يوتا» تدهشني جرأتي . يخيل إلي أن الذي فعل ذلك شخص آخر .
شخص جرىء قادر تسلل داخلي وظل يدفعني وأنا أقاومه لكنه كان
يتغلب على ضعفني يمنحني قوته . عندما يشب حريق أو يشرف شخص
على الغرق أو تحدث مفاجأة مذهلة فإن أتفه الأشخاص في الحياة
العادية قد يتحول في لحظة إلى مخلوق خارق فيقدم على أفعال لا

يتصور أحد- ولا هو نفسه - أنها كانت يوماً كامنة بإمكانه . أنا دعوت يوتا لمصاحبتى؟! أنا المهزوم تربكنى نظرة البواب ولا أجرؤ على نظرة ، مجرد نظرة لوجه امرأة جميلة . جلست بجانبها فى التاكسى أتأملها ، كانت قد عقدت ذراعيها واستدارت تراقب الطريق من النافذة ، ترتدى جاكيتاً من الجيتز الأزرق تحته فائلة سوداء تكشف نحرها الأبيض وبنطلوناً واسعاً من قماش أبيض خفيف وتضع قدميها الصغيرتين فى حذاء أسود بسيط ، شعرها غسلته ولم تمشطه فتشابكت غاباته فى خصلات كثيفة ، فى مرآة السيارة لمحت السائق ينظر وبتسم ، التفسير الوحيد لعلاقتى بيوتا فى ذهن السائق هو فحولتى الجنسية ، هذا أقصى ما يمكن أن يدركه خادم مثله ، شعرت بغیظ مفاجئ من السائق لكنى كظمتة وسألتها :

- ماذا تفعلين فى مصر؟

- فأجابت ضاحكة :

- أوه . هذه حكاية طويلة . جئت إلى مصر ضمن فوج سياحى فأجبتّها لدرجة أفسدت على حياتى بعد ذلك . عندما رجعت لألمانيا بدا لى كل شىء مملاً حتى الموت فعقدت العزم على الاستقرار فى مصر وهاأنذا . . .

- هل تعملين؟!

- نعم . توسط لى صديق مصرى حتى عملت سكرتيرة فى شركة استيراد وتصدير ، مرتبى كبير . لكننى كل ستة شهور أضطر لدفع مبلغ باهظ من الدولارات لأحدد إقامتى .

ولعلنى سهمت قليلاً لأنها ضحككت فجأة وسألتنى :

- هل تبدو حكايتى غريبة؟

وقلت بعد تردد :

- نعم .

الفندق مزدحم ، سقف شاهق و ثريات ضخمة ثمينة متشابكة تتدلى
وممرات وأضواء وخدم بملابس سوداء كاملة ، ولما عبرت المدخل مع
يوتا سألتنى فأجبت بأنى لا أعرف الفندق فهزت رأسها وصعدت
الدرج الرخامى وتبعتها إلى البار وبدأ أنها تعرف المكان جيداً . استقبلنا
نادل أنيق وقادنا إلى منضدة فى الشرفة تطل على النيل وسألتنى يوتا
فى مرج :

- هل يضايقك أن أطلب خمرًا؟

فأجبت :

- قد يضايقنى أن تطلبى شيئاً آخر .

عندما تضحك تكشف شفاتها عن أسنان ناصعة صغيرة منتظمة .
جاء النادل بزجاجة بيرة لى وكأس «جين» ليوتا وداهمنى القلق لما
تذكرت أن كل ما معى ثلاثون جنيهاً لكنى طمأنت نفسى بأنه على
الأقل يكفى لزجاجة بيرة وكأس آخر لها . كانت الأضواء تتلألأ من
بعيد على الشاطئ الآخر وئمة ريح مسائية باردة تدفع صفحة المياه
فتكسرهما فى موجات تصدر خريراً خافتاً ورشفت يوتا من كأسها
ونظرت إلى النيل وبدأت منتشية ثم سألتنى فى نبرة تتأرجح بين اللوم
والدعابة :

- هل يستطيع أحد أن يكره بلداً بهذا الجمال؟!

- ثقي أن المناظر الطبيعية فى ألمانيا لا تقل جمالاً لكنها مألوفة لديك
وكل مألوف يفقد جماله .

- هذا ليس صحيحاً لأننى بعد عامين لا يزال منظر النيل
يسحرنى ربما أكثر من الأول ثم تذكر أن ما يعجبنى فى مصر ليس فقط
مناظرها .

ماذا يعجبك أيضاً؟

سألتها ساخرًا وكنت قد ثملت قليلاً!

- الناس . أحاسيسهم دافئة وطيبة للغاية .

أطلقت ضحكة عالية حتى إن سيدة فى المنضدة المجاورة التفتت إلى
وسألتنى يوتا :

- ماذا يضحكك إلى هذا الحد؟!

- رأيك فى المصريين . عن أية أحاسيس طيبة تتحدثين! المصريون
مجرد حشرات سامة . هذا وصفهم العلمى .

- لكننى لم ألحظ ذلك .

- طبعاً لا يمكن أن تلحظيه لأنك أجنبية وامرأة جميلة! اسمعى .
هل يصح أن نعتبر هذا النادل رجلاً طيباً لمجرد أنه يعاملنا بأدب؟ إن
معاملته المهذبة للزبائن تفرضها ظروف أقوى منه ، وإذا أردت أن تعرفى
حقيقته اسألى أحداً من جيرانه أو أسرته .

اعتمدت بذقنها على يديها ونظرت إلى لحظة ثم قالت :

- طريقتك في الكلام جافة ورؤيتك حائقة لكنها تعجبني على نحو ما. طلبت كأساً آخر وزجاجة بيرة وألحت على رغبة قوية في أن أتحدث، أن أحكي، كنت أشفق على يوتا من الملل وكنت أشعر بالحرج من تعرية نفسي أمامها، لكنني بعدما سرت إلى الخمر دبت في حمية جعلتني أندفع في الحديث بحرارة، قلت لها كل شيء، حكيت لها عن أبي وأمي ومصلحة الكيمياء حتى هدى الخادمة تحدثت عنها، وظلت يوتا تستمع إلى باهتمام، أحياناً كانت تستوقفي لتسأل عن تفصيل ما، وأحياناً كنت أنفجر ضاحكاً من فرط المرارة، عندئذ لم تكن تشاركني الضحك، فقط تنظر إلى بعينيها العميقتين وأشعر أنها تفهمني، عندما فرغت كان البار قد خلا تقريباً وقالت يوتا ببطء وهي تنظر إلى الكأس وهي تديره بين راحتيها:

- عصام. أنا لا أريد أن أعلق على كلامك. أخشى أن يجيء تعليقي سخيفاً أو صيانياً، لكنني أتذكر الآن فريدريك، صديق ألماني وهو أول من حدثني عن مصر. يعمل مهندساً وقضى في مصر عشرة أعوام. تعرف ماذا قال لي مرة؟! قال إنه زار معظم بلاد العالم وأنه لم ير بلداً يمتلئ بالموهوبين مثل مصر. وإنه يشعر بالأسف لأن الموهوبين في مصر يواجهون مشاكل كبيرة. قالت ذلك وهي تنظر إلى وتهز رأسها ببطء كأنها تؤكد المعنى وخطر لي في تلك اللحظة أن وجهها يبدو لي في هيئتين مختلفتين. مرة يكون رقيقاً حالماً فتكون حينئذ أشبه بطفلة رائعة عابثة، وأحياناً أخرى تغير ملامحها فيكسو وجهها طابع صارم قلت لها:

- نشرب كأساً آخر.

فردت بلطف:

- معذرة . تأخر الوقت ولا بد أن أنصرف .

ولما طالعت ورقة الحساب ربما ظهر قلتي لأنها اقتربت برأسها
وهمست :

- أستطيع أن أشارك معك .

رفضت شاكرًا ودفعت الحساب ونقدت النادل جنيهين بقشيشًا
ونهبنا ونزلنا الدرج فى صمت . كان ثمة سؤال ملح معلقًا وكنت
أشعر أنها تدرك ما يدور برأسى لأننا ما إن خرجنا إلى الشارع حتى
بادرت بسرعة ومدت يدها مصافحة وقالت :

- أشكرك كثيرًا . كانت سهرة ممتعة حقًا . أرجو أن نلتقى دائمًا بعد
ذلك هل لديك تليفون فى البيت؟

نظرت إليها لحظة ثم قلت فجأة بلهجة قاطعة :

- أنا لن أتركك .

وضحكت وسألت :

- ماذا تقصد؟!

- أنت تفهمين ما أقصد . أنا لا أستطيع أن أتركك . أريد أن أبقى
معك . أدهشتنى جرأتى من جديد ونظرت يوتا إلى وكأنها تختبرنى
وتحول وجهها لطابعه الجدى ثم قالت وكأنها تزن الكلمات :

- عصام . أنصت . فى الواقع أنت تعجبني وتثير اهتمامى لدرجة
كبيرة . ليس لدى ما يمنع من اصطحابك لبيتى . لكن ذلك سوف يثير
مشكلة أنا فى غنى عنها .

- ما هي المشكلة؟

هكذا سألت فتنهت وقالت :

- قبل أن أجيء إلى مصر حذرني فريدريك لأن المصريين لهم تقاليدهم المختلفة . أنت تفهم طبعاً . لكنني تجاهلت التحذير . لم أخذه بجدي . وذات ليلة حاولت أن أستضيف صديقاً في شقتي فأثار ذلك غضب المستر «شعبان» وكادت أن تحدث فضيحة .

- ومن هو شعبان؟!

- شعبان البقال . دكانه تحت منزلي وهو يسهر إلى ما بعد منتصف الليل وأنا لا أريد أن أعمل مشكلة معه . هو رجل متدين ومتشدد ولا يمكن أن يقبل أن أصطحب رجلاً إلى شقتي هكذا قال لي بوضوح في أول مرة .

وجدتني أصيح وقد اشتعل غيظي :

- هل تترك البقال يتحكم في حياتك الخاصة؟!

- أرجو أن تفهمني . أنا لا أريد أن أؤذي مشاعره كما أنني أعرف أن تحدى التقاليد في مصر قد يؤدي إلى كارثة . هكذا أكد لي فريدريك .

بلغ غيظي مداه وصمت لحظة وجدتني فجأة أقبض على يدها وأجذبها معي وصاحت :

- عصام . . انتظر أرجوك ! أنا جادة فيما أقول .

لم أبه لصياحها وجذبها حتى أدخلتها في سيارة تاكسي كانت تقف أمام الفندق وجلست بجانبها وهمست في أذنيها بنبرة أمرة :

- أخبرى السائق بالعنوان .

نظرت إلى بتردد ثم قالت للسائق بعربية مكسرة :

- مدينة نصر عباس العقاد .

فى الطريق إلى المنزل تحدثنا لكن قلقاً خفياً كان يشد الحوار فينقطع .
لم أكن خائفاً . كنت أشعر بقوة دافعة جياشة تسرى فى أوصالى ، الخمر
سبب لا شك ، لكننى أكنت أدرك أنى أعيش أهم لحظات حياتى وعلى
أن أمسك بها فى أصابعى وإلا ضاعت للأبد ، كنت مستعداً للقاء
شعبان ، لو اعترض على صعودى مع يوتا سأضربه ، سأتناول أى شىء
ثقيل من محله وأضربه بقوة على رأسه ، لا يهمنى أن أقتله ، لن أدع يوتا
تفلت منى ولن أسمح لأحد أن يمنعنى عنها . من هو شعبان؟ يقال
متدين ، يغش الزبائن ويغالطهم ويصلى الوقت بوقته ، دنىء وغبى
ومتطفل وحاقد كأى مصرى ، سأخاطبه باللغة التى يفهمها ، لا تشتري
العبد إلا والعصا معه . تعمدت يوتا أن توقف التاكسى قبل البيت بمسافة
وبعدما نزلنا وانصرفَت السيارة همست بقلق وهز . نظر ناحية البيت :

- محل شعبان مفتوح . سوف تحدث مشاكل .

جذبتها من يدها وتقدمنا ناحية البيت وقلت فى ثقة :

- عندما نصل إلى مدخل البيت تقدمى قبلى واركبى أنا معه .

كان المحل صغيراً ومكتوباً عليه «بقالة الإيمان» وكان ثمة رجل بدين
ملتح يرتدى جلباباً أبيض يللملم أشياء ويجرجر صفائح وبراميل
ليدخلها فى المحل ، كان شعبان يستعد للغلق وبدأ لى من هيئته وأنا
أقترب مع يوتا أنه شرس وأن المعركة لن تكون سهلة . وصلنا إلى
المدخل وتقدمت يوتا بسرعة إلى داخل البيت وتمهلنا أنا أمام المحل ثم

توقفت والتفت إلى شعبان الذى كان قد ترك الصفائح واقترب منى
وجعل ينظر إلى فى تحفز ، رمقته بحنق ثم صحت بصوت عال :
- السلام عليكم .

لم يرد . أخذ ينظر إلى صامتاً وهو يتخلل لحيته بأصابعه . إذاً يزن
الموقف قبل أن يتدخل . عيناه ضيقتان خبيثتان وجهته العريضة قد طعنها
بقعة داكنة مستديرة أهذا وجه المؤمن ؟ ! كم يبدو راضياً عن نفسه !
لا شك أنه واثق بأنه قد أَرْضَى ربه تماماً . هذا الحيوانات أمقتها . جهل
ودناءة وغطرسة . اقتربت منه أكثر حتى وقفت فى مواجهته تماماً .
تفصلنا مسافة قصيرة جعلت وجهه فى مرمى صفعاتى . ثبت نظرتى فى
عينيه وصحت بصوت متحرش : .

- بنقول السلام عليكم :

بدا لحظة وكأنه لا يفهم . ربما فاجأه اقترابى أو ربما شم رائحة الخمر
من فدى لأنه فجأة أخفض نظره ودمدم وهو يستدير ويتعد إلى موقفه
الأول :

- وعليكم السلام ورحمة الله . أهلاً .

انكسر شعبان ورجع إلى صفائح وجعلت أرمقه حُطّة حتى تأكد
لى أنه استأنف عمله وكأن شيئاً لم يحدث . عندئذ ابتعدت عنه ببطء
لئلا يظن بى الضعف فينقلب . كل خطوة كنت أقترّب بها من المدخل
وكأنها تدوس على رأسه الغبى الضخم . فى المدخل كانت يوتا تنتظر .
ظهرت عليها السعادة وسألتنى فى مرح ونحن نصعد الدرج إلى
شقتها :

- ماذا فعلت معه ؟ ! ألم يعترض ؟

ورددت في زهو وكأن ما حدث أمر عابر :

.. نقداً، عاملته كما ينبغي للمصري أن يعامل .

انفتح الباب فتلقتنا الشقة برائحة رطبة ومدت يوتا يدها وضغطت مفتاح النور . صالة فسيحة ومطبخ وحمام وحجرة داخلية تفصلها عن الصالة ردهة طويلة . الأثاث .. كالعادة في الشقق المفروشة .. يبدو قديماً ومستعملاً وملفقا على نحو تشعر به وكأنه ديكور ردىء لإحدى المسرحيات . جلست على أريكة حمراء طويلة وأمامي منضدة رأيت عليها ورقاً متناثراً وأوراقاً ونقوداً ومجلة ألمانية مفتوحة . ابتسمت يوتا وقالت وقد بان في صوتها أنها تشعر منذ الآن بإحساس المضيفة :

.. ليس لدى ما نشربه سوى زجاجتين من النبيذ الأحمر . ما رأيك ؟!

.. عظيم .

دخلت إلى المطبخ ثم عادت بعد دقائق بصينية عليها زجاجة نبيذ وكأسان وقالت وهي تصب لى كأساً :

.. المفروض أن يشرب النبيذ الأحمر ساخناً لكنى أفضله مثلجاً أرجو ألا يضايقك هذا ؟!

.. لا بأس .

هكذا قلت وأنا أرشف من كأسى وأتأملها . بدت .. وهي تصب النبيذ وشعرها الأصفر الطويل ينسدل على عينيها فترفعه بجانب يدها الرقيقة الرائعة . وكأنها جزء من حلم وردى أجمل من أن يصدقه أحد . النبيذ له لذعة لذيذة ويوتا تسألنى وقد عاد وجهها لطابعه الجدى :

.. هل تتوقع أن يبلغ شعبان البوليس عنا ؟

.. ماذا؟

استغرقتُ في الضحك فابتسمت كالمعتذرة وقالت :

.. لا تظن بى الضعف ! لست جبانة لكنى لا أحب المشاكل وأنا أعرف المتعصبين . كلهم متشابهون . لدينا أيضاً متعصبون مثل شعبان فى ألمانيا .

.. هل يمكن أن ننسى موضوع شعبان تماماً؟

سألتها مبتسماً فأجابت بهزة من رأسها ولم تلبث أن قالت بمرح :

.. تعرف يا عصام ! أن لقاءنا الليلة من أغرب ما حدث لى فى حياتى . ضحككت ولم أرد فاستطردت وهى تسند ظهرها إلى المقعد :

.. لست فتاة فاضلة بالمعنى ! كثيراً ما أتورط فى علاقات لمجرد شسورى بالملل أو لأن رجلاً ما اجتذبنى فى ظروف معينة . هذه العلاقات نسميها عندنا «علاقات الليلة الواحدة» ولكنى مع ذلك أول مرة أنزلت مع رجل بهذه السرعة ، تصور أننا من ساعات لم نكن نعرف بعضنا ولو أننا التقينا فى الشارع لما التفت أحدهما للآخر ، وها أنت تقضى الليل فى شقتى وأشعر وكأنى أعرفك من وقت طويل . أزال التبيذ بقية رهبة فقممت واقتربت منها وتناولت يدها وقبلتها وملت بوجهى على وجهها ولكنها تباعدت ضاحكة :

.. لا ! ليس بهذه السرعة ! سيكون مضحكاً لو أننا دخلنا من باب الشقة إلى غرفة النوم .

جلست وصبيت لنفسى كأساً جديدة وفكرت فى أن ما يحدث جميل لدرجة تمنيت معها لو أتمهل لأتذوق تفاصيله . دائماً أندفع

متعجلاً إلى الذروة وعندما أدركها، تتوهج ثم تنطفئ ولا تبقى إلا الذكرى الدافئة البعيدة، عندئذ ينتابني الحزن وألوم نفسي لأنني تسرعت في اجتياز اللذة وكان بإمكانى أن أحتفظ بها طويلاً بين أصابعى .

- هل تعرف أن مظهرك خادع؟

- كيف؟!!

- لأول وهلة ظننتك خجولاً لا تنقصك الجرأة لكنى اكتشفت أنك العكس .

- فكرتك الأولى صحيحة . إن تصرفانى الليلة تدهشنى . أنا فى الواقع شخص ضعيف وعادة ما أعجز عن المواجهة .

- لا يمكن أن أصدق ذلك .

- على الأقل هذا هو الشخص الذى كنته من ساعات .

قالت وهى تبسم وتدنو منى بوجه متورد :

- ماذا تقصد؟!!

- أقصد أننى تصرفت الليلة بشجاعة لأنى معك .

فاقتربت أكثر وهمست :

- أحب كلماتك .

قبلتها فأرجعت رأسها وقالت :

- أشعر بكسل ! هل تقوم أنت وتحضر الزجاجة الثانية من المطبخ؟

قبلتها وأنا أنهض . أحسست بأن ملمس خدها يثني تحت شفتي
فغمرتها بالقبلات واستكانت بين ذراعي ثم ابتسمت ومدت ذراعيها
وقالت :

- هل رأيت ما فعلته بي .

كان جلد ذراعيها مقشعراً .

وقلت :

- ما معنى ذلك ؟

فضحكت وقالت :

- له معنى هام للغاية .

قبلتها من جديد ولم أعد أميز بعيني ما أراه . دسست أنفي في
شعرها وذاب كل شيء في جمال سحري وهمست إليّ ضاحكة :

- ما رأيك في اتفاق ! تخضر أنت الزجاجة من المطبخ وأسبقك أنا إلى
حجرة النوم .



ثلاث شموعات يتراقص نورها في ظلمة الحجرة . النور والظلام
يختلطان وطعم النبيذ والحرارة ورائحة طيبة هادئة تنبعث من جسدها
وأضمرها إليّ فيمتد إحساسي . ترسخ جذوره وأعود إلى اللحظة
الحقيقية التي عرفتها مرة واحدة من قديم ثم فقدتها وها أنا أعود إليها .
أود لو أغمس لها بشعوري . لو أحتويها بإحساسي كما أحتويها
بجسدي . حلم سحري انتشلي من الواقع القبيح المعادي الذي طالما
سحقني بقبضة لا ترحم .

قالت لى :

- أشعر بنعاس .

ثم دنت وهمست :

- أحب أن تضمنى بذراعيك حتى يطلع الصباح .

ورقبت وجهها المطمئن تنساب إليه شيئاً فشيئاً هدأة النوم .

* * *

كنت واثقاً من إشرافك وانتظرتك وحكيت لهم عنك فلم يصدقنى أحد، لكنى تحملت الآلام ولم أفقد أملى للحظة . كنت مؤمناً بك . بأنك ذات مرة، فجأة سوف تبتزغين لتبرئى يديك جراح القسوة وتذيبى الظلم بابتسامتك، حينئذ لا يتبقى من الوحدة والعجز والألم إلا ذكريات شائكة مفزعة، أضمك إلىّ وأفضى بها على صدرك حتى أطمئن وأنام .

فى الظلام تقلص وجهى وسرّرت إلى رجفة واستسلمت للبكاء وبللت دموعى وجهها فأفاقت ومدت يدها وأنارت مصباحاً فوق الفراش وحدقت فى وجهى وسألت فى جزع :

- تبكى؟!

لم أرد وسكتت هى لحظة وكأنها فهمت ثم نظرت إلى الساعة وقالت :

- السادسة! لا بد أن أنهض الآن! ينبغى أن أكون فى مكتبى بعد ساعة . قامت عارية إلى النافذة وفتحتها فغشى الحجرة نور النهار وتسلفت ريح باردة وألقت على وجهها نظرة عابرة فى المرأة وسألتنى وهى تخرج :

- قهوة أم شاي فى الإفطار؟

سألته وأنا أرشف القهوة :

- هل أراك الليلة؟

- إذا كنت حقاً ترغب فى ذلك؟

ابتسمت ولم أعلق .

- تستطيع أن تأخذنى من المكتب بعد انتهاء العمل . أنا أنصرف فى الثالثة . عندما نزلنا من البيت كان دكان شعبان مغلقاً وكان الطريق خالياً تماماً وقالت لى :

- ألا تأتى معى لتعرف مكان عملى . إنه قريب . فى آخر الشارع .

مشيت بجوارها بضع دقائق حتى توقفت أمام بيت صغير من دورين . على شرفة الدور الأول . رأيت لافتة كبيرة «مصطفى يسرى . استيراد وتصدير» . أشارت يوتا إلى اللافتة وقالت :

- هنا أعمل . الدور الأول شقة ٣ .

ثم التفتت حولها ومالت على وجهى بسرعة وقبلتنى وهمست :

- أراك فى الثالثة ودخلت إلى المبنى .

مشيت وحدى حتى خرجت إلى الشارع الرئيسى أوقفت تاكسيًا . أثار النوم لم تزل على وجه السائق . رحت أفرج من النافذة . الحركة بدأت فى الشوارع . الناس يتجمعون كعادتهم كل صباح أمام محطة الأتوبيس . يبدءون يوماً جديداً بوجوه منهكة من أثر الأمس . بدا لى غريباً أن شيئاً لم يتغير هذا الصباح . كنت أتوقع أن يبدو كل ما أراه

بشكل جديد رائع . لكن كل شيء ظل على حاله ، وكأنى لم ألق يوتاً
ولم أحيأ معها أجمل لحظات حياتى وكأن رجلاً قوياً لم يولد داخلى .

ما إن دخلت باب البيت حتى تلقننى أمى بصياح باك :

- قلبى وربى غاضبان عليك إلى يوم القيامة .

تجاهلتها واتجهت فى صمت إلى حجرتى لكنها لاحقتنى فى الردهة
وأمسكتنى من يدى وقالت :

- كاد برضه يا عصام ! مش حرام عليك ! تخلىنى طول الليل قلقانة
عليك ! أنت مش عارف إنى مبالاة وسعنى ما تستحملش القلق .

كل ما يهمنى هو تأثير المواقف على صحتها . نظرت إليها . حدثت فى
عينها حتى غابت التفاصيل وغابت الرؤية . استغرق ذلك لحظات ربما
انتبهت دلفت بخطى متعجلة إلى غرفى واستسلمت أمى تذابيحاً لها
بصوت بالء .

كنت أعرف أنى لن أستطيع النوم فلم أحاول طويلاً . فتحت النافذة
فانتشرت أشعة الشمس فى أنحاء الحجرة وأحضرت لى هدى الجرائد
والقهوة . عبرت بنظري عناوين الصحف وألقيتها بجانبى . انعدمت
قدرتى على التركيز . أنا أنتظر الساعة الرابعة وليس بإمكانى أن أفكر
بشيء آخر . فى الرابعة سألقاها ، أقبلها وأضمها وتنام بين ذراعى كما
حدث بالأمس . مر الوقت كالدهر ولما قاربت الساعة الثانية قامت
واغتسلت وارتديت ملابسى ولمحتنى أمى فهرعت ورائى فى جزع :

- أنت خارج ؟

- نعم .

هكذا تمتت بغير أن ألتفت فأمسكتُ بذراعى وقالت :

« بلاش يا عصام والنبى ! أنت ما نمتش وأعصابك تعبانة .

خلصت ذراعى منها بعنف وخرجت وصفقت الباب ورائى بقوة .

الجو حار والعرق يتصبب على جبينى وأنا أنتظر المترو وسط الحشد ،
قلت أدخر أجرة التاكسى . لا تزال أمامى ساعة وسوف أحتاج لا شك
إلى نقود الليلة . بعد نصف ساعة جاء المترو مزدحمًا واندست بين
الركاب حتى حجبت أجسادهم عنى الضوء فساد الظلام من حولى .
وصلت مدينة نصر وأخرجت الورقة من جيبي ، كنت قد سجلت
عنوان يوتا لثلاث أساه . مشيت عشر دقائق حتى وصلت إلى المكتب .

ازدادت حرارة الجو حتى إننى تخففت وفككت أزرار القميص . بدا
البيت كما بدا فى الصباح ونفس اللافطة «يسرى مصطفى . استيراد
وتصدير» . تمنيت هذه المرة وأنا أعبر مدخل البيت أن يستوقفنى
البواب . صرت سيداً قوياً منذ أمس . سوف أردّه عنى فى ثقة
واقترار . لم يستوقفنى أحد ولما دخلت إلى المكتب كان قلبى يخفق
بعنف . سوف أرى يوتا الآن . هل أندفع وأحتضنها وأغمر وجهها
بالقبلات أمام زملائها . أجلت التفكير فى ذلك . كان المكتب المواجه
للباب خالياً وبدا من علبة سجائر وجريدة مفتوحة أن الموظف الجالس
عليه قام لأمر ما وسيعود ، فى ركن الحجر كانت بنت صغيرة ومحجة
تدق على الآلة الكاتبة . وقفت دقيقة أمام المكتب الخالى ثم اتجهت إلى
حيث تجلس الفتاة . توقفت عن الكتابة ورفعت إلى وجهها كانت
جميلة لكن نظرتها إلىّ خلت من أى تعبير . كأنها لا تعرفنى ولا ترحب
بى ومع ذلك فإن وجودى لا يدهشها ولا يضايقها أيضاً ، لو أنها
ردت تحيتى بإيماءه صغيرة لظننتها لا ترانى .

- يمكن أقابل الأنسة يوتا . . من فضلك؟

- من؟

- الأنسة يوتا الألمانية؟

ابتسمت الفتاة . بعد ذلك لما استرجعت ابتسامتها فهمت كل ما حدث . قالت وهي تستأنف الكتابة :

- لا يعمل لدينا أحد بهذا الاسم .

- بل هي تعمل هنا . أنا متأكد . أنا على موعد معها . أرجوك أخبريها أن عصام ينتظرها .

لم تلتفت إلى هذه المرة . ظلت تدق يديها على مفاتيح الآلة .
أثارني تجاهلها فاقتربت منها وصحت :

- أنت يا أنسة ! ألا تسمعين ! أقولك أخبري يوتا أنني هنا .

رفعت رأسها ونظرت إلىّ في صمت ثم استأنفت الكتابة من جديد . فقدت أعصابي تمامًا . رحت أصيح ولم ألبث أن شتمتها ثم دفعتها في كتفها . أحسست في يدي بصلابة عظمة كتفها . على الضجة خرج بضعة موظفين وتقدم مني رجل نحيف وأصلع في نحو الأربعين يرتدي بدلة رمادية أنيقة وعيناه واسعتان قويتان . أمسك بذراعي وسألني عما أريد بعنف وأجبتته بأنني أريد أن أرى يوتا ولما أجابني كما أجابت البنت المحجبة ثرت في وجهه لكنه شدد قبضته على معصمي فألنني وشل حركتي تمامًا . أخذت أصيح وأشتمهم جميعًا واختلط في أذني صياح وكلمات «مجنون» و«بوليس» ووجدتني والرجل ذو البدلة الرمادية يجبرني من معصمي ناحية الباب ثم يدفعني بيديه الاثنتين في ظهرى بقوة ألقت بي خارج الشقة .

ترنحت وكدت أقع على السلم ولم يلبث هو أن أغلق باب المكتب بعنف .

اندفعت أنزل الدرج إلى الشارع بأقصى سرعة . لم أكن أشعر بغضب أو دهشة . كنت كمن يريد في آخر لحظة أن يمنع كارثة مؤكدة ، رحت أعدو في الشارع ، بطرف عيني كنت ألمح المارة يتوقفون ويتطلعون إليّ بدهشة . بعد دقائق وصلت إلى مسكن يوتا ، توقفت لحظة أمام البيت ، كنت ألثث وكان العرق الغزير يسيل على وجهي ورقبتى ، دلفت من المدخل لكن صوتاً أجش فاجأنى :

- رايح فين يا أخ؟!

كانت لهجته وقحة وخطر بذهنى وأنا ألثثت إليه أنه شعبان . شعبان بلحيته وعلامة جبهته الداكنة ودنائه . شعبان تنز بشرته الغليظة بالدهن والخبث . اندفعت ناحيته وهويت على وجهه بضربة أصابته تماماً فترنح جسده الضخم وقبل أن يعتدل عاجلته بضربة أخرى وركلته فى بطنه بقوة ثم دفعته فسقط على الأرض فارتميت عليه ورحت أضربه على رأسه حتى أحسست فى أصابعى بلزوجة الدم .

* * *

كانت المؤامرة محكمة ، وعندما أسترجع الآن بهدوء الأحداث والتفاصيل يملكنى الإعجاب بمهارتهم وتخطيطهم الدقيق .

حقاً دبروا الأمر بإتقان . قال شعبان فى التحقيق إنه لا يعرفنى وليس بيننا عداوة مسبقة ، وقال إنه رأنى أدخل العمارة فى الليلة السابقة لكنه خشى أن يسألنى لأنه أدرك أنى مخمور وخاف أن أؤذيه ونفى بشدة كما نفى سكان العمارة وصاحبها وبوابها أن فتاة ألمانية تسكن فى

العمارة، كما أن يسرى مصطفى صاحب المكتب - الرجل الأصلح ذا
البذلة الرمادية - اتهمنى فى محضر التحقيق بالجئون ونفى أن فتاة ألمانية
قد عملت فى مكتبه يوماً، حتى نادى بار سمييراميس لما استدعاه
البوليس قال إنى سهرت فى البار فى الليلة السابقة وأنى شربت كثيراً
لكنه نفى أيضاً أن فتاة أجنبية كانت بصحبتي، وأكد أننى جئت وحدى
وانصرفت وحدى فى الواحدة والنصف صباحاً. ولما سأله المحقق إن
كان لاحظ على شيئاً غير طبيعى أجاب بأنه لاحظ أنى كنت أحدث
نفسى بالإنجليزية بصوت عال وأضحك لكنه حينئذ اعتبر الأمر عادياً
وعزاه لسكرى الشديد.



أحاطت بى الدائرة تماماً. ولا ثغرة واحدة أنفذ منها. تأمروا علىَّ
جميعاً. كل من عرفوا قدرى وأحنتهم تفوقى. كل الذين كرهتهم
واحتقرتهم، الدكتور سعيد وشعبان والنادل، حتى أمى وهدى وجدتى
العجوز، كلهم اتحدوا ليمنعوا خطراً محققاً سوف يسحقهم إذا ما
اجتمعت بيوتا - أنا الذى اقتربت ورأيت - تأمروا ونجحوا وها هم
يعزلوننى فى مكان خاص يلبسوننى ثياباً خاصة، أحكموا قبضتهم علىَّ
ولم أجد بداً من الاستسلام وعندئذ تظاهروا بالأسف من أجلى،
يزوروننى ويحملون إلى الورود وعلب الشيكولاتة ويتحدثون مع
الطبيب بشأنى، يرسمون على وجوههم تعبيرات القلق والرجاء ثم
يودعوننى بنظرة يطمئنون بها على أننى لن أستطيع الإفلات من
قبضتهم، ثم ينصرفون.

نمت الأوراق . . . طبق الأصل .

المرمطون

لسبب مجهول ارتبط الذكاء فى الأذهان بلمعان العينين، وصار كل من يريد أن يثبت أنه لماح يحدق فى وجوه الناس ويركز نظره فى عيونهم ليشهدوا بأنفسهم كيف تشرق عيناه وتلمع من فرط الذكاء . . على أن هشام لم تلمع عيناه قط، وكانتا أيضاً ضيقتين، كما أن بشرته السمراء وملامحه العادية وجسده الضئيل وميله الفطرى للخجل والانطواء كل ذلك جعله يبدو مجرد واحد من تلك الآلاف المتشابهة التى تغص بها الشوارع والمواصلات، لكنك ما إن تبدأ هشام بحديث حتى تدهش، لأنه سيدرك - فوراً - ما تقول ويعقب عليه وأنت بعد لم تفرغ، ثم يصمت بعد ذلك ويتنسم فى هدوء وكأنه يعتذر لأنه سبقك . ويقولون - والعهدة على الراوى - إن هشام تكلم مبكراً جداً وهو طفل، وإنه قبل أن يتم عامه الثالث، كان بمقدوره أن يلف شريط المسجل «الجر وندج» الكبير، ثم يثبت البكرة على الجهاز، ويدخل الشريط فى الإطار، وأخيراً، يضغط الزر بأصبعه فتنبعث الموسيقى، ولأن مدرسة ثانوية واحدة جمعتنى وهشام فقد رأيت بنفسى تفوقه الكاسح . . ولم يكن تفوق هشام هو المدهش وإنما مجهوده فى التحصيل . . لم يكن هشام من أولئك الذين يصمدون للاستذكار عشرات الساعات، كان

يفهم الدرس مرة ويقرأه مرة، وقد يحل بعض التمارين ليحصل بعد ذلك على الدرجة النهائية بغير عناء . . . وفي حصة الرياضيات . . . كان كثيراً ما يقف ليشرح لنا بصوته الهادئ كيف توصل لحل مسألة حيرتنا جميعاً وعندما يفرغ يشكره المدرس كنا نرمقه بإعجاب أو حسد، ولم يكن هو يتحمل أن يظل محط الأنظار . . . فكان يتشاغل بالبحث عن قلمه، أو يمد رأسه للخلف ويفتح حديثاً مع الطالب الجالس وراءه . . . وفي الثانوية العامة جاء ترتيب هشام الأول على المدرسة، وأحب هو أن يلتحق بكلية الهندسة، لكن أمه بكت وتوسلت واستحلفته برحمة أبيه، وذكرته بأنه وحيدها الذي انعقد عليه الأمل ليكون طبيباً، وأذعن هشام ودرس الطب خمس سنوات واحتفظ بتقدير ممتاز . . . ويقولون إن معلوماته في الامتحانات الشفوية كانت تنتزع الإعجاب من أشد الممتحنين تجهماً وشراسة - ويقولون أيضاً - إن الدكتور مندور أستاذ التشريح الشهير . . . بعد أن امتحن هشام، قام إليه وصافحه وطلب له مشروباً مثلجاً (وهذه تحية تقدير قلما يجود بها الأستاذ الكبير على أحد) ولأن هشاماً كان فذاً إلى هذا الحد، ولأنه أيضاً ليس ابناً لأستاذ جامعي أو قريباً لوزير، فقد جاء ترتيبه في التخرج . . . العشرين على الدرجة .

عين هشام نائباً في قسم الجراحة العامة، وكانت فرحته بذلك صادقة . . . ولما بلغ النبا أمه وكانت تقشر البطاطس أمام التلفزيون . . . فرحت وزغردت ثم بكت ودعت وصلت ركعتين شكراً لله، ولم تلبث أن نشرت الخبر بالتليفون على الأقارب والمعارف ثم ارتدت ملابسها ونزلت تشتري الشربات والجاتوه ولما وصل أول المهنيين وكانوا من الجيران قصت عليهم الأم (وقد بدت حينئذ أكثر رزانة ووقاراً باعتبارها

أمّا لطبيب جراح) قصت عليهم كيف أن هشام لم يسع للوظيفة بل هم الذين حرصوا على تعيينه لنموه . . وفى اليوم التالى لما جاء مهثون جدد كانت الأم تحكى لهم حواراً كاملاً دار بين رئيس قسم الجراحة وابنها، يلح فيه الرئيس على هشام ليقبل العمل معه، ويطلب هشام فرصة للتفكير لأنه متردد .

* * *

نقر هشام على الباب وفتحه فتحة صغيرة . تأدباً . ودلف بالكاد إلى الداخل . . كان الدكتور بسيونى رئيس القسم جالساً يتحدث مع ثلاثة من الأساتذة ولما ظهر هشام أمسكوا ونظروا إليه متطلعين ، وأحسن هو بضربات قلبه تتابع ، فاستجمع شتات أنفاسه المبهورة وتبسم فى ود متأدب وقال :

- صباح الخير .

لم يردوا عليه واستمروا ينظرون . . وكان لا بد أن يفسر وجوده فقال :

- أنا هشام فخرى . . النائب الجديد يا فندم .

- انتظر فى الخارج .

قالها رئيس القسم بغير اهتمام واستأنف حديثه مع الأساتذة . . وخرج هشام وأخذ يقطع الردهة ذهاباً وإياباً ودخن ثلاث سيجارات . . ولما خرج الأساتذة من مكتب الرئيس أعاد هشام كل ما فعله فى المرة الأولى ، بدءاً من نقر الباب إلى تقديم نفسه لأن الدكتور بسيونى . فى تلك الدقائق القليلة كان قد نسى كل شئ عنه .

- اسمع يا ابني . . ؟ أتعرف ما وظيفتك في القسم؟

وحار هشام في الرد .

- إنت شغلتك هنا مرمطون . . قالها الرئيس واستغرق في ضحكات سريعة متتابة وراح يلعب بأصابعه في سوائفه الطويلة . . وكاد هشام أن يضحك هو أيضاً مجاملة لكن هاتفاً منعه لحسن الحظ .

- هل تعرف مرمطون المطبخ؟ الولد الذي يلم قشر البصل ويمسح البلاط ويضربه الطباخون على قفاه . . أهو نائب الجراحة هو مرمطون المطبخ تماماً .

وهز هشام رأسه . . واستطرد الرئيس :

- سوف تفعل ما نريد أن تفعله . . إياك أن تعترض أو تشكو . . كل شيء بضمنه . . تريد أن تصبح جراحاً؟ ستدفع الثمن كما دفعناه جميعاً . . تعب وعرق وظلم وإهانات . . وبعد ثلاث سنوات من الآن . إذا أعجبتني . سوف أوقع بيدي قراراً بتعيينك مدرساً مساعداً في الجامعة، أما إذا لم تعجبني فسوف أستغنى عنك، ولترجع إلى وزارة الصحة حماراً كأي حمار هناك .

وكأنما خطر هنا للرئيس . . أن هشام أخذ من وقته أكثر مما يجب، فتجههم وزعق في غضب مفاجئ .

- يالله . . تفضل . . استلم في شئون العاملين .

* * *

الدكتور بسيوني غنى عن التعريف . . هو رئيس قسم الجراحة العامة وأيضاً رئيس الجمعية العربية للجراحين، وعضو في عشرات الجمعيات

الطبية العالمية، وهو إلى جانب ذلك شخصية عامة، تنشر الصحف آراءه في الاقتصاد، ويستضيفه التليفزيون في رمضان ليحدثنا عن أكلاته المحببة. . والدكتور بسيونى قبل كل شىء - لا يمكن أن ننسى - جراح فذ، دخل تاريخ الجراحة من أوسع أبوابه. ولأن الدكتور كل ذلك، فإنه طبعاً يختلف عنى وعنك - نحن العاديين الباهتين المجردين من أية قيمة أو موهبة - فالواقع أن الدكتور بسيونى شخص عجيب بقدر ما هو فذ ماهر، وأشياؤه الغريبة تثير حوله الفضول والتعليق وأيضاً الرهبة والإعجاب. ففي حر أغسطس مثلاً يرتدى الدكتور بسيونى قميصاً بنصف كم كأى مواطن آخر لكنه - لا بد - يعقد حول رقبته كرافت طويلة جداً تصل إلى ما تحت الحزام، ولا يعرف أحد لماذا يصير الدكتور على الكرافت وهو لا يرتدى جاكيت؟ ولا يعرف أحد أيضاً فائدة أن تكون كرافت بهذا الطول؟ وهو إلى ذلك يتنقى للملابسه ألواناً زاعقة فاقعة، كأنما يتعمد ألا تتناسق (ويقولون إنه اكتسب هذا الذوق من إقامته فى أمريكا. .) وإذا كان مفهوماً أن يطيل أحدنا سوافه قليلاً، فقد أسرف الدكتور فى ذلك وكسا وجهه بسواف شبياء طويلة تمتد إلى ما تحت الأذنين، حتى بات يشبه لورداً إنجليزياً من القرن التاسع عشر، أو بقالاً يونانياً فى الإسكندرية. . على أن منظره العام بسوافه وألوانه الزاعقة وصلعته الخفيفة وجسمه القصير الممتلى وحركاته السريعة العصبية لا يخلو من جمال، ولا ينم بحال عن سنواته الستين.

والدكتور بسيونى أعزب لم يتزوج ويرجع ذلك - فى أحد التفسيرات - إلى إخلاصه لحب قديم انتهى نهاية أليمة. . أما من ناحية الإدارة فمعروف أن قسم الدكتور من أكثر الأقسام انضباطاً فى القصر العينى، وهذه حقيقة برغم أن الدكتور - فى غير أيام العمليات - لا يقضى فى القسم أكثر من ساعة يومياً وينصرف بعدها مسرعاً إلى

عيادته بوسط البلد . لكن غياب الدكتور فى القسم لا يعنى إطلاقاً أنه غافل عما يحدث فيه ، وهو عادة ما يستدعى إلى مكتبه أى شخص (من أكبر أستاذ إلى أصغر نائب) ليوبخه أو يهتته على شىء فعله فى غيابه ، ولا يعلم أحد حتى هذه اللحظة كيف يعرف الدكتور ما حدث وهو غائب ، طبعاً التخمينات كثيرة . . لكن الصعب حقاً أن تقطع بأن شخصاً بعينه هو مصدر المعلومات ، والنتيجة مدهشة . . فقد بات أطباء القسم يعملون ويتكلمون ويضحكون وكأن الدكتور معهم . . وقد يختلف اثنان منهم مثلاً - بل وينفعلان ويحتدان - حول تاريخ حصول الدكتور على الدكتوراه أو من أى جامعة أمريكية نالها (برغم أن الأمر لا يعنى الاثنى) لكنهما يؤمنان بأن ما يقولانه - ككل ما يحدث فى القسم - سينقل للدكتور بتفاصيله . . وإذا كان هكذا غياب الدكتور فكيف يكون حضوره .

حسناً . . إذا حضر الدكتور فإن كل شخص يحرص على إتقان عمله حرصه على الحياة . . لأن الدكتور لا يعرف الهذر وهو يعاقب المخطئ مهما كان ويكون عقابه فوراً وأيضاً - ككل ما يفعله - غاية فى الغرابة . . فهو إذا وجد سيارة مركونة فى المكان المخصص لسيارته ، أمر فوراً بتفريغ عجلاتها الأربع من الهواء ، وانصرف ، (ولنا أن نتخيل بعد ذلك عناء صاحب سيارة بأربعة إطارات فارغة) وهو إذا ملح تومرجياً يصنع الشاى بجوار أسرة المرضى . . انقض فوراً على براد الشاى الساخن ، وطوح به من الشباك (ولا يهتم على رأس من يقع البراد . . فهذه مشكلة المارة فى الشارع) . . وإذا دخل الدكتور غرفة التعقيم ، ووجد الفرشة التى يدعك بها يده غير نظيفة . . قذف بها فوراً فى وجه الحكيمة وهو يقذف بها فعلاً بمعنى أنها قد تصيب الحكيمة فتفتح دماغها . . (حدث هذا مرة واحدة مع حكيمة جديدة أما الباقيات

فيعرفن بالخبرة كيف يتفادين الأشياء المقدوفة) . . وفي غرفة العمليات ، خلال تلك الدقائق الرهيبة التي يتحدد فيها مصير شخص مخدر مفتوح الأحشاء ، يهمس مساعدو الدكتور فى وجل ويتصبب عرقهم برغم برودة التكييف . . ويظل الدكتور - وحده - رابط الجأش ، ويعلو صوته الحاد لاعنا أهل من يعملون معه وهو يشتمهم فى جمل مختلفة لها تركيب واحد كأن يقول : « اشفط الدم يا حيوان » أو « دى خياطة يا جحش ؟ » . والمدهش أن المشتوم - جراحاً كان أو حكيمة - لا يأبه للشتم بقدر ما يركز تفكيره فى إصلاح الخطأ . . والحق أن الدكتور لا يشتم مساعديه فقط إذا غضب ، لكنه يلعنهم أيضاً إذا رضى وأثنى . . فبعد انتهاء العملية يقول لأحدهم مثلاً : « إنت حمار جراحة صحيح . . لكن عملت شغل حلو الليلة » . وهكذا تغير مدلول الشتائم فى لغة الدكتور . . وصار يستخدم أسماء الحيوانات كما نستعمل - نحن العاديين - « أنت » ، و « أنتم » وسائر أسماء التخاطب فى لغتنا .



تعب هشام كما لم يتعب فى حياته . . كان يعمل كل يوم من الساعة صباحاً حتى منتصف الليل ، وأيام العمليات (الأحد والأربعاء) كان يبيت ليلته فى القسم ، وعندما يرجع لبيته منهكاً كان عليه أن يجد ساعة أو ساعتين يستذكر فيها دروس الماجستير . . والنتيجة أنه لم يكن ينام أكثر من أربع ساعات يومياً . . فهزل وشحب وجهه واستقرت هالات سوداء بشكل دائم حول عينيه . . ولحظت أمه عصبيته ونعت عليه مراراً إسراره فى التدخين وكانت - استجابة لإلحاحه - توقظه كل يوم فى الفجر وهى تكاد تبكى إشفاقاً على جسده الضعيف من هذا الإرهاق . . لكن تعب هشام لم يكن يؤلمه . . الذى كان يؤرقه أن يذهب تعب هباء ، كان

الهدف فى ذهنه واضحاً محدداً . . «أن يصبح جراحاً كبيراً» ولأنه كان يدرك أن مستقبله كله يتحدد فى تلك الأيام، فقد كان على استعداد . لو أسعفه الوقت . أن يضاعف المجهود، وصدق أو لا تصدق فقد عمل هشام مع الدكتور بسيونى عاماً كاملاً بغير كوارث . فقد كان يدخل إليه كل أسبوع مرتين ليعرض عليه قائمة العمليات . . وفى كل مرة، كان هشام يقترب من الدكتور بسيونى . . تماماً كما يقترب أحدنا من سلك الكهرباء أو مفتاح الغاز ليصلحه، أى أنه كان يمد يده بالأوراق ويتراجع تحسباً لانفجار وشيك، لكن الدكتور بسيونى . لدهشة حسام . لم ينفجر قط . . لم يخل الأمر طبعاً من بعض أسماء التخاطب (تعود الدكتور أن يسمى هشاماً بالخلوف) . . لكن هذه هيئة .

وبينما لم يسبب الدكتور بسيونى مشكلة لهشام، فقد سبب له الآخرون مجموعة متنوعة من المشاكل ولا بد هنا أن نذكر أن قسم الدكتور يضم أربعة أساتذة سواه، وأن أحداً منهم ليس فى شهرته أو سلطته . . فالدكتور منصور مثلاً تخرج بعد الدكتور بسيونى بعام واحد، وهو يحمل مثله دكتوراه من أمريكا، وهو أيضاً جراح ماهر، لكنه لسبب غير مفهوم، كما يحدث كثيراً فى الحياة، ليس لأمعاً مثله . . وبينما يكون حضور الدكتور بسيونى - بمنظره العجيب - مؤثراً فى الناس، فإن الدكتور منصور برغم حرصه على البدلة الكاملة صيفاً وشتاء، كان على أحسن تقدير يشبه مديراً فى الحكومة، أى أنه بشعره الأشيب ونظارته وأدبه وصوته الخفيض كان بكل تأكيد شخصاً محترماً . لكنه ليس أبداً أكثر من ذلك، ولم تكن عيادة الدكتور منصور تدر عليه كثيراً . . إذ يفضل المرضى عادة التعاقد مع جراح مشهور لأنه طبعاً أكثر مهارة وإلا فكيف جاءت شهرته؟ ولأن الدكتور منصور كان لديه من الوقت متسع، فقد تعود أن يقضى معظم النهار فى القسم

متجولاً بين أنحائه، يراقب ما يحدث عن بعد، ويتدخل دائماً في الوقت المناسب . . فهو ينتظر مثلاً حتى يكتب أحد الأطباء دواء ما لمريض وما إن يلمح الدكتور منصور الامتنان في عين المريض أو يسمع أهله يشكرون الطبيب، حتى يقترب مسرعاً ويسأل الطبيب بصوت هادئ عما كتبه، ثم يتسم الدكتور منصور في سخرية خفية (لكنها تظهر على أى حال) . . ويعلن للطبيب أن كل ما كتبه خطأ في خطأ (لم يحدث قط أن وجد الدكتور منصور أى طبيب مصيباً في أية مرة). ولا يفوت الدكتور منصور أن يشرح بصوت واضح مسموع المضاعفات التي كانت ستحدث لو أن المريض أخذ هذا الدواء الذي يدمر الكبد تماماً. وعندما يلمح بطرف عينه الجزع والحيرة على وجه المريض، كان الدكتور منصور يداعبه قائلاً: احمد ربنا . . كاد الدكتور أن يقتلك . . ولا بد هنا أن يتوسل المريض وأهله للدكتور منصور ليصف لهم دواء آخر، فيتناول الدكتور منصور «الروشتة» ويشطب الدواء الأول بحسم، ثم يكتب دواء آخر (لا يختلف عادة عن الأول) . . ثم يتنهد ويهز رأسه وكأنه يقول . . «ماذا أفعل لهؤلاء الأطباء الجهلاء يا ربى؟» وينصرف بعد ذلك تماماً كما جاء . . فى هدوء وأدب .

وكان الدكتور منصور يعلق على أفعاله هذه قائلاً: «إننى دائماً . . أنقل خبرتى الطبية لأولادى» وبنفس هذه الروح الأبوية، تعود الدكتور منصور أن يزهق آمال الطلاب الذين يشرف على رسائلهم العلمية، فهو بعد أن يجهد الطالب عامين كاملين فى البحث، وعندما يقترب البحث من نهايته ويداعب الطالب الأمل فى نيل الدرجة العلمية (ماجستير أو دكتوراه) كان الدكتور منصور يكتشف دائماً فى البحث خطأ ما جوهرياً وكان يخبر الطالب بذلك فى روية وتمهل (كتمهلك وأنت ترشف الشاي التعناع) . . ثم يرقب فى هدوء وجه الطالب الذى

يعتريه الإحباط والقنوط ، ويرفض بأدب وحسم -محاولات الطالب المحمومة للدفاع عن البحث ، وعندما يستولى اليأس على الطالب ، ويلوذ في النهاية بالصمت ، كان الدكتور منصور عندئذ يتنهد في ارتياح صادق -ويقول :

لا تكابر يا بني . . أماننا عام على الأقل من العمل .

ويتجدد هذا العام مرة أو مرتين . . وكثيراً ما كان الدكتور منصور -بعد كل ذلك ينصح الطالب بأن يبدأ من جديد مع مشرف آخر ، لأنه ببساطة غير راض عن البحث ، ولا يقبل أن يضع عليه اسمه . . والخلاصة أن الدكتور منصور في عشرين عاماً لم يحصل تحت إشرافه على درجة علمية سوى طلاب أربعة ، صمدوا للنهائية وكان الطبيب الشاب الذي يقع الدكتور من نصيبه في الإشراف . . يتلقى من زملائه عزاءً حاراً وكأنه فقد عزيزاً . . وقد دعا الدكتور منصور هشاماً -بعد أيام من تعيينه - لحضور عملية يجريها . . وامتن هشام كثيراً لهذه اللقطة وتعقم ودخل مع الدكتور ، وكانت العملية لاستئصال مرارة فلاح بائس من المنوفية ، وبعد أن تم الاستئصال طلب الدكتور منصور من هشام تخييط الجرح ، وركز هشام ذهنه وأحكم يديه وخيط الجرح كأفضل ما يعرف ، صحيح كانت يده بطيئة ، لكنه لم يخطئ كان واثقاً من ذلك . وبعد العملية طلب الدكتور منصور هشاماً في مكتبه ودعاه للجلوس وقال وهو يشعل سيجارة وينظر إليه بهدوء الصياد المحنك :

- اسمع يا هشام . . هل تغضب لو قلت لك إنك لا تصلح جراحاً؟
وارتاع هشام وسأله عما يقصد فقال الدكتور : إن الجراحة إحساس قبل أن تكون تعاليماً ، وأنه بخبرته الطويلة ، بمقدوره أن يحكم إذا كان الإحساس الجراحي موجوداً في شخص ما ، وقد تعمد أن يراقبه اليوم

فى العملية ويستطيع - بكل أسف - أن يؤكد أنه لن يكون جراحًا يومًا ، وهو لذلك ينصح به بالذهاب لقسم آخر - الباطنة مثلاً أو الجلدية - حيث يكون التدريب هو كل شىء ، واندفع هشام كما هو متوقع - فى محاولات عنيفة ثم يائسة لإقناع الدكتور منصور بأنه فى أول الطريق وأنه سيتعلم ويتحسن ، لكن الدكتور كان يستمع مطرقاً إلى كلام هشام للنهائية ، ثم يرفضه بجملة واحدة قصيرة ، ثم يدفعه بجملة أخرى إلى المزيد من محاولة إقناعه وهكذا . . حتى شبع الدكتور منصور تماماً من جزع هشام ويأسه فقام منهاً المقابلة وقال بصوت خفيض مهذب :

- أود أن أسمع عن استقالتك قريباً . . أنا أسف . . لكنى أعمل لمصلحتك .



«إن بضع دقائق لا تكفى للحكم علىّ ، كما أنه ليس من سلطة أحد إجبارى على الاستقالة . . » هكذا قال هشام لنفسه واقتنع واطمأن وقرر أن يخلع من ذهنه كلام الدكتور منصور وكأنه لم يكن ، لكنه برغم ذلك - ظل لأسابيع طويلة - يرتبك كلما عهد إليه بشىء أثناء العمليات . . كانت كلمات الدكتور منصور تقفز إلى ذهنه وتلح فتتهز يده ويبدل مجهوداً خارقاً لكى لا يخفق . . وعلى أى حال . . فقد أقلع هشام بعد ذلك عن مساعدة الدكتور منصور فى عملياته . . بل وبات يتجنب حتى رؤيته ، فكان إذ لمحّه قادماً فى الردهة يدخل غرفة جانبية ويتشاغل حتى يمر ، وخيل إليه مرة أن الدكتور منصور رآه وأنه يتسم ، وانصرف هشام بعد ذلك لمساعدة بقية الأساتذة وقد أدهشه أنهم جميعاً - كل بطريقته - يسيئون معاملته . . واعتقد فى البداية أنهم يكرهونه لسبب ما ، لكنه لم يلبث أن اكتشف أنه ليس مقصوداً لذاته ، لكن العلاقة بين الجميع

سيئة، فرئيسة الحكيمات توبخهن دائماً، والأساتذة يتهمون الجميع - أطباء وحكيمات - بالجهل والتقصير . . والخلاصة أن كل شخص قد أخذ على عاتقه أن يفضح جهل الذي أصغر منه، وكانت المشاحنات تسير وفقاً لترتيب مسلسل لا يتغير، ففي الصباح يغلط أستاذ ما لمدرس ويوبخه على الملأ وبعد أقل من ساعة يكتشف نفس المدرس خطأ قاتلاً ارتكبه مدرس مساعد، الذي لا يلبث بدوره أن ينكل بنائب أو حكيمة . . ولأن هشاماً كان أصغر الجميع، فقد كان سيل الإهانات يصب دائماً على رأسه . . وخوفاً من تورطه من مشادة قد يسمع بها الدكتور بسيوني، كان هشام يتلقى الإهانة بالصمت . . وإذا أسرف من يهينه، كان عندئذ يوجه إليه نظرة لائمة حزينة ويبتسم، وكان يظن هذه الطريقة ستخرج كل من يتناول عليه، لكن النتيجة كانت أن تضاعفت الإهانات بل وصار كل شخص في القسم يصرخ في هشام لاثماً لأدنى سبب حتى الحكيمات - وهن مرءوسات له - ضبطهن هشام أكثر من مرة يتغامزن عليه ويضحكن . . وكان ذلك يؤلمه، وفي كل ليلة قبل أن ينام كان هشام يضع الوسادة على رأسه ويتذكر بمرارة أحداث النهار وكان يصبر نفسه قائلاً: «كل هذا سيتغير . . سأزداد مهارة . . سيكون ترتيبي الأول في الماجستير وحيثنذ سيفكرون كثيراً قبل أن يفعلوا ذلك . . بل إن أحداً لن يجرؤ حتى على مخاطبتي باسمي المجرد».

والحق أن هذا الجو المشوش المشحون بالضغائن لم يمنع هشاماً من التعليم . . كان يقرأ جيداً عن كل حالة، وأثناء العمليات كان يركز ذهنه ويحقد فيما يراه ليحتفظ به في الذاكرة، وكان لا بد أن يتحسن، شيئاً فشيئاً قلت أخطاؤه في التشخيص وكان واثقاً - لو سمح له - أنه يستطيع أن يجري عمليات كثيرة بنجاح، ولما اقترب امتحان الماجستير أدرك

هشام أن فرصته قد حانت فانكفأ على الكتب يقرأ ويفهم ويحفظ ،
وكثيراً ما فاجأه في الصباح وهو يستذكر ، فكان عندئذ يأخذ حماماً
بارداً ليفيق ، ثم يذهب إلى القسم بغير أن ينام واجتاز هشام الامتحان
التحريري بغير أخطاء تقريباً ووفق تماماً في العمل وكعاداته في
الشفوى ، انتزع إعجاب المتحنيين ، ولما فرغ هشام من الامتحان كان
واثقاً من النتيجة .



تسبب خطأ غير مقصود في رفع اسمه من كشف الناجحين ؛ هكذا
ظن هشام ، فلم يقلق كثيراً وذهب إلى مكتب شئون الطلاب وشرح
الأمر لرئيس المكتب وكان الرجل مهذباً للغاية فأطلع هشام بنفسه على
درجاته في الامتحان ، ولم يتكلم هشام أو يناقش لكنه توجه فوراً إلى
مكتب الدكتور بسيوني . . ونقر الباب بسرعة وقوة وفتحه ودخل ، كان
الدكتور بسيوني يقرأ . . وبادره هشام قائلاً بصوت لاهث محشرج
(اندهش هشام نفسه لسماعه) .

- لقد رسبت في الامتحان .

- مبروك . . قالها الدكتور بسيوني بغير أن يحول نظره عن القراءة -
أريد أن أعرف لماذا رسبت؟ سأل هشام بعناد .

- رسبت لأنك لا تستحق النجاح . قال الدكتور لهشام وأخذ يلعب
بأصابعه في سوافه الطويلة . . وكانت نبرته تنذر بانفجار قادم .

- «إننى لم أخطئ في التحريرى ولا في العملى . . أما الشفوى» .

وهنا اندفع الدكتور .

- اسمع يا حلوف أنت . . أترانى قد فرغت من أشغالى لأكرر ما أقوله لك كل يوم . . قلت لك ألف مرة هناك فرق بين امتحان الجراحة والشهادة الابتدائية نحن لا نسمح لكل من هب ودب بأن يكون جراحاً، مهما كانت معلوماته، يهمننا شخصك وأخلاقك أولاً . . قلت لك من البداية إنك لن تنجح وتستمر معنا إلا إذا أعجبتنى . . فاهم؟ ولأذ هشام بالصمت . .

- تفضل شرف شغلك يا حلوف وخرج هشام . . واستأنف عمله كالمعتاد، ولما خلا نفسه في تلك الليلة لم يكن بالمتعب حزيناً، استولى عليه شعور بالهلع، الهلع من التورط الصريح، كان يشعر لأول مرة بأن ذكائه - تلك القاعدة المينة التي طأها منذ ابتدائها بثقة - لم تعد تجدى، وزاد من اضطرابه أن الدكتور أعلن له بوضوح أنه لا يعجبه (ألم يقل ذلك؟) وهو لا يعرف ماذا يفعل كي يعجز الدكتور بسيونى؟ ومرت أيام . . وأسابيع . . وشهر رز طال هشام يعمل فى القسم بنفس الدأب ولكن فقط بمهارة عقل، كان ناصباً، عقله الآخر مشغولاً بالسؤال الملاحق الهام: ماذا يفعل كي يذهب الدكتور بسيونى؟ ولما حار هشام فى الإجابة قرر أن يسأل من يعرفهم - وبدأ بأمه فحكى لها ما حدث، وألقى عليها السؤال، لكن أمه - لدهشته - أرجعت كل المشاكل إلى حسد أصحابه لتفوقه، وراحت تلح عليه كل ليلة كي يعبر سبع مرات على مبخرة مشتعلة كانت تحضر لها البخور من ضريح السيدة «سكرة» (وهى من أولياء الله المعروفين فى شارع الأزهر) وكان ضيق هشام شديداً بكل ذلك لكنه إرضاء لأمه وتخلصاً منها . . كان يذعن ويعبر سبع مرات على المبخرة . . ومضى الوقت وبقيت شهور على امتحانه الثانى للماجستير (فرصة هشام الأخيرة)

واستمتعت هشام ليعرف كيف يعجب الدكتور بسيونى ، وأخذ يتقرب من كل أستاذ فى القسم ويتحين ساعة صفوه ثم ينفرد به ويسأله فى تودد ضارح : أريد أن أستفيد بخبرتك يا دكتور؟ ماذا أفعل كى أعجب الدكتور بسيونى؟ وكانوا جميعاً يتسمون وتجيء إجاباتهم واحدة : أستاذنا الدكتور بسيونى يحب كل من يخلص فى عمله ويجتهد . . وكان هشام يعرف أنهم يكذبون . . وبدأ هشام بعد ذلك يسأل زملاءه فى الأقسام الأخرى . . كان يدخل قسم الأشعة أو يمشى إلى قسم الباثولوجى ، ويبحث عن زميل دراسة قديم ، ويلقى عليه السؤال ، وشيئاً فشيئاً . . بدأ هشام يعرض مشكلته على أطباء لا يعرفهم ، كان يقترب منهم ويتسم ويعرفهم بنفسه ثم يعرض الأمر ويلقى بالسؤال . . «ماذا أفعل لأعجب الدكتور بسيونى» ولا يعرف أحد بالضبط كيف عثر هشام على الإجابة ، لأن ما حدث بعد ذلك حدث فجأة . . ففى يوم الأحد ، دخل هشام كعادته ليعرض على الدكتور بسيونى قائمة العمليات ، ولم يكن الأمر يستغرق بضع دقائق فى العادة لكن هشام تأخر هذه المرة . . وتأخر . . لدرجة أن أطباء القسم - بعد ساعة من دخوله - أخذوا يتهايمسون فى قلق ودهشة ، وخرج هشام أخيراً . . وكان وجهه يعكس تعبيراً غريباً . . وهو خليط من الألم والإنهاك والراحة ، ولم يعرف أحد ما جرى بين هشام والدكتور فى ذلك اليوم ، لكن أحداً أيضاً لم ينس لقاءهما هذا لأنه كان بداية التحول ، فقد صار هشام بعد ذلك يدخل إلى الدكتور يومياً ويقضى معه وقتاً طويلاً بل أصبح الدكتور يبعث فى طلبه إن لم يجده ، وقد أذيع فى القسم - بعد أسابيع - أن الدكتور قد أخذ هشام ليساعده فى العيادة (وهذه لم يفعلها الدكتور بسيونى مع نائب من

سنتين) وصار هشام بعد ذلك وحده المختص بمواعيد الدكتور بسيوني وأحواله، فإذا أردت أن تعرف فى أى مستشفى يجرى الدكتور عملية الغد، أو إذا كان مزاجه يسمح بأن تعرض عليه طلبك، بات عليك أن تسأل هشام وحده دون سواه، ولم يعد هشام مضطراً لتحمل الإهانات من أحد، لسبب بسيط هو أن أحداً لم يعد يهينه . . بل إن الجميع - الكبير والصغير - صاروا يتلطفون فى معاملته حتى الدكتور منصور بات يتعمد أن يلقاه كل صباح ويحييه، بل طلب منه أكثر من مرة أن يساعده فى عملياته، لكن هشام كان يعتذر بأنه مشغول تماماً مع «الباشا» (يقصد بسيوني) فكان الدكتور عندما يسمع ذلك يهز رأسه وكأنه يقدر تماماً مشاغل هشام . . ولم يلبث هشام أن اشتهر بأنه نائب حازم، لا يعرف التهاون فى حق العمل، فكان يخضع أياً ما لأية حكيمة تخطى بعد أن يلومها ويوبخها، وإذا جاء الخطأ من طبيب كبير فى القسم كان هشام ينظر إليه ويتسم (فى أدب وقوة) ويسأله: هل تظن أن الباشا يرضيه أن تفعل ذلك؟ (كان هذا السؤال يبعث الاضطراب فى أشد الأطباء تماسكاً وصرامة) . . ولما تقدم هشام لامتحان الماجستير فى المرة الثانية . لم يتكفى على الكتب كما فعل من قبل، لكنه نجح وجاء ترتيبه الأول، وقبل أن تعلق النتيجة هناك الدكتور بسيوني قائلاً «مبروك يا حلو فطلعت الأول» وابتسم هشام وانحنى، وبدت حركاته وابتسامته هذه المرة من نوع جديد مختلف وقال «كله من فضلك يا باشا» .

وأحدث الزملاء والأساتذة جلبة شديدة فى تهتة هشام، ولما جاء موعد تعيينه أعلنت إدارة الجامعة أنه لا توجد وظائف شاغرة . . وكانت هذه مشكلة كفيفة بتحطيم مستقبل هشام لكنه ما إن علم بالأمر فى

الصباح الباكر حتى أمسك بسماعة التليفون وطلب الدكتور بسيونى فى المنزل (وهذه لم يجرؤ عليها أحد من قبل) وتفهم الدكتور بسيونى الأمر واتصل بالمعنيين وقبل أن يتتصف النهار، تلقى هشام نبأ تعيينه مدرسًا مساعدًا بقسم الجراحة العامة .

حدث هذا من عامين أو أكثر . . والدكتور هشام الآن - تحت إشراف الدكتور بسيونى - مشغول بإعداد رسالة الدكتوراه، والحق أننا زملاء دراسته القدامى - نباهى دائمًا بما وصل إليه ، وكثيراً ما نزره فى قسم الجراحة ونقضى معه وقتاً جميلاً نتحدث ونسترجع الذكريات وبرغم بشاشته فى لقائنا، وبرغم حبنا له واعتزازنا به ، فإننا أحياناً ما نشعر بأن شيئاً فى صديقنا القديم قد تغير ، لكننا سرعان ما نطرد عن أذهاننا هذا الخاطر .

إنا أغشيناهم

«من منا لا يعرف الأستاذ جوده . . ؟ لا شك أن معظمنا يعرفه . .
فالذى لم يزامل الأستاذ جوده فى العمل أو الدراسة لا شك قد صادفه
فى زحام الأتوبيس أو هو بالتأكد شاحده وهو يتأبط كيساً كبيراً من
النيلون، ويفض مشاجرة نشبت فى طابور الجمعية . . أو لعله استمع
إلى المحاضرة الكروية التى تعود الأستاذ أن يلقبها فى القهى مساء
الجمعة من كل أسبوع .

على الأقل . . لا بد أن يكون أحداً قد سمع الأستاذ جوده فى
رحلته الصباحية عندما يصطحب أطفاله الثلاثة يوصل كل طفل إلى
مدرسته . . ثم يهرع هو إلى وزارة التخطيط حيث يعمل موظفاً بإدارة
المتابعة . .

على أية حال . . أنا أكتب فقط للذين يعرفون الأستاذ جوده . . إذ
إن الذين لم يعرفوه تظل أفهامهم دون المعانى .



لم يخجل قط من حذائه . . كان مصنوعاً من القماش لكنه كان
يزعم دائماً أن هذا النوع من الأحذية يريح قدميه، بل كان الأستاذ

جوده أحياناً يتعجب على الملاء كيف يتحمل الناس أحذيتهم الجلدية فى هذا القىظ .

وىفضل جهود بشئنة زوجته كانت بنظولاته تبدو دائماً أقرب للأناقة .

المشكلة كانت فى القمصان . . كان الأستاذ جوده بملك ثلاثة قمصان يبدلها على مدار الأسبوع ، وكان القميص الأبيض مهترئاً . . ولو كان مقطوعاً لقدرة الأستاذ أن يستغنى عنه ، لكنه كان مهترئاً والاهتراء هو تلك الخشونة التى تصيب القماش البالى ، الخيوط الصغيرة التى تبرز وتبدلى من منظومة النسيج وفى بعض الأيام الرمادية المنقبضة كان الأستاذ جوده يضطر لارتداء قميصه الأبيض ، وكان الخميس الماضى أحد هذه الأيام .

وفى ذلك الصباح تغير سلوك الأستاذ جوده تماماً .

قد يبدو هذا مبالغاً فيه ولكن للذين يجهلون تأثير قميص مهترئ على سلوك المرء أقول إن الأستاذ جوده عندما حيا زملاءه فى ذلك الصباح كان صوته خافتاً ، وعندما طلب قهوته الصباحية كان مهذباً فوق العادة فقال : «لو سمحت يا برعى قهوة مطبوط» بدلاً من صيحته اليومية «قهوة مطبوط يا برعى» .

وأقول إن الأستاذ قد قضى معظم النهار وراء مكتبه وتشاغل كثيراً بقراءة ملفات لا أهمية لها ، ثم إنه كان يرد باقتضاب على دردشة زملائه وكان يجد نفسه أميل لموافقة محدثيه على آرائهم . . حتى كرة القدم . حديث الأستاذ المفضل . لم يشر اهتمامه فى ذلك الصباح . كان الأستاذ يحس بنفسه ضئيلاً ومن فرط حرجه كان لا يجد مكاناً ليديه ،

فتارة يضعها على المكتب وتارة يلقي بهما جانباً وأخيراً . . عقد الأستاذ يديه على صدره وظل هكذا إلى النهاية . ولا يدري أحد لماذا استسلم الأستاذ لرغبة عارمة جعلته يفحص ملابس زملائه بعناية، وعندما كان يلمح مظهر أحدهم الرث كان الأستاذ يستشعر راحة خفية آتمة .

كان يوماً ثقيلاً بحق وكان من الممكن . . أقول كان من الممكن أن ينقضى النهار بغير أن يحدث ما يزيد الأستاذ همًا وألمًا، ولكن يبدو أن قانونًا شريرًا يحكم هذا العالم، ففي حوالى الساعة الواحدة دخل إدارة المتابعة شاب أنيق وسيم لا يتعدى عمره الثلاثين، وتوجه الشاب رأسًا إلى مكتب الأستاذ جوده، كان يحمل أوراقًا يريد أن يختمها - وختم الأوراق وهو تقريباً عمل الأستاذ جودة الرئيسى - وكما يفعل دائماً أخرج الأستاذ الختم من الدرج واستعد لختم الأوراق . . وقد فكر الأستاذ جوده كثيراً - بعد ذلك - فيما فعله الشاب وخرج بالتحليل الآتى : إن هذا الشاب ينتمى لنوع من الرجال يحملون طابعاً أنثوياً مبهمًا، طابعاً لزجاً لا نلاحظه للوهلة الأولى لكنه لا يلبث أن يبرز فجأة عندما يسأل الواحد منهم عن أسعار القماش أو يفاخر بمهارته فى الطهو وشراء الفواكه، أو يقضى وقتاً أطول من اللازم فى تلميع نظارته مثلاً . . المهم . . فرغ الأستاذ جوده من ختم الأوراق بسرعة لكن الشاب كان لطيفاً ودوداً - كعادة الرجال من ذلك النوع - وتدفق حديث عذب بين الشاب والأستاذ استغرق بضع دقائق وهم الشاب بالانصراف فاستبقاه الأستاذ جوده بحرارة، وجلس الشاب وقد اكتست ملامحه بغلاف حميم صادق وأعطى الأستاذ سيجارة مستوردة فقبلها الأخير ممثناً وأضاف، التدخين لذته إلى الجو فتسرب إحساس دافئ إلى قلب الأستاذ جوده ولم يعد يشعر بقميصه، وأبعد يديه عن صدره ووجد لهما مكاناً بجوار المقعد، ثم إمعاناً فى إظهار الود . . قام الأستاذ

وتظاهر بالبحث عن الساعى ليطلب شيئاً «لسعادة البك» . . وفجأة . . انتابت الشاب حالة من حالاته الأنثوية فصاح «لحظة واحدة يا جوده بك» قام الشاب من مقعده واقترب برأسه من الأستاذ وأخذ يحدق فى قماش القميص ثم - بدون أن يتكلم - مديده ، بأصابع نحيلة مدرية قطع خيطاً من خيوط القميص الأبيض ، ثم نظر إلى الأستاذ جوده ، وابتسم ابتسامة بريئة .

لم يقصد الشاب شيئاً . كان من عادته أن يمد يده إلى ملابس الناس يربط زرا مفكوكاً أو يقطع خيطاً زائداً ، كان يحب أن تكون كل الأشياء فى صورتها اللائقة . لم يكن يطبق بحال أن يترك باقة معوجة أو يسمح بكرافتة مشوهة التكوين . . بل كان أحياناً عندما يلمح ورقة شجر صغيرة ملتصقة بشعر محدثه - أياً كان من يحدثه - كان على الفور يمد ذراعه ويجذب الرجل من رأسه ، ويظل يفتش بأصابعه فى رأس الرجل حتى يلتقط الورقة المذنبه ويلقى بها بعيداً وعندئذ فقط . . كان يتنهّد فى راحة ويسأل محدثه فى لطف جم : «حضرتك كنت بتقول إيه؟» .

كان الشاب من ذلك النوع . لم يكن يتوقع أن خيطاً تافهاً مقطوعاً من الممكن أن يحزن أحداً . والحق أن الأستاذ جوده لم يبد تأثراً يذكر أمام الشاب ، ولكن الذى حدث بعد ذلك . . أن الأستاذ عندما انتظر الأتوبيس طويلاً ، عند رفع صحيفته اليومية ليحجب الشمس عن رأسه الأضلع ، عندما تمكن - بخبرته - من أن يقفز ويحشر جسده البدين فى العربة المكتظة . . كان شعور ثقيل يجثم على صدره ، وشيئاً فشيئاً سالت هموم الأستاذ وتدفقت ، ثم انهالت بشراسة ، هو فى الخامسة والأربعين موظف بإدارة المتابعة بوزارة التخطيط ، عمله الأساسى أن يطبع الختم على الأوراق ، أوراق كثيرة علمته السنون أنها بلا فائدة أو خطورة .

وكثيراً ما يلقي الأستاذ زملاء دراسته فى سيارة فارهة أو يقرأ عنهم أخباراً فى الصحف وعندما يلقي الناجحين المتألقين . . كان دائماً يتمنى فى داخله أن يعامله أحدهم بصلف ووقاحة ، أن يسخر منه أحدهم أو يهزأ من فقره وفشله ، أن يعطيه أحدهم مبرراً معقولاً ليعلن حقه عليهم . ولكن ذلك لم يحدث قط . بلطف وأدب جم كانوا يعاملونه . يتبسطون معه فى الحديث ، يضحكون كثيراً لدعاباته ، ينصتون إليه باهتمام . . تماماً كالسلطان الطيب الذى يوقف موكبه العظيم ، ويهرع مشفقاً إلى طفل يبكى أو أرملة فقيرة . وهكذا أذعن الأستاذ لهمومه تماماً ، ولا بد أنؤكد أن قصة كشك السجائر كانت قصة طريفة ، وأن الأستاذ تعود أن يحكيها فى المقهى ليضحك أصدقاؤه ، وأنهم كانوا جميعاً يحبون هذه القصة وكثيراً ما طلبوا منه أن يعيدها عليهم ، وكان حينئذ يحس بنشوة حقيقية فيأخذ نفساً طويلاً من السيجارة ، ثم يقصها من جديد وأكسبته الإعادة مرانا فكان يركز ببراعة على مواطن الفكاهة ، فيشتد طرب أصدقائه وتصخب ضحكاتهم ، وكان الأستاذ دائماً يضحك معهم .

ولكن هذه المرة ، تذكر الأستاذ قصة كشك السجائر فلم يجد فيها ما يضحك . بل إن شعوراً من الخجل والأسى انتابه وهو يسترجع يوم أفنعتة زوجته بأن أصحاب الملايين بدأ معظمهم ببيع السجائر والحلوى ، وتذكر الأستاذ كيف سعى وألح فى سعيه حتى حصل على كشك سجائر فى ضاحية من ضواحي القاهرة ، كيف كان يخرج من عمله ليقف فى الكشك محاطاً بخراطيش للسجائر وعلب البسكويت ، وكيف كان الكشك - المصنوع من المعدن - يلهب ثم يتوهج تحت سخونة الشمس . . والأستاذ جودة بداخله ، ينتظر الزبائن والثروة .

وأخيراً تذكر الأستاذ كيف اكتشف - بعد ثلاثة أشهر كاملة - أنهم خدعوه وأن المنطقة بلا زبائن . . وعندما جرفته الذكريات إلى ذلك اليوم ، كان قد وصل إلى بيته .

لم يلحظ أحد في البيت ضيقاً على وجهه . ما إن دخل حتى خلع ملابسه ثم داعب أطفاله كالعادة وكما يحب شريف - أصغرهم - أمسكه الأستاذ من قدميه الصغيرتين ورفعته حتى لمس السقف بيديه ، وجعل يكرر هذا حتى انبعثت ضحكات الصغير السريعة المتلاحقة ثم عرج على المطبخ فتعجل الطعام ومازح زوجته كثيراً حتى إنه قرصها أكثر من مرة . كان طبيعياً تماماً .

شيء واحد فعله الأستاذ كان غريباً . حدث هذا بعد الغداء ، عندما آوى مع بثينة إلى الفراش ليناما قليلاً . كان الجو حاراً خانقاً ، وكان الأستاذ وزوجته يتصببان عرقاً وبالرغم من ذلك ، وبالرغم من أنه لم يتعود أن يلتقى بها في الظهر ، إلا أنه طلبها في ذلك اليوم وكان طبيعياً أن ترفض . « تعبانة يا جودة والدنيا حر » . لكن الأستاذ ألح وأصر حتى أذعنت في النهاية . واندفع الأستاذ جوده في لقاء حار عنيف ، واستغرق تماماً وانهمك وجاء أداؤه قوياً غزيراً ، وكانت بثينة تعرفه . هو لا يكون كذلك إلا إذا كان سعيداً جداً أو حزيناً .

وعندما فرغ الأستاذ ، تكوم على جنبه منهكاً ولم يلبث أن غطى رأسه بالسادة ، ولكنه لم ينام ، ومرت بضع دقائق من الصمت . وغير الأستاذ من وضعه في الفراش أكثر من مرة ، لكنه أيضاً لم ينام . وعندما أفلتت منه تنهيدة صادقة ، كانت بثينة قد عزمت على التدخل .

- «مالك يا جوده» ؟

كان يود أن يحكى عن أشياء كثيرة ولهذا لم يقل شيئاً .
- أنت مش عايز ترد ليه؟ ما هى مش معقولة يعنى أنى حانام وأسبيك
متضايق كده .

- «مظهرى يا بثينة . . مظهرى ما بقاش لابق أبداً» .
فى البداية لم تسمع ، ولما أعاد عليها الجملة لم تفهم تماماً .
- «إن جيت للحق أنا مش فاهمة» .

- «باقولك هدومى . . هدومى بقت وحشة أوى . . خصوصاً
القمصان . . القميص اللي كنت لابسه النهاردة كان فضيحة» .

كان يتوقع منها أى جواب ، لكنه لم يتوقع أبداً أن تضحك .
ضحكت بثينة . ظلت تضحك حتى اهتز السرير تحتها . وتحولت
دهشة الأستاذ إلى حنق شديد فصرخ :

- «إنتى بتضحكى على إيه؟ باقولك ما عنديش هدوم ألبسها» .

- عشان تعرف قيمة مراتك بسبوسة؟

لم يفهم الأستاذ ، واستمر الصوت متعشاً :

- «دا أنت ربنا بيحبك اللي اتجوزت واحدة زى» .

- «إيه هو ده» .

- يا أستاذ جوده يا محترم . . أنا عارفه من زمان إن ما عندكش
قمصان . وعشان كده عملت جمعية . . ويوم الخميس الجاى إن شاء
الله . . حنسافر مع بعض بور سعيد ونشترى الحاجة اللي نقصاك . .
فهمت بقه؟

من الخميس إلى الخميس . . أيام ملونة منفعة . . لكن الأستاذ جوده رجل عاقل ، كان يحلم بيوم الخميس هذا صحيح ، ورغمًا عنه كانت ابتسامة حنونة شقية تقفز إلى شفتيه عندما يرى نفسه وهو يتجول فى ردهات الإدارة بقميصه الحديد الأنيق ، هذا صحيح أيضًا . . لكنه فى نفس الوقت ، كان يدرك جيدًا أنه سيدفع لمدة عام ، سيظل عامًا كاملاً يقطع جزءًا من مرتبه ثمنًا لهذا اليوم ولذلك . . فكر الأستاذ فى كل شىء لم يترك شيئًا للصدفة . ماذا سيشتري من بور سعيد؟ أين سيذهب بالضبط؟ كيف سيتعامل مع رجل الجمر؟ بل . . وفى أى جيب سيضع نقوده وهو ذاهب؟ عشرات التفاصيل الدقيقة ، فكر فيها الأستاذ وقتلها بحثًا حتى أصبح كل شىء جاهزًا فى رأسه وبقيت ساعة التنفيذ .

فى صباح الأربعاء أعلن الأستاذ لزملائه فى إدارة المتابعة أنه لن يأتى غداً ، وعندما سألوه عن السبب ، راح يقلب فى الملف الموضوع أمامه على المكتب ثم قال من طرف فمه وكأن الأمر لا يعنيه :

« لا والله . . الحقيقة أصلى بافكر أروح بور سعيد بكره . . » .

وبعد أقل من نصف ساعة ، كان خبر ذهابه إلى بور سعيد قد ذاع بين الموظفين ، وانهارت الطلبات على الأستاذ ، طلبات من كل نوع . . قمصان . . جوارب . . أدوات تجميل . وكان الأستاذ يعلم جيدًا أنه لن يشتري هذه الأشياء ، ولكنه بالرغم من ذلك لم يرفض شيئًا من أحد ، كان يستمع إليهم ثم يقول بلهجة مهمة أو حشته كثيرًا :

« إن شاء الله . . ربنا يسهل وافتكّر » .

وكم كان سعيداً عندما دخل إلى مكتب الأستاذ علوبة - مدير الإدارة - وسأله إذا كان يريد شيئًا من بور سعيد .

وتزايد سرور الأستاذ عندما قال له رئيسه بصوت لين جميل : « طبعاً عاوز سلامتك يا جوده . . الحقيقة فيه نوع معين من الشكولاته المدام بتحبه قوى . . أنت عارف الستات يا جوده . . » ثم أرسل علوية ضحكة خفيفة أتبعها بنحنة قوية أعاد بها وقاره .

كان الأستاذ جوده شخصاً مهماً فى يوم الأربعاء ولكنه فى الليل عندما دلف إلى فراشه ، انتابه إحساس غامض ، إحساس أحرق بغير منطق أو سبب ، أوحى له بأنه لن يذهب إلى بور سعيد . كان كل شيء جاهزاً . نقوده معه حتى الأسعار عرفها ودرسها . وغداً يذهب . . ماذا يمنع؟ لكن النزعة السوداء ظلت توسوس له ، وبصعوبة جمة تخلص الأستاذ من هواجسه ونام . وعندما استيقظ فى الصباح ، اعترته بعض الرهبة وهو يعد النقود للمرة الأخيرة ، ثم طوى الرزمة بعناية وأدخلها فى جيب البنطلون ، وتأكد من وصولها لقاع الجيب . وعندما أخذ الأستاذ وزوجته مكانهما فى الأتوبيس المتجه إلى بور سعيد ، تمتت بثينة بقراءة فاتحة الكتاب . وما إن وصلا إلى بور سعيد حتى بدأ الأستاذ فى تنفيذ الخطة الموضوعة .

كان قد دون الأشياء المطلوبة فى ورقة صغيرة ، أما أسماء المحلات فكانت مسجلة فى ورقة أخرى منفصلة ، وبفضل هذه الورقة لم يتجول الأستاذ وزوجته كثيراً ، وقبل أن يتتصف النهار كانا قد فرغا من الشراء .

بضع أدوات منزلية لبثينة : أما الأستاذ جوده ، فكان قد حصل على أربعة قمصان جديدة ، كان أحدها مقلماً بخطوط طولية حمراء وبيضاء ، وهذا القميص بالذات كان أنيقاً بشكل مؤثر .

وعندما توارى الزوجان فى مدخل إحدى العمارات الأنيقة ، خلع

الأستاذ قميصه الأبيض - للمرة الأخيرة - واستبدله بقميص جديد، بينما
نُجحت بثينة في أن تخفى قميصين آخرين في طيات ملابسها، وهكذا
بقى قميص واحد أمسك به الأستاذ وصار الاثنان مستعدين لدخول
الجمرك، وكان عليهما أن يقفا في مؤخرة طاوور طويل من المشاة في
انتظار التفتيش .

عندما اقترب دورهما من موظف الجمرك، عندما أصبحا على بعد
خطوات من التفتيش مالت بثينة على زوجها وهمست في أذنه، ولم
يلبث صوت الأستاذ جوده أن خرج وجلا مضطرباً، بسملة الأستاذ
أولاً . . ثم جعل يردد في خشوع صادق - وهو يحمل قميصه الجديد :

«وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً . فأغشيناهم فهم لا
يبصرون . فأغشيناهم فهم لا يبصرون . فأغشيناهم . . فهم لا
يبصرون» .

سيدى المسئول عن تكييف القاعة

سيدى المسئول عن تكييف القاعة . . احترس الآن أبدأ الحكاية :
وحكايتى يا سيدى المسئول حكاية عربية جلقة لا تعرف آداب
السلوك . كل السادة والسيدات الحاضرين فى القاعة سوف يصيبهم
الغضب عندما أتكلم . . سوف يشتعل الغيظ فى قلوبهم ولذلك ،
أرجوك ، يا سيدى المسئول عن تكييف القاعة أن تضغط من حين لآخر
على مفتاح التبريد .

وأنت يا سيدى مهندس الصوت . . .
عندما أبدأ الكلام ، حاول أن تصرف عني انتباه السامعين ، أطلق
عليهم يا سيدى مزيداً من الموسيقى الصاخبة .

أما أنت يا عزيزى البهلوان . . فعليك بإضحاك من بغضب منهم .
انبطح على الأرض أو امش على يديك . وإذا استدعى الأمر يا بهلوان ،
أطلق من حنجرتك نهيقاً كالحمار . . المهم ، أن تعم الفرقة ويتبدد
الغضب .

سيداتى سادتى

أصل الحكاية هو سوء الحظ ، النحس اللعين الذى يخرج إلى الدنيا

طفلاً بريئاً بجسد أو وجه مشوه، القدر العاشم الذى يفجع الأب الطيب بموت ابنه الشاب، الذى يزرع السرطان فى جسد الرجل الناجح .

قدر أسود كهذا، هو الذى جعل «جنين» مدينة عربية . . ولو أن مدينة كجنين وجدت فى سويسرا، لو أن حداثق البرتقال فيها كانت مغطاة بجليد أوروبا الناصع، لو أن مساجدها الكثيرة كانت كنائس كاثوليكية، لو أن أهل جنين خلقوا من جنس أبيض راق . . أستغفر الله العظيم، لو لم تعرف جنين تلاوة القرآن وإقامة الصلاة لما حدث لها ما حدث . . لكن القدر الأعمى خلق جنين مدينة عربية ولم يكف بهذا الهوان، جعلها أيضاً مدينة فلسطينية، ثم - إمعاناً فى الذل - تخير لها القدر مكاناً على الضفة الغربية، تماماً على خط الحدود مع الدولة اليهودية المكرومة . ويشهد الله العلى القدير، كما تشهد تقارير المخابرات أن أحداً فى جنين لم يكن من أهل الشغب . . مدينة صغيرة جنين وبیت كبير، والناس ودعاء .

فلاحون طيبون يتقنون زراعة البرتقال، ولا يعرفون غيرها .
يحرصون على صلاة الجمعة ويعشقون العرقى .

ولم يحدث أيضاً، أن سمع لأهل جنين صوت عال أو كلمة قبيحة . . حتى فى أيام الحمق عندما كانت الأفكار السوداء عن إسرائيل تسرى كالسموم فى شرايين المنطقة العربية؛ عندما كان العرب يدمنون الحديث عن تحرير فلسطين والاشتراكية والقومية . . . إلى آخر هذه السخافات .

حتى فى تلك الأيام ظلت جنين كما هى، وظل أهل جنين - كما كانوا دائماً - منصرفين إلى البرتقال، لا يعرفون سواه، يزرعونونه ويحصدونه .

والحق أن هذا السلوك الطيب قد أثر كثيراً في قلوب المسئولين اليهود، حتى إنهم فكروا أكثر من مرة في مكافأة عظيمة يقدمونها إلى جيرانهم الودعاء .

وكاد هذا أن يحدث فعلاً . لولا الوقائع المؤسفة، المؤسفة للغاية، التي شهدتها جنين في فصل الربيع من عام ١٩٦٧ .

سیدی المسئول عن تكييف القاعة . . درجة من التبريد .

سأقول ما حدث دفعة واحدة . . في شهر مايو ١٩٦٧ قررت جنين أن تدخل الحرب . وتصوروا أنتم يا حضرات، زارعو البرتقال يحملون السلاح ليحاربوا، ويحاربوا من؟ دولة إسرائيل . . لا شك هو القدر الساخر الذي يدفع المرء إلى حتفه باختياره .

.. انبطح يا بهلوان .

يبدأ يونيو ٦٧ والأزمة تشتد وتستحكم، والحرب حديث دائر . وفي يوم مهيّب كالشمس شامخ كالجبل، جذب الجيش الأردني نفساً عميقاً، ثم طوّح بذراعه القوية . . واقتحم «جنين» . وهكذا كانت الخطوة، لأن جنين في المواجهة لا بد أن يحتلها الأردنيون ليدافعوا عنها . . ولن تنسى «جنين» هذا اليوم أبداً «مرحباً بأبطال الأردن» اللافئات العريضة تتدلى في زهو وتنتظر . ومجالس الرجال منعقدة في الطرقات الضيقة، جلس بعض منهم وعجز البعض الآخر عن الجلوس من فرط الלהفة، فهم يصعدون إلى الربوة العالية ويرجعون بأنباء منفعة، «باقي نصف ساعة ويصل الأبطال» . . «لعلهم الآن على المشارف» أما النساء، فقد انهمكن في ذلك اليوم كما لم ينهمكن من قبل، وكيف لا؟ والأبطال قادمون من سفر صعب، لا بد وأن يجدوا

شيئاً يأكلون و شيئاً يشربون وتمخض هذا الشيء فولد عشرات الشطاطر
والفطائر والطواجن وكسافة فصائل الأطعمة، وصفوقاً طويلة من
زجاجات العرقى الرابضة فى أحزمة الخوص .

حتى الأطفال فى جنين، كانوا يترقبون وصول الجيش الأردنى فى
شغف عظيم وللأطفال أسبابهم الخاصة، فهى المرة الأولى التى
يشهدون فيها جيشاً حقيقياً لحمًا ودمًا وبنادق، جيشاً تبدو بجواره
جيوش مترو جولدن ماير، كمجموعة من اللعب القديمة . . والرديئة
أيضاً .

ما أجمل هذه الرقصة يا سيدى المهندس .

وصل الجيش الأردنى فى الساعة الواحدة . ظهرأوما إن ظهر
الجندي الأول على مدخل جنين، ما إن لمح الناس زيه العسكرى
الأخضر وشارته النحاسية اللامعة حتى كانت الإشارة، إشارة سحرية
أطلقت المشاعر المنتظرة منذ الصباح - وفى هبة واحدة وأن واحد -
اندلعت الزغاريد وانفجر الهتاف والأناشيد والصياح . أمطار صادقة
من ورود التحية ألقيت على الرؤوس . . جاء الأبطال ليدافعوا عن
جنين، وجنين كلها تحتضن الأبطال، الكل يغنى ويلوح ولا يخجل
أحد من إحساسه فباللحظة صادقة لا تعرف الوقار، حتى المشايخ
والوجهاء كانوا يهتفون، كل فرد فى جنين كان حريصاً على أن تصل
تحيته . هو بالذات - إلى المقاتلين، وكأنها التحية الوحيدة، والحق
يقال . . كان الجيش الأردنى جديراً بهذه الحرارة، تشكيلات عسكرية
مهيبه، أسلحة سوداء غاضبه، والرجال رجال . . أجساد ضخمة
مفتولة، وشوارب عربية يقف عليها الصقر مطمئناً، كان المشهد كله
ينطق بالقوة . ولما ظهرت أول دبابة صار الأمر فوق الاحتمال، فاندفع

الناس يتسلقون جذران الصلب، وانفتحت رأس الدبابة وأطل المقاتل ضاحكاً يتلقى العناق والقبلات .

ولم تمض بضعة دقائق حتى غمز الطابور العسكري تماماً، وانجرف الجنود مع الأهالي في مظاهرة شعبية عارمة، وتسابت الأعناق مخلصاً لتحمل أبطال الأردن وطافت الجموع بطرقات جنين ثم انتهت إلى صحن الجامع الكبير (أكبر مساجد جنين) ولم يكن خطيب الجامع ينقصه الحماس، ووجد الرجل نفسه في مناسبة لا تتكرر فنظم الصفوف، وأقام صلاة خاصة لم يهتم أحد بصحتها الدينية، ثم ألقى على الجماهير خطبة مشتعلة ظل - بعد ذلك - يذكر مقاطع كاملة منها لأولاده . . تحدث الخطيب عن المهاجرين والأنصار، ثم انتقل إلى الجهاد في الإسلام، وعندما وصل إلى الآية التي تقول «إن تنصروا الله ينصركم» . . كان الأمر قد أفلت من يده وانقلبت جماهير المصلين إلى بركان حقيقي يهدر بالهتاف والتكبير .

. . كان يوماً مخلصاً في حياة جنين، وفي المساء لم يفتر الحماس ولكن هدأت قوته، فاجتمع القائد الأردني وكانوا يسمونه الضابط عظيم (هكذا كانت رتبته) اجتمع الضابط عظيم بالمشايخ والوجهاء في جنين لبحث معهم ترتيبات الدفاع عن المدينة، وتحدث المجتمعون عن بضعة مدافع قديمة موجودة على الرهوة العالية، ثم انفض الاجتماع سريعاً، وخرج المشايخ بوجوه راضية، يطمنون الناس ويبشرونهم بالنصر المبين .

وهكذا - يا حضرات - عاشت جنين يوم ٤ يونيو ٦٧، في تلك الليلة - ليلة ٥ يونيو - نعم أهل جنين وكان لا بد أن ينعموا بنوم هادئ منتظم الأنفاس . . ولما اندلعت الحرب في الصباح، تلقى الناس أنباء القتال

بروح عالية وتفاؤل راسخ وهل كان لأحد أن يفزع؟ هل كان لأحد أن يفكر - لحظة واحدة - في نصر منقوص ، أو تراجع؟ كيف واليوم نصر؟ اليوم نصر - يد الله فوق أيدينا - سنسحقهم واليوم أيضاً ، ستهبّد دولة اليهود ، ويتشتتون من جديد في أنحاء الأرض . . واقع هذا لا ريب فيه وإلا؟ فماذا يعني عبد الناصر؟ ماذا يعني أبطال الأردن ، المتعطشون لتمزيق اليهود؟ بل وكيف نفسر بيانات القاهرة وطائرات إسرائيل المتهاوية كالذباب؟ هل يعني كل هذا إلا شيئاً واحداً . . وساعة كاملة في صباح ٥ يونيو ، من التاسعة إلى العاشرة ، ساعة وردية - من رحمة الله - انتصرت فيها القلوب على إسرائيل . . وأى نصر كان ، نصراً نهائياً قاطعاً ، نصراً قديماً عزيزاً ضم رائحة حطين وسيف خالد إلى تكبيرات الفتوح الأولى . . وتمر لحظات السعادة كالأحلام ، سريعاً ، وفي جنين تدق الساعة العاشرة فيحين وقت الذهول .

اضغط على مفتاح التبريد إلى النهاية يا سيدى . . يكاد العرق يتصبب .

بدأ الأمر بكلمة تافهة ، شائعة سخيفة لا يمكن لأحد أن يرددها بغير أن تلحقه السخرية ولكن - يا للعجب - سرت الشائعة وامتدت واشتدت حتى تحول الهمس في طرقات جنين إلى أصوات واضحة مشفقة . . «الأردنيون ينسحبون» . . وظل الناس حتى اللحظة الأخيرة بين مصدق ومنكر ومستريب حتى ظهر الضابط عظيم ، وجمع من تيسر من المشايخ ، ثم أخبرهم بالأوامر الجديدة . . «سينسحب الجيش الأردني من جنين» . ولما سأل الناس عن السر ، أجاب في اقتضاب «تغيرت خطة الدفاع» .

-ومن يحمى جنين يا سيدى؟

وهنا كاد صبر القائد أن ينفد .

- أؤكد لكم أننا لسنا بلهاء ، نحن نعرف جيداً ما نفعله ، سننسحب نحن ثم نأتى إليكم فرقة كاملة من الجيش العراقى ، لتدافع عن المدينة .
وللمرة الثانية والأخيرة . انتظم الأردنيون فى طوابيرهم الصارمة ، وحملوا أسلحتهم الغضوب . . ثم بدأوا فى الانسحاب .

ونقول ما لنا وما علينا . فبفضل براعة الضابط عظيم وخبرته الطويلة ، تم الانسحاب من جنين بسرعة ونشاط ملحوظ ، ووقف أهل جنين ينظرون ، واستسلموا جميعاً لصمت عميق ، كان مريحاً وبلغاً فى آن واحد ، وكانت جنازير الدبابات المنسحبة تحتك بالأرض فتحدث حشجة كثيبة ، ومن حين لآخر (شر البلية) كانت نسمة عابثة تهب على المنسحبين فتحرك فوق رؤوسهم لافتة عريضة من لافتات «مرحباً بأبطال الأردن» .

سيداتى وسادتى

ينبغى أن أؤكد أن حكايتى بريئة من الغرض السيئ والقول المشين ، وإذا كان أهل جنين لم يفهموا - حتى هذه اللحظة - لماذا انسحب الجيش الأردنى وتركهم فى صباح ٥ يونيو ، فطبيعى ألا يفهموا ، لأن للعسكرية أصولها وقواعدها ، التى لا بد وأن تمتنع عن عقول السذج من زارعى البرتقال . . ومهما حدث أو يحدث ، فحاشا لله أن يكون الضابط عظيم قد كذب أو أخطأ ، كما يشهد الله أن كل ما تنبأ به الضابط عظيم قد تحقق ، تماماً كما تنبأ به . . فلم تمض ساعة واحدة على الانسحاب الأردنى ، حتى أقبلت الدبابات العراقية ، جاءت لتدافع عن جنين ، طبقاً للخطة ولكن يبدو أن خطأ ما قد وقع ، فما إن اقتربت الدبابات العراقية من جنين ، حتى أطلقت قذائفها .

خطأ يسير يحدث دائماً في الحروب، جعل الدبابات العراقية تقصف جنين . . حتى سوتها بالأرض، ثم اكتمل الخطأ الهين، فنزل من الدبابات العراقية جنود يهود دخلوا جنين ولم يخرجوا منها إلى اليوم .

وفي مساء ٦ يونيو ٦٧ . . عندما عين الميجور «ليفى» حاكماً عسكرياً لمدينة جنين أحب أحد المشايخ أن يداعبه، فروى له حكاية الدبابات العراقية، ولما عرف الميجور «ليفى» أن أهل جنين كادوا أن يستقبلوا دباباته بالورود، أخرج من فمه الغليون وشد قامته إلى الوراء، ثم انفجر ضاحكاً حتى سعل ودمعت عيناه .

سيدى المستول عن تكييف القاعة

سيدى مهندس الصوت

عزيزى البهلوان

أشكركم جميعاً..

ها قد فرغت من حكايتى العربية الجلقة ولا يزال السادة والسيدات الجالسون فى القاعة . . . ينعمون بالتكييف .

أمر إدارى

اسمه بالكامل «عم إبراهيم» . . وبرغم الفقر والوجه الشاحب يتدلى كرش مفاجئ من بين البالطو المهترئ . . وبينما يعتبر الكرش فى الأوساط الراقية مرضاً علاجه الرجيم والرياضة . . يرى فيه التجار دليلاً ملموساً على نعمة يرجى دوامها أما الفقراء فتظل كروشهم أوراًماً يحملونها بلا سبب واضح .

وبالنسبة لعم إبراهيم فقد أفسد عليه الكرش الوقح كسوة كاملة أعطاهها له أطباء المستشفى فى العام الماضى .

وتقول السجلات إن العامل محمد إبراهيم وظيفته . . «عامل نظافة» بمرتب عشرين جنيهاً وثلاثة قروش لا غير . . ولأن عم إبراهيم رجل طيب ويشوش ولأنه كان نظيفاً - والنظافة أهم شىء - فقد اختاره الأطباء لصنع القهوة والشاي بدلاً من عم صالح الذى أحيل للمعاش .

قد تصبح الحياة محتملة أحياناً . . فعندما يتفرغ عم إبراهيم لعمله الجديد (القهوة) و(الشاي) يكسب ما يزيد على ضعف مرتبه الأسمى . . يستطيع أن يدخن كما يريد . . أن يشتري لأولاده - أكبرهم فى العاشرة - جلابيب وأحذية . . أن يتتاع قطعة صغيرة من الحشيش

ليصاحج زوجته طويلاً . . بل استطاع عم إبراهيم - حدث هذا مرتين -
أن يستقل تاكسيًا بالنفر إذا تأخر عن موعد العمل .

ويعد عم إبراهيم على أصابعه الغليظة «خمسة أعوام من الستر»
والستر ألا يتسول الإنسان . . «نعمة نحمد الله عليها» . . ومهما فعل
فى ليلة الخميس - سهرة زوجته المفضلة - كان عم إبراهيم يحرص على
صلاة الجمعة . . وتعود أن يذهب إلى الزاوية نظيف البدن والملبس
طيب الرائحة .

وعندما تبدأ الخطبة . . كان عم إبراهيم يدخل رأسه بين يديه
ويخشع . . وذات يوم بعد خطبة حارة عن الزكاة أحس إبراهيم بقلق
مذنب ثم قرر أمراً فى نفسه . . وتعود بعد ذلك أن يختار مريضاً معدماً
من مرضى المستشفى ويصنع له القهوة بالمجان .
كان عم إبراهيم رجلاً طيباً .



تعود خطيب الزاوية أن يقول «دوام الحال من المحال» .

منذ بضعة شهور تسلم العامل محمد إبراهيم أمراً إدارياً بنقله
للعمل فى بوابة المستشفى ، وقال له رئيس العاملين وهو يسلمه الأمر
«مبروك يا إبراهيم . . لقد أصبحت موظفاً بالأمن» . . وأحس
إبراهيم بهلع غامض . . ويستمر المشهد فيتسلم إبراهيم معطفاً من
الصوف الأسود وحذاءً عسكرياً ضخماً ويقف كل يوم على بوابة
المستشفى يمنع الزوار من الدخول ويحى الأطباء الداخلين فى
سياراتهم . وخلال الشهر الأول ألحت على إبراهيم رائحة الشاى
والماء الساخن . . وكان لا بد أن يتوسل فأصبح يكثّر من الحديث عن

مرض أبنائه وتخلفهم فى الدراسة . . وابتسامات الأطباء فاترة «ربنا يعينك يا عم إبراهيم» .

وفى الشهر الثانى . . ذهب إبراهيم إلى رئيس العاملين وأنهى توسله بكلمات ثلاث «أريد أن أرجع» . . وفى هدوء تمتد يد رئيس العاملين لترفع النظارة عن عينيه ويخرج صوته لعيناً «هذا أمر إدارى يا إبراهيم» .

وتغير إبراهيم كثيراً فى الشهر الثالث . . لم يعد يحيى أحداً من الأطباء الداخلين فى سياراتهم . . تعود أن يجلس على مقعده أمام البوابة ويحكم قفل معطفه الأسود واكتست ملامح وجهه جموداً وصارت نظراته قوية لا تلين .

ويقول الذين حضروا المشهد إن السيدة العجوز كانت تريد دخول المستشفى لزيارة ابنها المريض . . ولأنه لم يكن مسموحاً بالزيارة فى تلك الساعة من الصباح . . ولأنها ألحت عليه كثيراً . . فقد قام عم إبراهيم واقترب منها . . ونظر إليها ملياً . . ثم انهالت ضرباته .

لحظة الكسر

(١)

صاح بائع الجرائد وتغيرت الإشارة وانطلقت سيارة سوداء بسرعة وكادت أن تدهم سيدة بدينة محجبة ، واشتبك زوج السيدة مع سائق السيارة فى مشاجرة عنيفة . . وكأنه يرى كل ذلك من وراء زجاج سميك بارد ، وجوه المارة وضجيج السيارات وألوان النيون على واجهات المحال ، كل شىء حوله كان يختلط فى خلفية مشوهة وبعيدة . . كل شىء كان خارجاً عنه . توقف ذهنه فى لحظة واحدة . لم يتجاوزها . لحظة باهتة راكدة تتخللها غيوم وتهاويم ، تماماً كنتك اللحظة التى يمر بها ذهنه قبل أن يغشاه النعاس ، فى ذلك الجزء الصغير المتناهى فى الصغر من الزمن الذى يفصل بين اليقظة والغيوبة . . عندما انتبه كان يعبر «ميدان سليمان» وكانت الساعة قد تجاوزت الثامنة وكان أصحاب المحلات يغلقون الأبواب بصفائح حديدية مستطيلة كلها مطلية باللون الرمادى . لفتح وجهه هواء بارد وفكر فى مكان يذهب إليه ، تذكر بارأ صغيراً فى عماد الدين كان يشرب فيه أيام الجامعة ، هناك لن يلقى أحداً يعرفه ، استدار ومشى خطوات فى اتجاه البار لكن هاجساً سخر فى ذهنه بأنه يبدو الآن كممثل ردىء فى فيلم لحسن

الإمام، أبطأ السير وتردد قليلاً ولكنه عاد وأكد لنفسه: أنه فعلاً يحتاج إلى كأسين وبعض التفكير.

(٢)

الوقت مبكر والمكان خال إلا من بضعة رواد التفوا حول موائد متفرقة وهو دلف بهدوء إلى أقصى القاعة بغير أن ينظر لأحد حتى لا يضطر لإلقاء السلام، والإضاءة ضعيفة وغطاء المنضدة مهترئ وقذر والمكان يفوح برائحة رطبة تضايقه والنادل نوبى عجوز أسنانه مهشمة ويبتسم بأدب والبراندى الدوبل والترمس والبيبسى تكسر حدة الكحول والكأس الأولى والثانية والثالثة وسرت إليه الدهشة. تملكته دهشة حقيقية لكنها ليست عابرة كتلك التى تصيبه كل يوم. بل شعور ثقيل بعدم الفهم عرفه من قبل لما رأى الموت أول مرة. يومها كان أبوه ممدداً على السرير تغطيه إلى الصدر ملاءة بيضاء وكان فمه مغلقاً، وعيناه مغمضتين وبدا وجهه عادياً كأنه نائم، الفرق الوحيد بينه وبين النائم كان بعض الارتداد، الارتداد الخفيف للغاية على الوجه الذى لا يمكن أن يلحظ لأول وهلة وقد لا يلحظ مطلقاً، هذا الارتداد كان هو الموت، وشعر يومئذ كما يشعر الآن، أحس بأنه لا يفهم وأنه حزين، وأنه هزم فجأة وبغير مبرر، وأن هزيمته ثقيلة وقاسية ونهائية وأن البقايا فى لحظة الكسر تصدر صوتاً عالياً ثم تتناثر مرة واحدة أخيرة وتنتهى.

(٣)

فى الصباح البارد كان ينتظرها، يقف بجوار محطة البنزين ويدخل يديه فى جيوب المعطف ليشعر بالدفء، ويظل يتطلع إلى أول الشارع

حيث سوف تظهر وتأتى هى دائماً متأخرة ضاحكة معتذرة وبطل
شعرها القصير يهتز وهى تمشى بسرعة، هل يعرف أحد سواه سر تلك
الخصلة. الخصلة الصغيرة تماماً التى تتدلى على جبينها تخفى ندبة من
أثر جرح قديم. عندما تزوجا قضيأ أياماً فى بنسيون رخيص فى
الإسكندرية وقالت له وهما عائدان:

- إذا سألتنا الأصدقاء سوف نقول إننا نزلنا فى (فلسطين) وأجابها -
ضاحكاً - بأن الأغنياء لا يذهبون إلى الإسكندرية فى مثل هذا البرد لأن
أمامهم الأقصر وأسوان.

(٤)

هذه الحروف الصغيرة السوداء المتشابكة لها عيون! عيون حقيقية
تحدق وتنتعش بالفرح أو تغيم بالحزن وهى الآن تتأمل فى تردد وقلق
وشىء ما يتأرجح - بنفس القوة - بين السخرية والإشفاق.

حييتى ناهد...

اليوم ٢٠ مايو!! أتذكرين؟! إننى يا حييتى...



لا يتذكر الآن تماماً كيف صعد الدرج ولا كيف وصل إلى شقته،
لكنه يذكر بوضوح أنه وجد الصالة مضاءة ورأى على المنضدة عشاء
كانت قد أعدته له وغطته بورقة جريدة (وكان فيها صفحة الرياضة) ثم
اتجه إلى غرفة النوم وفتح الباب بهدوء وضغط مفتاح النور. كانت
نائمة وكان الصغير قد تكور جسده والتصق بها ودس رأسه بين ذراعيها
ومدى يده وهزها فأفاقت وابتسمت لما رأيته، وأشار لها أن تنهض

فنهضت وتبعته إلى الخارج بخطى خفيفة لئلا توقظ الصغير ثم جلست على الأريكة فى الصالة ، كانت ترتدى قميص النوم الوردى ذا الأكمام الطويلة وقالت له بنبرة عادية وهى لم تفق تماماً من أثر النوم :
- إزيك !

ظل صامتاً واستدار ومشى ببطء حتى قارب مدخل الشقة ثم عاد أيضاً ببطء وقال فجأة وهو ينظر إلى الأرض :
- ناهد . . إحنا لازم نتطلق !

ونظرت إليه ورأى فى عينيها كل شىء ، كانت نظرتها ثابتة مستريية ومرت لحظة ثم قالت بصوت متماسك (وكأن ما قاله عادى ومألوف ويحدث كل يوم وكل ما يضايقها هو حدوثه المتكرر) .
- خير يا سيدى ؟ !

ودس يده فى جيبه وأعطاهما الخطاب (فعل ذلك فوراً وكأنه ينتظر سؤالها وبدت سرعته طفولية على نحو ما) وتمتمت هى بشىء وهى تبسط الورقة المطوية وقرأتها أو أنها تظاهرت بالقراءة لحظات لتمنح نفسها بعض الوقت ، ثم تمالكت نفسها ووضعت الخطاب بهدوء بجانبها على الأريكة وتنهدت وقالت ما معناه : إن نوعاً من سوء التفاهم قد حدث وأن الأمر ليس كما يتصوره وأنه يجب أن يعطيهما فرصة لتشرح الموضوع بالتفصيل ، وبعد ذلك يحكم عليها ثم انقطع كلامها لأنه صرخ فجأة بنبرة عالية محشجة بدت غريبة له نفسه ، قال لها : أنت مومس أو عاهرة أو شىء كهذا لا يذكره بالضبط ، وسنحت فرصة أخيرة فرمقته وصاحت بغضب بالغ :
- أنا لا أسمع لك . .

وأسكتتها اللطمة الأولى، أصابت رأسها بقوة فمالت وارتطمت بحاجز الأريكة الخشبي الداكن ولطمها على وجهها مرة ومرة أقوى ثم قبض يديه وانهاه على وجهها ورقبتها وصدرها وأخذ يركلها بقدميه فى ساقيهما العاريتين ولم يتوقف عن الضرب حتى ملح خيطاً رفيعاً من الدم ينسال من الأنف، وتطلع إليها لاهئاً، لم تكن تبكى وأمالت رأسها إلى الأمام ببطء فتدفق الدم على قميص النوم وقالت بعد لحظات بصوت ميت تماماً:

- يمكن أنصرف الآن؟!

لم يرد وكان قد أعطاها ظهره ولم يلبث أن لمحها بطرف عينه وهى تنهض ثم سمع باب غرفة النوم يغلق، ولم يذكر كم مرة أحضرها فى تلك الليلة، ثلاث أو أربع مرات، وفى كل مرة كان يفتح الباب ويضئ النور فيجدها راكدة بجوار الصغير وقد أغمضت عينيها وكان يعلم أنها مستيقظة لكنه مع ذلك كان يهزها وكأنه يوقظها ويدهشه الآن كثيراً أنه كان يوقظها برفق. كان يد أصبعه ويضغط على ظهرها ضغطة رقيقة وكأنه يوقظها لأمر عادى فى ليلة عادية، ويدهشه أكثر أنها كانت فى كل مرة تفتح عينيها وتلتفت وكأنها تستيقظ ثم تنهض بهدوء وتتبعه إلى الخارج، كانت تستطيع أن ترفض أو تصرخ أو تتشاجر أو تعترض أو حتى توقظ الصغير لكنها لم تفعل، كانت كل مرة تتبعه، تمشى وراءه كحيوان صغير أليف حتى تصل إلى الأريكة فتجلس وتطرق برأسها وبغير أن تتكلم كان يهوى بيده عليها من جديد وكان جسدها عندئذ يتقلص من الألم وتصدر عنها أنات مكتومة خافتة لكنها لم تكن تبكى، لم تدمع مرة واحدة، لم تكن تتقى ضرباته بيديها، كانت تستسلم له تماماً حتى يفرغ ويبتعد عنها لاهئاً فتسحب من جديد إلى الحجرة، ومن

جديد يدخل إليها ويحضرها ويضربها، وفي المرة الأخيرة، لما جلست أمامه لم يضربها. راح ينظر إليها وأحست هي فرفعت رأسها إليه، كانت نظرتها قد صارت فارغة تمامًا وكأنها لا ترى وكانت الكدمات تغطي معظم الوجه وكان بعض الدم متجلطًا تحت الأنف وكان جرح صغير حديث تحت العين قد بدأ ينزف وتراجع هو خطوة واستدار ومشى حتى واجه النافذة المغلقة ثم انحنى فجأة وبدا وكأنه يراقب شيئًا ما على الأرض ثم وضع يده على مقبض النافذة وبسط اليد الأخرى على الزجاج وأشاح بوجهه بعيدًا وزم شفتيه محاولاً لكنه فشل وأجهش بالبكاء.

لاتينى ويونانى

«مطلوب مدرسة لغة فرنسية . لطفل عمره سبع سنوات . . المرتب مائة وعشرون جنيهًا شهريًا . . المقابلة ٦ شارع غالب مدينة المهندسين . . من ٥ : ٧ مساءً» .

بعد نصف ساعة كادت أن تيأس ، ظل سائقو التاكسى واحدًا بعد الآخر يعبرونها بنظرة لا تبالى ، سادها شعور هو مزيج من الملل والقلق والإرهاق . لماذا يرفضون الوقوف . . ربما بدا لهم ثوبها الأبيض متعاليًا بعض الشيء ، ابتسمت . . تذكرت مقالاً كانت قد قرأته عن ردود الفعل . . من جديد لوّحت لتاكس مقبل ، هذه المرة راحت ترجوه بعينيهما ، للحظة بدا لها ذلك مضحكاً وإن لم يخل من تأثير فقد توقف السائق على الفور . . «مدينة المهندسين - يا أسطى لو سمحت» . عندما تحركت السيارة كانت ساعة يدها تحذر من السادسة .

بعد دقائق كان السائق يعبر بها كوبرى الجامعة ، نقلت جسدها النحيل حتى جاورت النافذة اليمنى للسيارة ، كانت جموع الطلاب تعبر الكوبرى فى الاتجاه المضاد . . لا شك عائدون من إحدى المحاضرات المسائية أو ربما امتدت بهم جلسة الكافيريا كما كان يحدث كثيراً! أحست وكأنها تبسم ، انساب داخلها إحساس من الأسى المتمع

وهي تسترجع أياماً ووجوهاً . . في يوم السبت ١٨ أكتوبر منذ خمس سنوات كانت رحلتها الأولى إلى الجامعة . . ما زالت تذكر كيف أيقظتها بنفسه ذلك الصباح . . كان «بابا» قد أعد كل شيء . . «أحب أشياءك الصغيرة الفتاة» . . كانت تقول له .

يومئذ لأول مرة مذ كانت طفلة . . أراد أن يصفف لها شعرها ، كانت نبراته تتعثر خجلاً وهو يطلب إليها ، ضحكت وأسلمت له رأسها . . وتظل تذكر كيف أسرف حينئذ في تزيين الخصلات حتى اضطرت ضاحكة لإعادة التصفيف ، بينما كان هو يتمتم معتذراً . . «مع السلامة يا أستاذة» . . قال لها مودعاً . . واستدارت هي لتنتهي لحظة منفعة .

لم يكن الأب جامعياً ، كان الفقير قد ألحقه بعمل مبكر ، وطويلاً . . طويلاً . . حلم بيوم حصولها على الليسانس ، فلا عجب أن مات قبله بشهور .

لفتحها برودة من الخارج . . مدت يدها وأحكمت قفل الزجاج . . ألقت برأسها وراء فحفّ الفستان حقيقتاً ذكرها بصاحبته . . جارة لها تعتنق الخير والنميمة . . شرعت تحلل مشاعرها في تلك اللحظة ، ماذا تعني لها الوظيفة؟ «١٢٠٠ جنيهاً شهرياً» جاء رد السؤال حاراً واشتركت في الإجابة عليه مجموعة من الملابس الداخلية المهترئة . . الجوارب المثقوبة . . وعدد لا ينتهي من أنصاف النعال . . كما كان رد السؤال يمزج دعاء الأم الفجرى الصادق . . بنحيب مقهور استسلمت له أختها الصغرى عقب لقائهما الأول برجال الأتوبيسات العامة . لا يعني لها المال سوى إشباع حاجتهما . . وكانت وحدها رسولتهما إليه ، أما هي . . فكان داخلها لا يآبه للأوراق النقدية .

قالت صديقة لها يوماً فى أسف صادق «أفسدتك القراءة» . .
ضحكت يومئذ من غرابة الرأى وإن كانت أحياناً لا تراء بالغ الحق . .
لم يفسدها الأدب وإنما أفسد عليها مذاق الأشياء . . هى متعة أكيدة أن
تصبو كسائر البنات إلى فيلا وسيارة فخمة يقودها زوج فارغ الجسم . .
ولا شك أن سرعة المفزعة الكهربائية وأزيز أجهزة التكييف يمنحان
سعادة من نوع ما، حرمها الأدب هذه السعادة، كان داخلها وحيداً . .
وحيداً، يوم شهدت حفل زفاف ريفى كادت أن تتقيأ . . كان الجنس
يسيل من كل شىء . . بدءاً من حشيش الرجال . . إلى لمزات النسوة . .
إلى تطرية الأفخاذ . . إلى طفلة الثامنة التى جعلت تتلوى شبقاً بعد أن
حزمتها أمها فى إعزاز . . الفرح مخلوق وحشى . . سوقى الملامح،
اندفاع عازمة، تجيش فى كل من خلق وما خلق . أما الحزن فكان شفافاً
نيلاً كالليل . . كالشئ كانت تعشقه وكان يسمو بها . . يرفعها إليه . .
وعندما تنساب تاسعة يتهوفن . . كانت تغمض عينها، وتتنظره . .
وكان يأتيها خالداً . . جدولاً عذباً يترقرق إليها بين صخور الجهل
والقسوة .

انتهت على صوت السائق «ها هو رقم ٦» . . منزل من ثلاثة طوابق
حديث العهد كما أكدت أكوام الرمال ومصفوفات الطوب الأحمر . .
كانت الثقة بنفسها أوهى من أن تعند بها فى موقف كهذا لكن هاجساً
لذيداً كان يؤكد أنها ستحظى بالوظيفة . . كما أنها ببساطة . . كانت
تجيد الفرنسية .

«شقة ١٥» ألقاها البواب فى رتابة وهو يشيح بوجهه . . سبقتها
كثيرات ولا شك . . فى فناء المنزل لقيها تمثال رخامى لفينوس . . كان
حجمه طبيعياً . . اقتربت منه . . تأملت . . جابت عيناها الملامح

النبيلة . . جعلتا تتحسسان الآلهة فى شوق من عرف وألف وأحب ،
كانت تهفو إلى الروعة لكن إحساساً شائكاً يشوب الجمال . . بدا لها
الوجه المقدس غريباً ، كان فى صمت الآلهة شىء لم تعهده ، خيل لها
أن بشفتى الربة انقباضة ما ، تعبيراً خاصاً غامضاً عميقاً . . كان ألماً تعجز
عنه آلهة الأحجام الصغيرة .

نقش رقم الشقة باللاتينية . . وفى خشب الباب دقت لافتة
صغيرة . . تعلن فى تواضع الثقة «محمد مصيلحى» مهندس . .
(يا محمد يا مصيلحى بك أبحرت عشرة أعوام بين السطور وأجيد
الفرنسية . . كما أن أمى قد أنهكتها طوابير الفاقة) .

ضغطت على جرس الموسيقى . . لم تمر لحظات حتى انفتح
الباب . . وبدلاً من الخادم النوبى ظهرت سيدة شقراء ساور جمالها
أصل أوروبى . . ثم قطعت به لكنتها فى الحديث .

. أتيت بخصوص الإعلان؟

تفضلى . . أنا مدام مصيلحى .

إلى جواره جلست أربع أو خمس فتيات . . طالبات عمل
بلا شك . . لم تتبين الملامح وإن كان الفقر يطل فى قحة ، أما هو فكان
طبيعياً أن يتصدر المجلس برغم جلوسه فى أقصى اليمين ، كان بديناً
بغير إفراط ، أو لنقل كان جسمه ممتلئاً بقدر يكفى لمنحه لقب «بك» ولم
يحدث أن واحداً من الناس قد نادى «مصيلحى بك» باسمه مجرداً . .
أو حتى مقروناً بلقب آخر غير لقبه المفضل فاصلة كأن يقول أحدهم
الأستاذ مصيلحى أو الباشمهندس ، لم يكن أحد يجروء على ذلك ،
يستوى فى ذلك الذين يعملون معه والذين لا يعرفهم ، والواقع أن هذه

الظاهرة لم يكن مردها إلى بدانته أو أناقته أو حتى حب الناس له ، بقدر ما كانت ترجع لكون مصيلحي «بك» رجلاً قوياً متمرساً بالقوة خبيراً بفنون السيطرة ، كانت له نظراته الآمرة وحركته المطمئنة الملكية حتى إنه كان يجهد في الإقلال من إيماءاته مع تزويدها ببطء حاسم ، أما نبراته فهيهايات كان الاضطراب قد زال عنها من قديم ، نعم كان «مصيلحي بك» رجلاً قوياً بحق حتى حذاؤه كان لامعاً سعيدياً . . «العمل . . العمل» ، «في هذا العالم . . الضعف والفناء لهما نفس المعنى» هكذا كان يردد . . وسرعان ما انتقل مصيلحي من حوارى السيدة زينب حيث نشأ إلى مدينة المهندسين ، وبرغم ثرائه السريع لم يكن لصاً ولا محتالاً ، فبعد أن حصل على البكالوريا رفض مصيلحي أن يدخل الجامعة . . ما قيمة الدراسة ؟ فضل أن يعمل بالتصدير والاستيراد ، مهنة مشروعة يقرها قانون الدولة ، كان مصيلحي واقعياً ، أدرك منذ البداية أن تغيير الأوضاع القائمة هو منذ قرون حلم يرادو الشعراء وأبطال الكتب التاريخية . . فليتركه لهم إذن ، فمن أجل التغيير يسجن الأبطال ويشردون أما هو فليس بطلاً ولا يريد أن يكون ، لا وقت لديه للبطولة ، كم سيعيش ؟ على أحسن تقدير قد يحيا ثلاثين عاماً أخرى ، فليحيا إذن ليستمتع . . ليعمل ، فليناضل من أجل مصيلحي أفضل ، ولتبق الأوضاع كما هي ، أو لتتغير ، لتكن كما تشاء ، سيظل ذكاؤه على دين مصالحه ، وهكذا نجح مصيلحي بك وأثرى ، وازداد ثراء ، وكل ليلة تعود مصيلحي بك أن يسترخى إلى جوار زوجته السويسرية الجميلة الصنع ، ويقرأ قليلاً في سير الأبطال والزعماء ، المعذيين ذوى الأفكار المستحيلة ، تاريخ الحمقى ، واليوم يعلن مصيلحي بك فى الجرائد عن حاجته لمدرسة تعلم ابنه الفرنسية ، فتتسابق الكثيرات ، ويجلس مصيلحي بينهن يحص ويختبر ، ليختار أجدرهن بثقته ، ويرجعه خاطر

ساخر إلى الحجرة المظلمة حيث تلقى دروسه الأولى في أحد كتّيب
السيدة زينب . . « هو المال يا مصيلحي » ، والآن تجلس أمامه هذه الفتاة
ذات الثوب الأبيض ، وديعة هي كالنسيم ، خجولة هي حتى كاد أن
يشفق عليها ، لكن مصيلحي بك يكره الضعف والعواطف .

- الاسم بالكامل .

- نادية عبد السلام .

- المؤهل .

- ليسانس أداب جامعة القاهرة .

على شفيتها تموت الكلمات المخرجة ، هي الضالة ، لا بد أن تجابه
عينه . . قررت أن تبسم . . أخفقت .

- تخرجت في قسم اللغة الفرنسية؟ قال كأنما يقرر .

- لا بل في قسم لاتيني ويوناني .

ساد صمت طويل استغرق لحظة واحدة .

- لكنني أعلنت عن حاجتي لمدرسة لغة فرنسية . . نطقها في ود أكد
به سيطرته على الموقف . . لا بد أن ينطلق صوتها .

- لقد درست الفرنسية في معهد خاص لمدة خمس سنوات .

- بطاقتك الشخصية لو سمحت .

وهي تسلمه البطاقة ، رسم وجهها تعبيراً لا مبالياً ، لمحت بطرف
عينها إحدى الجالسات تهمس ضاحكة لجارتها في المقعد . . .

- يا أنسة نادية . . أود أن أوضح لك شيئاً . . ليس ابني في حاجة لمن

يعلمه مبادئ الفرنسية . . فهو يتحدثها بطلاقة . . إنما هو يحتاج لمن
تتابع معه دروس مدرسة اللبسية .

. أن أجيد الفرنسية .

. سئرى على كل حال . . يا كريم . . نادى ملاطفًا . . يسرز طفل
أشقر يقترب من والده .

. هذه هى مدموازيل نادية . . مدرستك الجديدة . . هيا صافحها . .
وتحدث معها بالفرنسية .

. حسن .

. هل أنت مدرستى الجديدة؟ كانت تجيد الفرنسية .

. بابا إنها لا تتكلم .

كان مصيلحى بك ينصت وقد تشاغل عنها بقراءة الأوراق وعندما
رفع رأسه . كانت نادية تهتم بالانصراف .

فستان قديم وغطاء للرأس

١- فستان أزرق قديم

أول ما عرفتها دعوتها إلى العشاء في مطعم صغير، بميدان الأوبرا وفي الأسبوع التالي أخذتها إلى السينما ثم أوصلتها إلى بيتها، وقبل أن تنزل من السيارة طلبت منها أن تزورني في شقتي، لم تدهش ولا صدمت ولا تظاهرت بالغضب كما تفعل النساء، طالعتني بنظرة غامضة ثم سألت بهدوء عن العنوان واستفسرت عن البواب والجيران وجاءت في الموعد.

كنت قد أعددت نفسي بكأسين وجلست بجوارها في الصالة ومهدت بحديث طويل مرح، كنت أتوقع أنواعا من الصد والدلال كما يحدث عادة في أول زيارة من امرأة لكنها لما حانت اللحظة الحاسمة لم تمنع، استسلمت لقبلاتي ثم همست مستأذنة وأخذت تخلع ثيابها قطعة قطعة وتعلقها على المشجب بعناية وكأنها تؤدي دوراً أو تنفذ اتفاقاً. ولما فرغنا أراحت جسدها العاري بعيداً عني واستلقت على ظهرها وشبكت يديها تحت رأسها وأخذت تحديق في السقف. بدت في تلك اللحظة غارقة في الحزن، وكنت خبيراً بانتكاسات ما بعد

الغرام، فمددت يدي وداعبت خصلة من شعرها المتناثر . . ربت على يدي وقالت بصوت خافت :

- تعرف . . . ساعات الواحدة بتصعب عليها نفسها .

أحطها بذراعي وهمست وأنا أبدأ قبلة «جديدة» «ولا يهملك» . . كانت طيبة وفقيرة، حكمت لى عن أبيها السائق وإخوتها الخمسة وحجرتهم فوق السطح فى شارع المواردى وزوجها السعودى الذى هرب بعد شهرين . . وضحكت وهى تقلد لهجة موظف القنصلية، ووصفت لى شقته الفاخرة فى الزمالك .
أتذكرها الآن . .

أراها بشعرها المبلل بعد الحمام وقد ارتدت روبي الحبرى المنقوش وشمزت أكمامه ليناسب جسدها الضئيل ، وأراها فى المساء فى اللحظة التى سبقت خروجها من شقتى، تتمهل، وحدها فى ظلمة المدخل . . وكأنها تخلع وجه العشيقة وتضع وجهها عاديا كوجوه المارة . ثم تفتح باب الشقة بحرص وتخرج وأسمع وقع قدميها، يقوى كلما ابتعد . . وأراها تلف معى يوما كاملا على المحلات لتختار ملابسى على ذوقها، تفحص بعناية وتقارن، وكأننا متزوجان حقا وهى زوجتى المحبة المدبرة .

ثم . . أراها أخيراً ذلك الصباح، كان موعدنا على المحطة المجاورة لبيتها وكان الجو بارداً والواقفون يلوذون ببقعة الشمس الوحيدة على الرصيف وهى واقفة بينهم، بفستانها الأزرق الشتوى المتهترئ قليلا عند الكوع . . بدا لى وجهها ذلك الصباح متغيراً وغريباً، وعندما جلست بجوارى فى السيارة شعرت بشيء ثقيل جاثم بيننا .

تكلمت هى أولاً، قالت :

- المستشفى آخر صلاح سالم .

وجهت السيارة إلى حيث قالت ، وبدأت فصلاً جديداً فتنهدتُ
وكان صبرى نقد وقلت :

- قلت لك ممكن أتزوجك .

كنت قد قررت هذه الجملة مائة مرة في اليومين السابقين ولم تعقب
هى ، ولا مرة ، كلما عرضت عليها الزواج كانت تنتظر حتى أفرغ ثم
تكمل حديثها عن العملية وكأننى لم أقل شيئاً ، كانت تدرك أننى لن
أتزوجها وكنت أنا على نحو ما ، أبالغ فى إلحاحى عليها ليتأكد لها أننى
لست جاداً .

المستشفى مبنى أبيض صغير واللافتة كبيرة : «مستشفى أديب
للولادة» وخيل إلى وهى تصعد أمامى درجات السلم الرخامية ،
بخطوتها البطيئة المضطربة ورأسها المنكس ، خيل إلى أننى فى مشهد
ما ، أودى دور الحارس الذى يقود المرأة الخاطئة إلى العقاب المحتوم .

لقينا الدكتور أديب فى مكتبه ، جسده مترهل وصلعته فسيحة
ووجهه مكتنز لزج ، رحب بنا مقتضياً ثم سألنى متظاهراً بالبراءة :

- حضرتك زوج المدام؟

هزرت رأسى فقال : «لماذا تريدان إجراء العملية؟»

قلت - كما أوصتنى هى - «الحقيقة عندنا طفلان . . والحمد لله» .

هنا ، انتهت المراسم وتحول وجه الدكتور إلى ما يشبه العزم وقال
بصوته الطبيعى هذه المرة :

- العملية تكلفك ٥٠٠ والبنج ١٠٠ كنت قد أعددت المبلغ فى

ظرف، تناوله الدكتور شاكرًا وما إن وضعه في الدرج حتى هب واقفًا وقال :

- توكلنا على الله . . اتفضلى يا مدام .

سبقنا الدكتور وكان علينا، أنا وهى والحكيمة - أن نقطع ردهة طويلة مظلمة حتى نصل إلى باب العمليات ذى الضلفتين والكوتتين الزجاجيتين المستديرتين، مشينا صامتتين . وهناك، عند الباب تمامًا استدارت هى فجأة ناحيتى وهمست : «أنا خائفة قوى يا صلاح» لكنى لم أنطق، ظلمت جامدًا فى مكاني حتى سحبتها الحكيمة من يدها إلى الداخل وارتج الباب وراءهما بعنف . . كنت أشعر بصداغ وفكرت وأنا أجلس على المقعد فى الردهة أن الموقف صعب لكننى لا يمكن أن أتزوجها، مهما كانت طيبة ومهما أحببتى . ليست فى النهاية سوى ساقطة . ثم . . ألا يمكن أن تكون حملت عمدًا حتى تورطنى فى الزواج؟ أو ليس هذا احتمالاً وارداً فعلاً؟!

* * *

٢- غطاء للرأس محكم، ألوانه زاهية

أكثر ما أعجبنى فيها أخلاقها، ممتازة، كنا خمسة فى درس المحاسبة وكانت هى الطالبة الوحيدة المحجبة، لم يكن حجابها من النوع المنسدل الفضفاض بل كان مجرد غطاء للرأس، قطعة مستديرة من الحرير المطرز تغطى شعرها، وعرفت بعد ذلك أن هذا النوع من الحجاب اسمه «بونيه» كان لديها مجموعة متنوعة من «البونيهات»، لكل فستان «بونيه» مخصوص من نفس لونه، وكان جمالها متأججا: العينان السوداوتان الواسعتان وبياض البشرة الملائكى الناصع، والأنف صغير

منمنم كشمرة لذيدة والشفستان مكتنزتان مطليتان تنفرجان قليلا عن
أسنان لؤلؤية منتظمة .

كل هذا الجمال يغلفه وقار وحشمة ، لا ضحكة لاهية تفلت ولا
خلاعة ولا كلمة زائدة مع زميل ولا محاولة واحدة للفت الأنظار . .
مع تدين عميق ، يجعلها تطلب من المعيد إيقاف الدرس حتى تصلى
العصر قبل أن يفوت . . أعجبتنى ، وبرغم خبرتى مع النساء لم أكن
أجرؤ ، كيف أخذش كل هذا الوقار بكلمة غزل رخيصة؟! ظللت
شهوراً طويلة أراقبها صامتا . أثناء الدرس وكانت تحس بنظراتى ،
والمؤكد أن اختلاجة خفيفة كانت تعبر وجهها الجميل إذا التقت عينانا .

وفى ليلة ، دق جرس التليفون فى منزلى وجاءنى صوتها ، ناعما
ناعسا وكأنها نائمة أو صحت لتوها ، سألتنى عن نقطة غامضة فى
الدرس الأخير ثم شكرتنى . . وأغلقت وظللت ساهراً طوال الليل
أفكر . . لماذا طلبتنى أنا بالذات لتسألنى؟! أولاً أنا ضعيف فى الحاسبة
وهى تعرف ذلك ، وثانياً لديها رقم المعيد نفسه تستطيع أن تسأله لو
أرادت . . أياكون أن؟!!

كانت فكرة أنها تحبنى تجعلنى أحلق كالطير فى السماء . . .

طلبتها فى اليوم التالى فسألتنى أمها باستنكار :

من حضرتك؟

أجبت بسرعة : أنا صلاح زميلها يا طنط . . صممت الأم لحظة
وكانها تزن الأمر بدقة ثم نادتها . . هذه المرة تكلمنا طويلا عرفت أن
لديها أختين ، وأن أباهما أستاذ جامعى يعمل فى الخليج وحكى لها عن
أبى الذى مات مؤخراً وشكوت من إجراءات الإرث المعقدة وفى النهاية

سألتها إن كان يمكن أن أطلبها من حين لآخر . . ضحككت وقالت :
«ممكن . . حتى نشجع بعضنا على المذاكرة» .

صارت مكالماتنا يومية وطويلة وتمكن حبها من قلبي حتى فاضت
مشاعري ذات مرة فقلت لها فجأة اسمعي . . أنا أحبك . . تقبلي
تجوزيني؟!

صمتت طويلا ثم سمعت صوتها خافتا حزينا، قالت إن هذا ما
كانت تخشاه من البداية، وإنى وإن كنت شابا ممتازا تمناه أية فتاة، إلا
إنها لا تفكر فى الزواج الآن . . صدمنى ردها بشدة وسألتها بصوت
بائس إن كان معنى ذلك أنها ترفضنى، قالت إنها لا تقبلنى ولا
ترفضنى، إنها فقط لا تفكر فى الزواج، استمرت المكالمات بيننا ولم
أحدثها عن الزواج بعد ذلك لكننى كنت أعبر لها عن حبي كل يوم،
أقول لها «أحبك» «أحبك» . . أحيانا كانت تضحك وأحيانا تقول : «إن
كنت تحبى صحيح ذاكر كويس» . . ولما اقترب امتحان البكالوريوس
قالت لى مرة «ما رأيك لو نذاكر معاً» . . تعال عندنا فى البيت غدا . .
أنا قلت لبابا وماما . . بت وكأنى فى حلم رائع، لم أتم ولا قرأت كلمة
واحدة . . ولما حان الموعد كنت مرتدبا أحسن ثيابى، شعرى مصفف
وذقنى حلقة ناعمة، ويا فرحتى وأنا أدق جرس الباب الموسيقى . .
بيتها جميل وأهلها أجمل، والدها رجل فاضل، غمرنى بأبوته وأمها
برغم سنها لا تزال جميلة، تغطى شعرها ببونيه «أسود وقور» وأعجبنى
جداً من والديها أنهما تركانا وحدنا فى حجرة المكتب وأغلقا علينا
الباب، أليس هذا دليلا على ثقتهما فى ابنتهما وفى أخلاقى أيضاً؟!

ما أجمل الحب . . صرت أزورها كل يوم، أجلس بجوارها نستذكر
ونتكلم وأدنو منها فأشم الشذى المنبعث من شعرها، وأغافلها فأقبض

على يدها الطرية البضة وأحس بها تذوب في قبضتي . . عندئذ يتضرع وجهها وتشهق أو تهمس بخوف : «أنت مجنون» ماما تدخل علينا تبقى مصيبة . . .

. . . حتى كان يوم ، ذهبت لأستذكر معها كالعادة ، جلست إلى المكتب وبسطت المحاضرات أمامي ، فأخبرتني - بشكل عارض بأن والديها قد خرجا وأنهما لن يعودا قبل المساء ، وما إن استقر الكلام في ذهني حتى شعرت بفوران الدم الساخن في جسدي ، ونزلت على عيني غشاوة فلم أعد أميز ما أراه . . طلبت منها بصوت منفعل لاهث أن تحضر كوب ماء ، وما إن نهضت واستدارت حتى قبضت على ذراعها وجذبتها وانهمرت قبلاتي الحارة على وجهها ورقبتها ، صرخت بصوت خافت وقاومت قليلا ثم استكانت بين ذراعي وغبنا في قبلة طويلة ملتهبة لم أذق في حياتي أحلى منها . . ولما أفقت وجدت وجهها ممتقعا مبللا بالدموع ، ولم تلبث أن انفجرت في بكاء مؤلم حاولت أن أهدئها ، قلت آسف لأنني عجزت عن السيطرة على نفسي ، وقلت مهوئا : إن الأمر في النهاية مجرد قبلة . . وصرخت حبيتي في وجهي :

- الموضوع بسيط بالنسبة لك . . بالنسبة لي أنا مصيبة كبيرة . . أنا التي لم يلمسني رجل من قبل إلا أبي ، كيف سمحت لنفسي أن أتركك تقبلني ؟! ماذا أقول لأبي ؟! ماذا أقول لأمي ؟! انفجرت محبوتي في نوبة جديدة من البكاء والصراخ ولم يعد بمقدوري أن أتحمل الموقف فانصرفت مسرعا وأنا متألم للغاية .



ها نحن . . أنا وأمى جالسان في الصالون عندهم ، ومحبوتي

تجلس متألفة بين والديها ترندى فستانا لونه أحمر صارخ مع بونيه من نفس اللون ، تكلمت أمى طويلا عن تربيته وأخلاقه والثروة التي تركها لى أبى ورغبتها فى أن تفرح بى . . ولما انتقلنا إلى حديث المهر والشبكة . . مدت محبوبتى يدها المنمنمة الجميلة وأحكمت «البونيه» الذى كان قد ترحزح قليلا عن وضعه ، ثم قالت لأمى - بصوتها الناعم الساحر - إن مبلغ عشرين ألف جنيه لا يكفى أبداً كمهر . . وحكت عن قريبات لها وصلت مهورهن إلى ستين وسبعين . . ثم انتهت بأدب وحزم إلى أن مهرها لا يمكن أن يقل عن ثلاثين .
ولكزت أمى بسرعة حتى توافق .



عزت أمين إسكندر

«زميلى فى الصف الأول الإعدادى ، بقامته القصيرة نوعاً وجسده القوى العريض ورأسه الكبير وشعره الأسود الناعم ونظارته الطبية وابتسامته الخافتة الوديدة القريبة من التوسل ونظارته القبطية (تكون مراوغة متشككة مفزعة أو تكون عميقة مدعنة مثقلة بالذنب والأسى) عزت اسكندر ، بعكازه وساقه الصناعية . . عكازه ينتهى أسفله بقطعة مطاط تمنع الصوت والانزلاق وساقه الصناعية يغطيها بنطلون المدرسة ويلبسها جورباً وحذاء لتبدو كالطبيعية . . كل صباح يعرج عزت فى الفصل متكئاً على عكازه ، يجرجر ساقه الصناعية ويتأرجح ، خطوة خطوة حتى يصل إلى آخر تخته . . هناك . . فى الركن بجوار النافذة يجلس ويلقى بعكازه على الأرض ولا يلتفت إليه مطلقاً بعد ذلك . . ينهمك تماماً فى متابعة الدرس ، يسجل بعناية كل ما يقوله المدرس . . ينصت ويقطب جبينه مفكراً ثم يرفع يده سائلاً مستوضحاً (وكأنه بانهماكه فى الدرس يندس فى الحشد ، يتوارى بيننا ، يصير . لمدة ساعات مجرد تلميذ مجتهد بين التلاميذ . . لا يهمه عكاز ولا عرج).

وعندما يرن جرس الفسحة ، ما إن تصلصل رناته البهيجة حتى

يهلّل التلاميذ كلّهم فرحاً . . يلقون ما بأيديهم ويتدافعون - حتى السقوط - على باب الفصل نازلين إلى الفناء . عزّت اسكندر وحده يتلقى جرس الفسحة كنبأ قديم متوقع ، يغلق كراسته وينحيا بهدوء ثم يخرج من حقييته السندوتش والمجلة المصورة ويقضى الفسحة جالسا في مكانه يقرأ ويأكل ، وإذا نظر إليه أحد التلاميذ وهم بفضول أو إشفاق . . عندئذ . . يبتسم عزّت بوضوح وهو يقرأ ، يتظاهر بالاستمتاع التام بالقراءة كأن متعة القراءة - وحدها - هي التي منعتها من النزول إلى الفناء .

كانت أول مرة أحضر دراجتي إلى المدرسة . . كان ذلك بعد ظهر الخميس والفناء خاو إلا من بضعة تلاميذ يلعبون الكرة في الناحية الأخرى . . رحّت ألعب بالدراجة : أقطع الفناء وأعود . . أدور حول الأشجار . . أتخيل نفسي في سباق للدراجات وأصيح عالياً : « سيداتي سادتي . . والآن مع سباق الدراجات العالمي ! » أرى بعين الخيال جمهوراً وأعلاماً ومتسابقين يتنافسونني وأسمع هتافات وصفارات المشجعين ودائماً أفوز بالمركز الأول ، ألمس خط النهاية قبل المنافسين وأتلقى باقات الورود وقلات التهتة .

ظللت ألعب فترة وفجأة داخلني شعور بأنني مراقب . . التفت فرأيت عزّت اسكندر جالسا على سلم المعمل . . كان يتفرج على من البداية ولما التقت عينانا ابتسم ولوح فتوجهت ناحيته وبدأ هو نهوضه : استند بيده على سور السلم واحتضن عكازه ثم رفع جسده ببطء حتى وقف ونزل السلم درجة درجة ولما وصل إلى أخذ يتفحص الدراجة . . أمسك بالمقود ورن الجرس عدة مرات ثم انحنى ولمس بأصابعه أسلاك العجلة الأمامية وتمتم بصوت خافت :

عجلة حلوة . .

أسرعت أقول فى زهو :

- دى «رالى» ٢٤ . . عجله سباق . . فيها ثلاث سرعات . . عاد
يتأمل الدراجة كأنما يختبر ما أقوله ثم سألنى :

- تعرف تسوق وأنت رافع يديك ؟!

هززت رأسى وانطلقت بالدراجة . . كنت خبيراً بالدراجات
وأعجبنى أن أستعرض أمامه . . بدلت بقوة حتى بلغت أقصى سرعة
وشعرت بالدراجة ترتج تحتى ثم . . رفعت يدى بحرص عن المقود حتى
حاذت ذراعاًى كتنى . . ظللت هكذا فترة ثم استدرت عائداً إليه . .
كان قد تقدم بضع خطوات إلى وسط الفناء . . توقفت أمامه وقلت وأنا
أنزل من الدراجة : شفت يا سيدى ؟!

لم يرد على . . أطرق وأخذ ينظر إلى الدراجة كأنما يزن فى ذهنه
أمراً عميقاً وفجأة ، ضرب بعكازه الأرض وتقدم خطوة حتى التصق
بالدراجة ثم قبض بيده على المقود وانحنى على وهمس : «ادبنى لفة لو
سمحت» وأخذ يلح «لو سمحت . . لو سمحت . .» لم أستوعب الأمر
وأخذت أحدق فيه . . بدا فى تلك اللحظة كمن جرفته النزوة فلم يعد
بوسعه أن يتوقف أو يرجع ولما وجدنى صامتاً أخذ يهز المقود بعنف
وصاح بغضب هذه المرة : «بأقولك ادبنى لفة!» ثم قفز من مكانه
محاولاً الركوب فاختل توازننا وكدنا نسقط أنا وهو .

لا أذكر كيف فكرت عندئذ لكننى انسقت إليه . . وجدتنى أساعده
على الركوب . . اتكأ على كتنى وعلى العكاز وبعد محاولات مجهدة
تمكن من رفع جسده عالياً وعبر بساقه السليمة إلى جانب الدراجة

وجلس على المقعد . . كانت خطته أن يمد ساقه الصناعية إلى الأمام ليبعدها عن البديل وفي نفس الوقت يحرك البديل الآخر بقوة ساقه السليمة . . كان هذا صعباً للغاية، لكنه في النهاية ممكن . استقر عزت على الدراجة وبدأت أدفعه من ظهره إلى الأمام، دفعا خفيفا حذرا ولما تحركت الدراجة وبدأ يبدل تركته مرة واحدة فاختلف توازنه وترنح بشدة، لكنه لم يلبث أن تماسك ثم استقام وبدأ يسيطر على الدراجة .

كان يبذل مجهودا خارقا لكي يبدل بقدم واحدة ويحفظ الاتزان . . .
مرت لحظات والدراجة تتقدم ببطء وتجاوز عزت الشجرة الكبيرة ثم كشك «الكائنين» ووجدتني أصفق وأصيح :

«برافو يا عزت» . . أخذ يتقدم بالدراجة حتى شارف نهاية الفناء وكان لا بد أن يستدير وكنت أخشى عليه من الاستدارة، لكنه استدأر بحرص وبراعة ولما عاد في الاتجاه المعاكس بدا واثقا ومسيطرأ تماما على الدراجة حتى إنه زاد السرعة ثم زادها ثانية حتى تطايرت خصلات شعره من اندفاع الهواء .

صارت الدراجة منطلقة بسرعة كبيرة وعزت بعبر بها الممر الممتد بين الأشجار وراحت صورة عزت تغيب وتظهر من خلال الأغصان وأوراق الشجر المتداخلة . . كان قد نجح . ورأيت على الدراجة - المندفعة الآن كالسهم - يعود بظهره إلى الوراء ويرفع رأسه ثم يطلق صيحة طويلة عالية ترددت في جنبات الفناء، صيحة ممطوطة غريبة مشروخة كأنها صرخة انحبست في صدره طويلا لكي تخرج في تلك اللحظة
أخذ يصيح :

شاييف . . شاييف . . .



بعد قليل لما ركضت إليه ، كانت الدراجة متقلبة على الأرض
والعجلة الأمامية ما زالت تدور وتتز ، ورأيت الساق الصناعية منفصلة
عن جسده ، كانت ملقاه بعيداً بجواربها وحذائها ولونها الداكن
وتجويفها المظلم ، كأنها قطعت لتوها من جسده أو كأنها مخلوق
منفصل له حياته الداخلية المستقلة . . وكان عزت منكفئاً على وجهه
ويده على موضع بتر الساق الذي بدأ ينزف دماً ويصنع بقعة تكبر على
قمماش البنطلون الممزق . . ناديته فرفع رأسه ببطء ، كانت هناك جروح
على جبهته وشفتيه وبدا لى وجهه غريباً بدون نظارة . نظر إلى لحظة
كأنما يستجمع ذهنه ثم قال بصوت ضعيف وشبح ابتسامة يلوح من
بعيد :

- شفتنى وأنا راكب العجلة ؟ !

* * *

أختى الحبيبة مكارم

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين والصلاة والسلام على سيدنا
محمد سيد الأولين والآخرين وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أما بعد . .

أختى الحبيبة مكارم . .

مشتاقون إليك جداً جداً يا أختى الحبيبة . . على بالنا والله دائماً
يا مكارم وبالألمس فقط صحوت مفزوعاً في عز الليل على صوت بكاء
فوجدت بطة صاحبة وهى تبكى بشدة وتقول : «صعبان على يا حسن
إن مكارم وحدها مع ماما» .

قلوبنا معك يا أختى ونحن جميعاً أنا وبطة والأولاد ندعو الله عز
وجل أن يلهمك الصبر ويثبت قلبك . لقد أثبت يا مكارم أنك أصيلة
وتكفى وقفتك مع أمنا في مرضها . اعلمى يا أختى أن رعايتك لأهلك
لن تذهب هباء لأن دعوة واحدة من ست الحبايب تفتح لك أبواب الجنة
الواسعة بإذن الله .

أختى الحبيبة . . لقد عرضت الأشعات والفحوص الخاصة بأمى
على الأطباء هنا فأكدوا جميعاً أن الورم - للأسف يا أختى - فى المرحلة

الثالثة، ومعنى ذلك أن الجراحة لا تنفع والحل الوحيد هو العلاج الكيماوى . . يا مكارم أنت مؤمنة ونشأت على طاعة الله والتسليم بقضائه، وتعرفين يا أختى أن المرض والصحة والحياة والموت من شئون الخالق جل وعلا ولا حيلة لابن آدم فيها .

أظنك يا أختى تسألين عن أخبارى؟! والله لا أريد أن أزيد همك يا مكارم . . يكفيك ما أنت فيه . منذ أن رجعنا أنا وبطة من الحجة الأخيرة ونحن فى مشاكل متواصلة . . الحمد لله على كل شىء ، الشهر الماضى شعرت بألم شديد فى جانبى الأيسر وزاد الألم على بالليل حتى إننى كنت أتقلب على الأرض وأبكى كالأطفال ، وفى المستشفى عملوا الفحوص وقال الطبيب إن كليتى اليسرى فيها حصوات كبيرة ولا بد من جراحة ولا أطيل عليك يا أختى . . عملت العملية وحجزونى ثلاثة أسابيع فى المستشفى . . والله العظيم يا مكارم يا أختى ١٠ آلاف ريال بالورقة والقلم (عملية فحوص وخلافه) ، الحمد لله على كل شىء . وما إن أفقنا من المرض والعملية حتى حدثت المشكلة مع الكفيل . . وكفيلى هو صاحب المدرسة التى نعمل بها أنا وبطة وهو شيخ مهم وواصل ويستطيع أن يرحلنا فى ٢٤ ساعة لو أراد ، والمشكلة يا ستى أن الكفيل عرف بأننى أتردد على فيلا الشيخ فهد الربيعى وأحياناً أساعد أولاده فى الدرس . . والكفيل يظن أنى أعطيتهم درساً خصوصياً مقابل راتب ، مع أنى أكدت له أنى والشيخ فهد متحابان فى الله ونجتمع أساساً لتتذكر القرآن ، لكن الكفيل غير مقتنع وفى كل مناسبة يلمح لى أنى أعطى دروساً خصوصية حتى إنى من يومين زعقت فى وجهه : « اتق الله يا شيخ . . البينة على من ادعى يا شيخ . . أنت تهمنى بلا بينة حرام عليك » ، ولكن بلا فائدة يا أختى وقد حرمنى الكفيل من حوافز شهرين ، سامحه الله .

ماذا أقول يا مكارم؟! والله العظيم أنا وبطة تفكر جددا نرجع إلى مصر نهائيا. . عشر سنوات في الغربية وكل الذى نكسبه نصرفه أولا بأول (يعنى يا مولاى كما خلقتنى) الحمد لله ، والذى يغیظنا جداً أن الناس فى مصر یظنوننا قاعدين هنا نغرف من الذهب ونكتر .

أخيراً يا أختى أرجو أن تطمئنينا على ست الحبايب (أولا بأول وحياة النبى) وقولى لها يا مكارم إنه لولا الشدید القوى لكنت تركت الدنيا وجئت أنا وبطة والعیال لنجلس تحت قدمیها لأنها الخیر والبركة . كما أریدك يا أختى أن تقرئى على رأسها دعاء المكروب ، سنة عن النبى علیه الصلاة والسلام (ویستحسن أن تقرئیه على وضوء) یقول الدعاء : «اللهم رحمتك أرجو فلا تكلنی إلى نفسی طرفه عین وأصلح لى شأنی كله لا إله إلا أنت» .

أكثرى من هذا الدعاء يا مكارم تجدين خیراً كثيراً بإذن الله ، وبالنسبة للمبلغ الذى تطالبينه من أجل تحويل أُمى إلى مستشفى خاص فلو أننى أنفقت مال الدنيا وبعثت ملابسى من أجل أُمى لما وفیت هذه السيدة العظيمة نصف ما فعلته من أجلنا ، ولكن للأسف الشدید فإن ظروفى المادية صعبة جداً ولا تسمح لدرجة أنى اقترضت مالا من بعض الإخوة هنا لأكمل هذا الشهر .

عموما لقد استشرت الدكتور حسنى عابد فى موضوع المستشفى الخصوصى فقال إن العلاج فى مستشفى الحكومة هو نفس العلاج فى المستشفى الخصوصى والفرق هو أنهم فى الخصوصى یطلبون مصاريف باهظة لأن الطب فى مصر أصبح تجارة والعیاذ بالله ، هذا رأى الدكتور حسنى وهو طبيب كبير هنا ورجل صالح یعرف ربه (ولا نزكى على الله أحدا) والبركة فیک يا أختى الحبیبة . مكارم أرجوك . . سوف

تجددين في هذا الخطاب خطاباً آخر صغيراً مرسلأ إلى الحاج غريب
السمسار . . اذهبي إليه على مقهى نادى أعطيه الخطاب فوراً وقولى له
أن يتصل بى هاتفيا للضرورة وإن لم يجدنى يتصل بحضرة الشيخ فهد
الربيعى رقم هاتف ٥٨٢١٤٦٥ (٠٦) هذا الموضوع هام وعاجل جداً
يا مكارم . جزاك الله خيراً يا أختى الحبيبة .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

أخوك

حسن محمد نجاتى

القصيم فى ٥ من محرم عام ١٤١٣

طبق الأصل

أحزان الحاج أحمد

عاد الحاج أحمد إلى البيت بعدما أدى صلاة التراويح في الجامع وجلس يتفرج على التلفزيون حتى نادته زوجته الحاجة دولت ليتناول طعام السحور، قام الحاج أحمد على مهل وجلس إلى المائدة وشمر كم الجلاباب وبسمل ثم بدأ فازدرد كوباً من عصير الليمون الدافئ، الذي هو بمثابة مطهر للجهاز الهضمي وأيضاً منبه المعدة حتى لا يفاجئها الأكل دوغماً تمهيداً، في تلك الأثناء كانت الخادمة الفلبينية تقطع الردهة حاملة صينية سحور إلى حجرة الحاج عزام، والد الحاج أحمد العجوز الذي يقيم معه من عامين .

مد الحاج أحمد يده وقطع لقمة كبيرة من الفطيرة «المشلتة» الساخنة الغارقة في سمنها وغمسها في صحن الفول الذي يليه مباشرة على المائدة، كان الفول قد مر بإعداد طويل من تدميس وتقشير وهرس وخلط مع شرائح الطماطم ثم أضيف إليه ما يلزمه من زيت الذرة والليمون والفلفل والكمون . . ليكون لذة للأكلين وذخراً لهم في يوم الصيام الطويل . . سبّل الحاج أحمد عينيه مستطعماً وجعل يمزج اللقمة بتؤدة وكأنه عازف خبير يروض أوتاره ببعض النغمات البسيطة قبل أن يدلف بها إلى العالم السيمفوني .

- «تسلم يدك يا حاجة»

هكذا تتم الحاج بحرارة وهو يمضغ . .

- «بالهنا والشفاء يا حاج» .

ردت زوجته بصوت عمتن . بعد الفول كان الحاج أحمد عازماً على الانتقال إلى طبق الأومليت بالبقدونس الواقع على يمينه . . يلي ذلك كوب من الكركديه الأسوانى المثلج ربما يفسح فى بطنه مكاناً لبعض بيضات مسلوقات . . يأكلها الحاج أحمد «حاف» بدون خبز لثلا يشبع تماماً فيحرم من «الحلو» الذى نما إلى علمه الليلة أنه أطباق من الأرز بلبن وقد انتشرت على بشرته اللبنة المتماسكة شذرات من جوز الهند اللذيذ .

لكن الحاج أحمد ما إن مد يده ليعاود الفطيرة حتى دوت صرخة حادة ملتاعة شقت سكون الليل وساد هرج ومرج وانتفضت الحاجة دولت فزعة ، فسقط مقعدها على ظهره محدثاً ضجة شديدة وهرع وراءها الحاج أحمد بقدر ما سمحت له السمنة وآلام الروماتيزم . . كانت الخادمة الفلبينية واقفة على باب حجرة الحاج عزام وقد علا وجهها الأسوى ذعر قاتل . وكانت الحجرة غارقة فى سكون ثقيل وهيبى للحاج أحمد وهو يدخل أن رائحة ترايبه عطنة تملؤ أنفه ورأى والده مستلقياً على الفراش ، وقد انفتح فمه الخالى من الأسنان وعيناه تحديقان فى الفراغ وعلى وجهه العجوز تجمد تعبير ثابت وكأنه دُهِش بقوة مرة واحدة وإلى الأبد .

مات الحاج عزام وأطلقت دولت ولولة طويلة وكأنها تعلن النبأ الأليم وارتمى الحاج أحمد بجسده الثقيل على جثمان أبيه ودفن وجهه فى صدره وانخرط فى البكاء كطفل ضائع ، استغرق تماماً ولما انتبه بعد

لحظات كات الحجرة خالية فتهض وجفف وجهه بكمه وقرأ الفاتحة ثم أغلق أجفان أبيه وفمه وغطى رأسه بالملاءة ، ومد يده برفق تحت الوسادة وقبض على المفاتيح ووضعها فى جيبه ، وخرج بعد ذلك إلى التليفون لينعى الفقيد الكبير لأقاربه ومعارفه .

بعد ساعة كان الحاج أحمد يجلس وسط المعزين فى الصالون وقد ارتدى بدلة «سفارى» لونها كحلى ، بينما راحت الخادمة الفلسطينية تطوف على الحضور بصينية قهوة وماء بارد ، جاء الجيران أولاً ثم وصل الأستاذ سعيد عزام (الابن الأوسط للمتوفى ووكيل وزارة الري) وبدا وجهه شاحباً ونظرته ذاهلة من هول الصدمة ، ولما وصل عادل (الابن الأصغر والموظف فى أمريكان اكسبريس) أصر صارخاً على رؤية أبيه وعندما كشفوا له الملاءة ارتمى متشنجاً على الأرض فحملوه إلى الصالة ودعكوا وجهه بالكولونيا أما السيدة أمنة . . الابنة الوحيدة للفقيد . . فقد اندفعت إلى داخل الشقة وما إن لمحتها الحاجة دولت حتى صرخت بصوت محشر يقطع القلب .

- «تعالى شوفى يا أمنة . . أبونا مات يا أمنة» .

وجاوبتها أمنة بلطم عنيف على وجهها سقطت أثناءه على أرض الردهة وترك الحاج أحمد المعزين وهرع إلى المرأتين المنكوبتين ليهدي من روعهما ثم انتحى جانباً بأخيه عادل . الذى كان قد هداً نوعاً . وأعطاها رزمة بألف جنيه واتفق معه على ترتيبات الغد ، الحانوتى والسرادق والنعى وخلافه .

تعود الحاج أحمد التصرف فى الملمات ، كان أكبر إخوته وقد أكسبه عمله فى المقاولات الحس العملى والأعصاب السليمة ، يدعم كل ذلك إيمانه العميق وعلمه الواسع بثئون الدين ، ها هو يجلس الآن وسط

المعزين، صامتًا مطرقًا، يبدو في وجهه كم هو حزين ويبدو أيضًا كم يعتصم بالصبر الجدير بالمؤمن الحق، لم يبك الحاج أحمد ولا تشنج كالأخرين، لكن القلب ينوء بهم كالجيل والنظرة خاسئة منكسرة والشفاه تتمم بآيات من الكتاب عليها تبرد الجرح، جدير بالحاج أحمد الليلة أن يستحضر أباه، كيف رعاه وإخوته صغارًا، من أجلهم ضحى براحتة وماله، واليوم يذهب إلى ربه بعد ما أدى الرسالة كاملة. . «يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية» صدق الله العظيم، استغرق الحاج أحمد في التفكير والاستغفار لأبيه الراحل، وهو جالس في الصالون، وسط المعزين حتى كانت لحظة. . رفع الحاج أحمد رأسه إلى أعلى ليطلق رقبته، حركة عادية بلا معنى، تمامًا كما يعبث المرء أحيانًا «بأوستيك» الساعة أو يفتل شاربه بإصبعين وهو يتكلم. . ما علينا. . لما رفع الحاج أحمد رأسه وقعت عينه على ساعة الحائط، كانت العقارب الذهبية الكبيرة تشير إلى الثالثة والنصف صباحًا، وعندما أطرق الحاج أحمد من جديد كان شيء في صدره قد تغير، شيء رذيل أخذ يوخزه كإبرة صغيرة مزعجة، حاول الحاج أحمد أن يستأنف التفكير في الفقيد ولكن. . عبثًا، تلاحق الوخز وتجمع ثم تشكلت فكرة خبيثة أخذت تطارده وتضغط على ذهنه. . إنه لم يتسحر. . فوجئ بالمصيبة وهو بعد لم يأكل سوى لقمة واحدة، لم يبق سوى ربع ساعة على الفجر ومعدته خاوية تقرصه، إنه جوعان يريد أن يأكل، هكذا بوضوح. .

لما وصل الأمر لهذا الحد شعر الحاج أحمد بخجل. . بالعار. . احتقر نفسه. . أتريد أن تأكل وتشبع وتتجشأ وأبوك ميت من ساعة؟

الأتحتمل الجوع يومًا واحدًا إكرامًا للذي أنشأك وجعل منك رجلًا

كسيباً؟ إن الأرواح ترى وتسمع ولعل روح أبيه الآن تبتسم حزناً واحتقاراً لوجوده . . أ هكذا سريعاً؟! ينصرف ذهنك عن الكارثة إلى الأولميت والفول بالطماطم؟ استعاذ الحاج أحمد بصوت مسموع ولوى رأسه بشدة إلى اليمين وكأنه يطرد عنها الفكر السيء . . لكن الشيطان - لعنة الله عليه - ما أمهره . . ها هو يوسوس له بصوت هادئ مقنع : علام هذه الضجة؟! هل صار السحور عيباً أم حراماً؟! إنه لا يمكن أن يتحمل الصيام بدون سحور ، هو أدري بنفسه ، إن لم يأكل الآن سوف يفطر غداً ، أى عار يلحقه عندئذ . . فليأكل لأن غداً يوم صعب . . سوف يقف على غسيل الجثمان وتكفينه ودفنه والحناة والبلا الأزرق! كل هذه الأحوال كيف يتحملها على لحم بطنه؟ ثم هؤلاء المعزون ، الجالسون حوله حزاني ، قبل دقائق من المدفع . . من يدريه أنهم لم يأكلوا فى بيوتهم ، لو أنهم جوعى مثله لما بدت عليهم هذه السكينة ، طبعاً كلهم أكلوا جيداً فى بيوتهم ثم جاءوا ليكون الفقيد بدمع حار ، هو نفسه . . لو أن أباه مات فى مكان آخر غير منزله لأكل وشرب قبل العزاء ، المسألة طبيعية ، لا عيب ولا حرام . . وهكذا . .

تأكلت مقاومة الحاج أحمد حتى تلاشت فى الساعة الثالثة والأربعين دقيقة ، بقيت خمس دقائق وانتفض الحاج أحمد كمن تذكر أمراً هاماً وهو راجع الصالون وهو يدمدم بكلمات معتذرة ، وأسرع الخطى عبر الردهة الصغيرة المؤدية إلى المطبخ ، وهناك . . أمام المطبخ ، رأى الحاج أحمد زوجته دولت ، واقفة فى صمت ، لا تفعل شيئاً ، وكأنها تنتظره ، وكأن سنوات العشرة الطويلة جعلتها تتوقع حضوره إلى المطبخ الآن ، رمقته دولت بنظرة متفهمة ، كانت عيناها متورمتين من البكاء وثمة علامات داكنة على خديها من شدة اللطم ، وهمست بصوت جهدت لتحفظ به حزيناً متهدجاً . .

- أجيب لك زبدية يا حاج؟!

ورغمًا عنها . . فإن صوتها ووقفاتها والنور الخافت المنبعث من المطبخ، كل ذلك أعطى الحاج أحمد شعورًا بأنهما يتأمران على نحو ما، فانفجر فيها حانقًا . . .

- زبدية إيه ونيلة إيه؟ إحنا في إيه ولا إيه؟!

أطرقت دولت وكأنها خجلت وانسحبت في هدوء عبر الردهة ولما اختفت تمامًا . . خطا الحاج أحمد إلى داخل المطبخ وأغلق الباب وراءه برفق وإحكام وهناك، على الرف الرخامي المجاور للحوض، رأى الحاج أحمد طبق الفول بالطماطم الذي لم يأكل منه سوى لقمة واحدة .



جمعية منتظرى الزعيم

«سوف يظل ٢٣ أغسطس - يا إخوانى - محفوراً فى قلوبنا بأحرف من نور، فى مثل هذا اليوم منذ خمسة وعشرين عاماً رحل عنا زعيم الوفد والأمة : مصطفى النحاس باشا، صعدت روحه الطاهرة تلحن الظالمين، يومئذ يا إخوانى أبى علينا الطاغية عبدالناصر أن نودع زعيمنا إلى مثواه، لكننا خرجنا، خرجنا وخرجت معنا مصر عن بكرة أبيها تودع ابنها البار، وتلقفتنا بعد ذلك سجون عبدالناصر فدخلناها راضين محتسبن، لأننا أبناء الوفد العظيم نظل على العهد ما دام فينا نفس يتردد» .

كان الأستاذ كامل الزهار واقفاً على المنصة وصوته يجلجل فى جنبات الحجرة وقد اشتعل حماسه وأخذ يلوح بقبضته فى الهواء ومن ورائه لاحت صورة زيتية للزعيم مصطفى النحاس مرسومة بالحجم الطبيعى على الحائط وبجواره على المنصة جلس القطبان الوفديان . . محمد بك بسيونى - أمد الله فى عمره - المدير السابق لمكتب مصطفى النحاس، شيخ فى الخامسة والسبعين، اعتل الجسد وكلّ النظر لكن القلب فوراً لم يزل بحب الوفد وزعيمه، وإلى اليسار جلس بعباءته الريفية وقامته المديدة الشيخ على سحاب نائب الوفد المعروف وبلديات

النحاس باشا من سمود غربية . أقيم الاحتفال بذكرى النحاس فى
حجرة الجلوس بمنزل كامل الزهار فى المنيرة ، وازدحمت الحجرة عن
آخرها بالمحتفلين حتى اضطر بعضهم لمتابعة الحفل من الخارج ، كانوا
خليطاً من جيران الأستاذ كامل وبعض المارة سعدوا بدافع الفضول
والأكثرية من فقراء الحى ، رجال ونسوة تجر عيالاً ، ملابسهم رثة
متسخة ورائحة عرقهم النفاذة امتزجت بالأنفاس ودخان السجائر
فتكون الجو العطن الخائق الجاثم فى الحجرة الآن ، أنهى الزهار خطبته
وجلس يتصبب عرقاً وسط هتاف كالرعد وحانت كلمة محمد بك
بسيونى - متعه الله بالصحة والعافية - فنهض من مقعده بمساعدة برعى
سائقه الخاص وتقدم على مهل من الميكرفون وأجال النظر فى
الحاضرين لحظة ثم قال : «أريد أن أسألكم يا إخوانى لماذا جئنا الليلة؟
هل جئنا نبتغى مالاً أو منصباً؟ حاشا لله . . بل نحن اجتمعنا من
أجله . . من أجل مصطفى النحاس جئنا نحى ذكراء العطرة . .
يا مصطفى يا نحاس أنت حى . . أنت باق يا نحاس فى قلب مصر ما
بقى النيل والهرم . . يا مصطفى يا نحاس . . انقطع صوت بسيونى بك
فجأة وأطرق . . وفرت دمعة خائنة من خلف النظارة السمكية وسرعان
ما ارتجف جسده العجوز وأجهش بىكاء عنيف ، وساد فى الحجرة
صمت محرج والتهيت حماسة الشيخ على سحاب فهب وهتف بصوته
الأجش ثلاثاً :

«لا زعيم بعدك يا نحاس» وردد الناس وراءه وكأنما أدرك الأستاذ
كامل أن الحاضرين قد تعبوا من الحر والزحام وكثرة التصفيق والهتاف
فقام إلى الميكرفون وشكرهم وقرأ معهم الفاتحة على روح الزعيم ثم
وقف بالباب يودعهم . . انصرف القطبان الوفديان وبعض الحاضرين

لكن الأغلبية ظلت فى الحجرة، كانوا قد حضروا احتفالات الزهار من قبل ويعرفون نظامها فاحتشدوا بجوار المنصة أمام باب جانبى صغير مغلق لم يلبث أن انفتح وظهرت خادمة عجوز ترتدى السواد وتحمل بين يديها صينية كبيرة من السندوتشات، أكوام من أنصاف الأرغفة البلدية المحشوة باللحم المسلوق، وما إن لاحظت مقدمة الصينية من فرجة الباب حتى هجم الحشد عليها بضراوة جعلت الخادمة تلقى بها إليهم واشتعلت فوراً معركة حامية الوطيس وتخاطفت الأيدي سندوتشات اللحم، وعلا الصياح الذى سرعان ما تحول إلى صراخ وشتائم قبيحة، ووقف الأستاذ كامل الزهار فوق المنصة يرقب المتصارعين، ظل هادئاً ولم يتدخل بكلمة واحدة حتى انتهت المعركة وانفض الجمع. كل بغنيته. شيئاً فشيئاً خلت الحجرة تماماً، عندئذ قام الأستاذ كامل وأغلق الباب ثم جلس على أقرب مقعد.



ما الذى ضايق الأستاذ كامل؟! كان الاحتفال رائعاً وكانت خطبته عن مصطفى النحاس موفقة للغاية، استطاع أن يفند كل الافتراءات التى زرعها عبدالناصر فى عقول الناس، حكى لهم كيف وقف النحاس باشا كالأسد فى وجه الإنجليز والملك المستبد. . . وأثبت بالأدلة الدامغة أن حادث ٤ فبراير ينبغى أن يُحسب لمصطفى النحاس وليس ضده، وقد أقنعت بلاغته كل الحاضرين حتى ألهمت أيديهم وحناجرهم من التصفيق والتهتاف. . . كل شىء على ما يرام. . . ما الذى يضايقه إذن؟ الحق أن كامل الزهار نوع حساس من البشر، مجرد كلمة صغيرة قد تسعده أو تؤلمه لأقصى حد، وقد صدمه الليلة منظر الجمهور وهو يتقاتل من أجل اللحم، كان يدرك أنهم فقراء ويعرف جوعاً كثيرة

منهم لكن أن يصل الصراع على الطعام إلى هذه الدرجة الفظيعة . .
ومن؟ من نفس الذين صفقوا وهللوا ساعات للوفد وزعيمه؟ هذه
النقطة شككت الأستاذ كامل في إخلاصهم لمبادئ الوفد، وهنا أحت
عليه كلمة زوجته دولت وهي تناوله الخمسمائة جنيه التي صرفها على
الاحتفال . . قالت له وهي تبتسم بعطف :

- خذ يا كامل ربنا ما يقطع لك عادة . . ولو أن هؤلاء الناس يجيئون
ليأكلوا على حسابنا . . القصد كله بثوابه» .

الفكرة الحادة المدببة التي أخذت تحز في ذهنه أن الوفد قد مات ،
عبد الناصر فشل في كل شيء لكنه نجح في أن يقطع المصريين عن
ماضيهم فنشأت أجيال لا تعرف ولا تريد أن تعرف شيئاً عن الوفد
وزعمائه . . كيف ينظر أولاد الأستاذ كامل - مصطفى وزينب - إليه
عندما يحدثهما عن مصطفى النحاس؟ ابتسامة مجاملة ونظرة لا مبالية
ولولا احترامهما له لسخرأ علناً منه ومن زعيمه . . معذوران . . هكذا
تعلمنا في مدارس عبد الناصر . . ماذا جرى للعالم؟ هكذا تتم الأستاذ
كامل وهو يمد ساقيه ويغوص في المقعد ، تأمل صورة النحاس المرسومة
على الحائط كان الزعيم مرتدياً بدلة التشريف وقد ازدان صدره بالنجوم
اللامعة وعلق على كتفه وشاح القضاء الأحمر والسيوف الفضي يتدلى
من خاصرته وعلى وجهه السمع ابتسامته الجميلة التي تنضح بالشرف
والوطنية .

أغمض الأستاذ كامل عينيه وانسابت من ذاكرته صور بعيدة ، رأى
نفسه طالباً في السعيدية الثانوية محمولاً على الأعناق في مظاهرة
حاشدة . . يهتف والطلبة يرددون وراءه . «عاشت مصر حرة مستقلة»
وتجتاز المظاهرة شارع الجامعة وسرعان ما ينضم إليها طلبة الهندسة ،

فيشتعل الحماس كالجنون ويدوى الهتاف يشق السماء ويحاول الإنجليز
تفريقهم عبثاً فيفتحون النار وتدوى الطلقات ويسقط الشهداء . .
يهتفون باسم مصر ، وفي المساء يهرع هو إلى فيلا النحاس في جاردن
سيتى يرى فى البهو الكبراء منتظرين أما هو . . كامل الزهار زعيم
السعيدية الذى لم يبلغ العشرين فيؤذن له فوراً ، ويلقاه الزعيم مرحباً
وعندما ينحنى على يده يسحبها مستغفراً ويقول : «يا زهار أنت ابنى . .
ابن الوفد . . أرى فيك شبابى» .

ما كان أسعده يومئذ . . أين ذهب كل ذلك ؟ ما أغرب الحياة . . يوماً
قال لزملائه فى السعيدية مزهواً :

«سوف أكون رئيس وزراء مصر . . أنا واثق» . . يكاد يضحك
ساخراً . . ها هى السنون تمر سريعاً ويخرج إلى المعاش موظفًا فى
التأمينات مثل آلاف العاديين . نسيه الناس كما نسوا مصطفى
النحاس . . كان الأستاذ كامل الزهار حزينًا ومتعبًا لكنه فجأة أحس
براحة ، غمره شعور مبهم مريح ولم يلبث أن غشى بصره نور قوى
سطع توهج واقترب حتى أحس بلسعة على وجهه ، انتفض الأستاذ
كامل فزعًا وهرولاً خارجًا من الحجرة لكنه لما نظر إلى الصورة على
الحائط ثبت فى مكانه من الدهول ، كانت الصورة تتحرك . . اتسعت
ابتسامة الزعيم ثم حرك ذراعه الأيمن ولم يلبث أن خرج من الصورة . .
هو . . الزعيم مصطفى النحاس ببذلة التشريفة المرصعة بالنجوم
والطربوش واقف أمامه يتنسم . اندفع الزهار إليه وانحنى على يده
يقبلها واحتضنه وصاح :

- يا سيدى . . أين كنت ؟!

- كنت ميتاً يا زهار ثم دعوت الله أن يعثني حياً فاستجاب . . صدق
الزهار فى الزعيم مشدوهاً .

- أراك مندهشاً من عودتى يا زهار . . « قل من يحيى العظام »
رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة » .

- صدق الله العظيم يا سيدى . . هكذا تمت الزهار ثم استشهد
بصوت متهدج . . يا صاحب المقام الرفيع . . أدرك مصر التى رعبت
لها حياتك . . مصر فى محنة يا زعيم . .
هز الزعيم رأسه وغمغم فى أسف .

- أعرف يا زهار . . كنت فى الحياة الأخرى أتابع الأحداث يوماً
بיום .

- والعمل يا سيدى؟! كيف نقيّل مصر من عثرتها .
- كلمة الوفد لا تتغير يا زهار . . الدستور والديمقراطية .
- لكن الناس تغيرت يا زعيم الوادى . . لم يعد أحد يهتم
بالدستور . . الناس صار همها على بطنها .
- معذورون يا زهار . . الغلاء والفقر ، والظروف صعبة . . لكن
الرخاء لن يتحقق إلا بالديمقراطية .

- لا أحد يفهم ذلك يا سيدى . . لم يعد أحد يذكر الوفد والنحاس .
تلاشت ابتسامة الزعيم وغامت نظرتة وقال بجدية :

- لا تيأس يا زهار . . مصر لن تموت . . هذه كنانة الله فى أرضه . .
سوف يخرج شباب جديد يعرف للوفد قدره . . اسمع . . أماننا جهاد
متصل ومضن . . ألم تزل على العهد يا كامل؟!!

- زوحي فداء الوفد وزعيمه . . هكذا هتف الأستاذ كامل في حماس .

- عظيم . . فلنبداً فوراً . . سوف أعطيك يوماً واحداً . . أريدك أن تجتمع زملاءك وتنتظروني يوم الاثنين . . الساعة الثامنة صباحاً . . انسلّم عليكم .

- إلى أين يا زعيم؟!

بدا وجه الزعيم شاحباً وتغيرت نظراته وكأنه يرقب شيئاً بعيداً في الأفق وقال بصوت مجهود وهو يتراجع بظهره ناحية الحائط .

- ينبغي أن أصعد الآن لأنني مرتبط بموعد في السماء . . أوصيك خيراً . .

هرع الزهار وراءه بلهفة :

- أين تنتظر يا سيدي؟

- أمام بيت الأمة .

هكذا نطق الزعيم بصعوبة وقد التصق بالحائط عمالماً ومد الزهار يده ليمسكه لكن دواراً قوياً غشيه فجأة ، ولما انتبه كانت صورة مصطفى النحاس قد عادت كما كانت مرسومة على الحائط .

* * *

نظام محمد بك بسيوني في الصباح لا يتغير ، يستيقظ مبكراً ويستحم ويغير «البيجاما» ثم يترىض «بالروب دي شامبر» في حديقة فيلته بالمعادي ، ويكون برعى السائق قد أحضر الجرائد فيجلس لقراءتها في الحديقة مستخدماً العدسة المكبرة وهو يحتسى كوب اللبن الدافئ ،

فى الأعوام الأخيرة تعرض بسیونى بك لأزمات صحية عديدة تركت أثراً على تركيزه، ولذلك فعندما فوجئ ذلك الصباح بكامل الزهار واقفاً أمامه ارتبك لحظة ثم رجب به، وما إن جلس الأستاذ كامل حتى بدأ يحكى أن الزعيم مصطفى النحاس قد زاره بالأمس وعندئذ حدّق فيه بسیونى من خلف النظارة وقال :

- تقول من زارك أمس يا كامل بك؟!!

- النحاس باشا . . خرج من الصورة فى حجرة الجلوس .

- آه!!

هكذا تتم بسیونى بك وراح بعد ذلك يسمع للزهار وهو يتسم مجاملاً بغير اهتمام، ولم يلبث كامل أن حدّجه بنظرة عاتبة وقال :

- ألا تصدقنى يا بسیونى بك .

- العفو يا كامل بك . . طبعاً أصدقك .

رد بسیونى بأدب والابتسامة لا تفارقه .

«هذا العجوز لا يصدقنى ويسخر منى . . هكذا قال الزهار لنفسه بغيظ وهو يخرج من باب الفيلا ولما جلس فى التاكسى قال : «أنا لست مجنوناً . . لم أكن فى حياتى أعقل منى اليوم . . لقد لمست مصطفى النحاس بيدى وتحدّث معه، هذه حقيقة مؤكدة وغداً سوف يأتى إلى النحاس باشا . . سوف أصحبه معى فى كل مكان نذهب سوياً إلى الجرائد وإلى مجلس الشعب وسوف نطلب لقاء رئيس الجمهورية نفسه، سوف نكون - أنا والزعيم - عناوين جرائد الثلاثاء وعندئذ . . سوف نرى ما يقوله محمد بسیونى .

توقف التاكسى أمام منزل الشيخ على سحاب فى شارع مراد وكان
الشيخ على قد فرغ لتوّه من صلاة الضحى وجلس يسبح ورحب
بصديقه كامل الزهار الذى أسرع فقص عليه ما حدث بالتفصيل ، وساد
السكون لحظة ثم دمدم الشيخ على بصوته الأجش :

. حكاية أغرب من الخيال . .

وهنا صاح الزهار .

. اسمع يا شيخ على . . إذا كنت لا تصدق قل لى وأنا أنصرف . .

ورد الشيخ على مهدئاً .

. طبعاً أصدقك يا كامل . . أنت عشرة عمر . . والأرواح حقيقة . .

«يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي» صدق الله العظيم . .
إنما . . أنت واثق إنه النحاس باشا؟!!

هب الأستاذ كامل واقفاً ليحسم الأمر .

. لقد رأيت النحاس باشا كما أراك الآن وتحدثت معه . . اسمع . .

أنا ذاهب غداً للقاء رفعة الباشا . . تأتى معى أو لا تأتى؟!!

بان التفكير العميق على وجه الشيخ ولم يلبث أن وقف ومد يده
مصافحاً الزهار وقال بصوت يشوبه تردد .

. آتى معك بإذن الله . .

* * *

هل يستطيع الأستاذ كامل الزهار أن ينام الليلة؟! رقد بجوار زوجته
فى الظلام ، راح يدخن ويفكر فى الغد . . طبعاً ستكون مفاجأة للجميع

وبعد ذلك؟! سوف ينظم مع الزعيم حملات ضخمة . . يطوفون مصر كلها، كل مصري ينبغي أن يرى الزعيم ويستمتع إليه فى المدن والكفور والنجوع وفى أول انتخابات قادمة يكتسح الوفد كالعادة ويشكل مصطفى النحاس وزارة وفدية يكون الزهار وزيراً فيها، سيختار إما «المالية» أو «الاقتصاد» هذا مجاله الذى يعرفه . . «الخارجية» شغلها دقيق وخطر و«الداخلية» لا تناسبه إطلاقاً . . استيقظت «دولت» وأضاءت النور ونظرت إليه بقلق . .

- لماذا لم تنم يا كامل؟!

- أبداً . . .

لو تعرف شريكة العمر ما يخبئه الغد؟! يا عزيزتى دولت بعد أقل من عام تكونين حرم الوزير . . ألم تحتلملى كامل الزهار موظف التأمينات ربع قرن بغير تدمير أو شكوى . . اقطفى إذن يا أصيلة ثمرة صبرك الطويل . . تحين إلى بيت الله كما تمنيت والمصيف بعد ذلك فى أوروبا، أنا وأنت ومصطفى وزينب أحبائى، دنا الزهار من زوجته وطبع على جبينها قبلة وهمس بحنان: تصبحى على خير . . وتظاهر بالنوم وفى تمام الساعة صباحاً انتفض من السرير وبعد ربع ساعة كان يهرول فى الشارع الخاوى قاصداً بيت الأمة، يجب أن يصل إلى هناك قبل الزعيم . . هو يمكنه أن ينتظر الزعيم أما العكس فلا يليق .

كان بيت الأمة مغلقاً وعلى الباب لافتة نحاسية:

«متحف بيت الأمة . . الزيارة من ١٠ - ٣ ما عدا الجمعة» انبئ العريق مغطى بالأتربة الكثيفة والحديقة مهملة جرداء والزهار شعر بحزن وعزم فى نفسه على أن يكون تجديد بيت الأمة أولى المهام

الوزارية . الساعة الآن الثامنة إلا ربع وقد وصل من لحظة الشيخ على
سحاب وصافح الزهار ووقف بجواره على الرصيف ثم لاحت من أول
الشارع سيارة كاديلاك سوداء تنهذى ، اقتربت حتى توقفت أمام
الصدّيقين ونزل منها محمد بك بسيونى ، وعندما هرع إليه الزهار
يصادفه بادره قائلاً فى تأثر . .

- النحاس سيحضر يا كامل . . النحاس لا يخلف مواعده .

تمام الثامنة والشارع ازدحم بالسيارات والمارة ، على الرصيف المقابل
اجتمع الناس حول عربة فول وهذه أفواج الموظفين فى الوزارات القريبة
يهزولون ليلحقوا بموعد العمل ، وأمام بيت الأمة لا يزال الثلاثة
واقفين . . الأستاذ كامل الزهار والشيخ على سحاب ومحمد بك
بسيونى ، يتطلعون بلهفة إلى أول الشارع حيث يصل . بعد لحظات -
الزعيم الجليل ، صاحب المقام الرفيع ، مصطفى النحاس باشا .



نظرة إلى وجه ناجى

مدرستى . . المبنى العتيق بنوافذه وشرفاته المستديرة وأعمدته الضخمة ، يبدو فى غيمة الصبح المبكر كقلعة مهجورة . تفتح البوابة الخشبية ببطء فيتراعى الفناء النسيح بأشجاره الكبيرة الجرداء ، أوراقها الصفراء الجافة تنتشر على أرض الفناء ، ندهسها ونحن نلعب فى الفسحة فتصدر « خرخشة » خافتة وتفتت . . . ونحن جالسون فى الفصل بمرايلنا الزرقاء عليها شعار المدرسة العريقة ، نصت إلى معلمنا « الفرير » . . أتذكره بوجهه العجوز وصلعته ونظارته وعينيه الزرقاوين وحذائه العسكرى المتجهم وثوبه الرهبانى الفضفاض الأبيض على صدره نقش صليب مهيب وعصاه . . آه من عصاه الطويلة الرفيعة ، المؤلمة كالنصل ، الخاطفة كالطلقة . . يتجول بيننا الفرير ويقرأ من الكتاب ، صوته رتيب يتكرر بلا نهاية . . الهواء فى الفصل ساكن والنعاس القريب يداعبنى والنافذة بجوارى أطل منها على السيارات والمارة وعم كامل بائع الدوم ، أتسلى بالفرجة على الشارع حتى أنتبه على وخز العصا فى ظهري وصوت الفرير يدهمنى :

- أكمل القراءة .

أموت . أحدى مرتجفا فى الكتاب ، لكن السطور الصغيرة تتداخل
أمام عيني .
- افتح يدك .

الفرير أمامى والعصا مشرعة فى الهواء . . لا مفر . . أمد يدي
فيقبضها ويهوى عليها بالعصا . . أصرخ وأبكي وأتضرع إليه أن يعفو
لكنه يضرب ويضرب ثم يتركنى أسقط على مقعدى ، أنظر دامعاً إلى
التلاميذ حولى ، اشهدهم . . لكنهم يتظاهرون بالقراءة ومتابعة
الشرح ، يتجاهلوننى ولو سألتهم الآن لأجابوا جميعاً وهم يصطنعون
البراءة : «ماذا حدث لك ؟ نحن لم نر شيئاً ولا نعرف شيئاً» بل إنهم بعد
ذلك ، ما إن يلقى الفرير بسؤال حتى يتفافزوا على مقاعدهم وأصابعهم
مرفوعة ، كأنهم بحماسهم للإجابة ينغون أية صلة تربطهم بى ، كأنهم
يقولون للفرير ؟ : «هو الذى عصاك وحده . . أما نحن فتلاميذك
المخلصون دوماً» .

كفى يؤلمنى ويعلو بكائى لكن الفرير لا يلتفت ، يستأنف القراءة كأن
لم يكن ، ربما فقط يزم شفتيه الرفيعتين قليلاً وكأنه يقول محذراً :
«انظروا ، هكذا جزاء من يعصانى !» ومن ذا الذى يجروء ؟؟ ! نحن
خضعنا لك يا معلمنا وامتثلنا وصرتنا . مع الوقت والطاعة . أجزاء منك ،
كأصبعك ، تقبضنا وتبسطنا وتصنع بنا ما تشاء . . أحياناً ، ينسبط الفرير
فيستسم وينادينا مداعبا بأسماء الحيوانات وفورا نلتقط الإشارة : نضح
بضحك صاخب ونصيح بأعلى صوت ونضرب الأرض بأقدامنا . .
وكأننا نفرغ دفعة واحدة . كل ما خبأناه طويلاً تحت وجوهنا الساكنة
المؤدبة ، ثم تحل النهاية كالبداية ، بإشارة ، كحة خفيفة من الفرير أو
تحذيقه مباغتة تجمدنا فى أماكننا . . ننكمش ، لا صوت ولا نفس

مدركين أن شعرة واحدة من الانفلات الآن هي الهلاك المحقق، يرعبنا مجرد تصويره كتصور الوحش الخرافى فى الظلام.



ثم يجرىء ناجى، يقف ذلك الصباح على باب الفصل، يتطلع إلينا بعينيه العسليتين المدهوشتين . . يبهرنا ما أجمله! بياض وجهه شاحب وشعره الكستنائى الناعم يسدل ومريسته أنيقة مكوية وحقيقته جلدها فاخر مصقول لا رتق فيها ولا اهتراء كحقائقنا المنبعجة، حتى سندوتشات، رقيقة بيضاء مثله، شرائح من الخبز الأفرنجى الناصع مدهونة بالزبد يحملها فى كيس شفاف أنيق، كأنها الحلوى التى نأكلها فى أعياد الميلاد . . قال الفرير: «ناجى زميلكم الجديد» ثم تفتت يبحث له عن مكان وكان جوارى خالياً فتمنيت . . . «هل يكفى أن نرغب بقوة حتى تتحقق الرغبة؟» ها هو الفرير يشير إلى حيث أجلس وناجى يقبل على، يهمس بالتحية ويجلس وأشم الشذى الخافت المنبعث من ثيابه، أظلم بقية النهار أتفحصه، أتشممه، حتى يدق الجرس فتكلم . . يخبرنى بأن أمه فرنسية وأباه مصرى وأحكى له عن نفسى، أنتظر معه على باب المدرسة حتى تأتى السيارة الفارحة ينزل منها سائق يحمل الحقيبة وأسأله بلهفة وأنا أضافحه: «هل نحن أصحاب يا ناجى؟» فيومئ إلى برأسه أن نعم ويركب . . وفى البيت أشد ثوب أمى فى المطبخ حتى يكاد الطعام الساخن أن ينسكب عليها، أريدها أن تنصت وأنا أحكى لها عن ناجى وأضبط نفسى بعد ذلك وأنا أقلد وجهه، أقلص ملامحى أمام المرأة، أتمنى أن أرى غمازتين كاللتين تظهران فى وجه ناجى إذا ضحك .

. . وبسرعة يعتلى ناجى مكانته فى الفصل، هو أجملنا وأذكانا،

لمعة خاطفة من عينيه تعنى ساعة كاملة من شرح الفرير ونظّل نحن وراءهما، نلهث ونتعثر وفي النهاية نحدّق في السبورة ونهزء وسنا كأننا فهمنا، حتى نطقنا الفرنسي ما أغلظه بجوار نطق ناجي الرقيق الطلق، فرنسيته كفرنسية الفرير وربما أفضل، ثم نكتشف شيئاً فشيئاً أن ناجي لا يخاف كما نخاف، لا يمتنع وجهه ولا صوته يتهدج ولا يهرب بعينه إلى الأرض والسقف، يقف أمام الفرير بقامته الكاملة، يكلمه بوضوح وثقة تزداد كل مرة وكل مرة نتوقع نحن الحادث، وكأن ناجي سيارة مسرعة تندفع بقوة إلى قمة الجبل والقمة وراءها السفح، نغمض عيوننا ونتنظر صوت الارتطام الرهيب لكنه لا يحدث. . بالعكس، يلاطف الفرير ناجي ويصبر عليه ونفرح نحن ولا نسأل أنفسنا «لماذا اصطفى الفرير ناجي من دوننا؟» .

لا نسأل لأننا نحب ناجي ومن نحبه كأنه نحن، نحن الذين ترتفع رءوسنا أمام الفرير. . نحن جميعاً ناجي، لا نخاف ولا نضرب «حتى لو ضربنا كل يوم» وفي الفسحة نزدحم حوله، نرجوه أن يلعب معنا ونتنافس لنشرح له اللعبة ويا زهو من يستطيع منا أن يضحكه. . كان ناجي سعيداً وكنا سعداء به حتى ذلك اليوم، كان الفرير يجمع كراسات الواجب كعادته فوقف ناجي أمامه وقال بصوته الواثق: «أسف! لقد نسيت الكراسة!» اختلج وجه الفرير ثم زم شفثيه كأنه عزم وقال:

«افتح يدك!» لكن ناجي لا يفتح يده ولا يهتز ويعلو صوت الفرير رهيباً: «افتح يدك» فيظل ناجي ثابتاً كالصخرة وندفع نحن وراءه نسنده بأيدينا الصغيرة المرتعشة لكن الفرير يزمر ويرفع يده عالياً ويهوى على وجه ناجي فنصرخ جميعاً بلا صوت ويبدو كل ما يحدث خيلاً لأن ناجي يتصرخ وجهه ويصيح:

«الضرب ممنوع» فيجلجل صوت الفريير كالرعد: «اخرج يا حيوان . . أنا سأرييك . . » خطوات صغيرة مندفة تشوبها رجة تليها خطوات كبيرة صارمة لا تعرف الرحمة، وما إن يخلو لنا الفصل حتى نجح، نقفز من أماكننا ونجري ونصرخ مئة مرة كأنما نسمع الفريير:

«الضرب ممنووو . . ع» وتحتشد في أذهاننا مشاهد كثيرة تنتهي كلها بالفريير ساقطاً على الأرض والدم يسيل من وجهه وناجي بجواره منتفخ الصدر مزهواً يذاه في خصره كالبطل المنتصر في أفلام المغامرات .

يرجع الفريير وحده، يجمع الكراسيات من جديد ولكن عبثاً . . ما كان قد كان وشيء ما قد تغير ويقوم تلميذ آخر نسي كراسته لكن الفريير لا يضربه، يلوح غاضباً بيده ويشيح بوجهه ثم يمضي «كأنه لا يستطيع أن يضربه لكنه زهق من كل شيء» . . . ها أنت تكذب يا معلمنا وأنت انكسرت ونحن نراك الآن بعيوننا الجديدة فنجدك عادياً ولو خلعنا عنك ثوب الرهينة لصرت واحداً من المارة . . انقضى النهار والقلق ينهشنا على ناجي وفي المساء حكينا في بيوتنا ما جرى، لم تع أمهاتنا تماماً وانزعج الآباء من فكرة التمرد فسعوا لإثباتنا بلطف وعاد ناجي في الصباح، وقف معنا في الطابور وازدحمنا حوله بألف سؤال لكنه لم يجب، ابتسم وسكت، لم يكن وجهه ممتقاً ولا معذباً لكنه أيضاً ليس كوجهه بالأمس، وبدأت الحصاة فجلس ناجي وشرح الفريير كالمتعاد وبعد قليل - كأنه اتفاق - نادى الفريير ناجي ووقف الاثنان في مواجهتنا وقال الفريير بلهجة منذرة: «سوف أذهب دقائق إلى مكتب المدير وناجي سيقف عليكم . . كل من يكتب ناجي اسمه سأضربه عشر عصى!» .

. ويقف ناجى علينا، يشبك يديه وراء ظهره، وتتسع عيناه
تفحصان فينا ببطء، تفتشان عن هفوة . . كل التلاميذ التزموا الحذر،
عقدوا أذرعهم أمامهم وأطرقوا خاشعين يقرءون وراحوا يسرون إلى
بنظرات جانبية محذرة . . يقولون «تغير الحال فالزم الحذر» لكنى لم
أحذر، ولماذا أحذر من ناجى وأنا صديقه؟ وجدتني أصبح فجأة:
«يا ناجى . . » أناديه وكأننى أستبقيه معى، أتشبث به لكنه يدفعنى بقوة
بعيداً ثم يستدير إلى السبورة يكتب اسمى ويجىء الفريز ويضربنى عشر
عصى أمام الفصل .

. ها أنا . . يبلل الدمع وجهى ويدى يمزقها الألم وألتفت
إلى ناجى، الواقف دائماً بجوار الفريز، أظل أنظر إليه، عساه إذا
التقت عينانا، يطأطئ رأسه خجلاً . . مرة . .



لماذا يا سيد؟؟؟

(سؤال)

لماذا يا سيد يا عبد التواب؟! لا هي أول مرة ولا كان ما حدث مفاجأة لك . . ثم إن الشاب مهذب ولطيف وأنت الذى سعيت إليه . . لما رأيته يهبط من «الباص» أمام المتحف والكاميرا على كتفه ، أعجبك هدوءه ، لم يكن يسعى للفت الأنظار كالآخرين . . أنت الذى اقتربت يا سيد وبادرتة بتحية وقلت إنك شاب مصرى تود معرفته . . عندئذ ومضت عيناه الزرقاوان دهشة ثم انفرجت شفتاه بابتسامة مرحبة لم تخل من ريبة بددتها أنت سريعاً بحديثك الحار الطلق . . ألم تكن يا سيد سعيداً معه فى المطعم؟! تدفق بينكما حوار شجى طويل ودعاك هو إلى كأسين بعد العشاء ، كصديق قديم فتح لك قلبه وعرفت أنه عامل فى مستشفى «بوسطن» وأخبرته أنت عن دبلوم التجارة ولما حسبت له مرتبك بالدولار لم يصدق فى البداية وعندما تأكد ضحك طويلاً حتى إنك لم تملك نفسك وضحكت معه .

إذا كان السبب ما قاله عامل الأسانسير فى الفندق فهو - فى النهاية - مجرد خادم ، وهل يهتمك يا سيد ما يظنه بك الخدم؟! ومع ذلك فماذا

حدث فى الحجرة؟! حكى لك الشاب عن تعلقه بأمه وأطلعك على صورتها ولما قلت له إنها تشبه خالتك أكد ضاحكا أنكما قريبان . . كان قد سكر قليلاً لكن الخمر لم تزده إلا لطفاً . . ولما طلبت منه يا سيد هل تردد؟! ألم يهرع ودس لك المائة دولار فى جييبك؟! وبعد ذلك (وأنت الخبير يا سيد) هل كان فظا بلا إحساس أم ظل رقيقاً معك للنهاية؟! معك الآن عنوانه فى «بوسطن» ومن يدرى؟! قد تزوره يوماً هناك . . وها أنت يا سيد جالس تفطر فى «الميريديان» تأكل وتشرب كملك الزمان وما عليك إلا أن توقع الفاتورة برقم حجرته «٥١١» وكلها نصف ساعة والبنوك تفتح وتذهب إلى أقرب بنك ، أى بنك تحول فيه المائة دولار وأنت واقف . . ما هى المشكلة إذن . . هكذا بلا سبب يا سيد . . تبكى كالأطفال؟!!

* * *

حصة الألعاب

كنا- نحن تلاميذ خامسة ابتدائي- ننتظر حصة الألعاب بفارغ الصبر . . صباح الثلاثاء، نخلع ملابس المدرسة ونرتدى زى الألعاب «الشورت الأبيض والفانلة البيضاء والحذاء الكاوتش» . . تجمعنا أبله سعاد مدرسة الألعاب فى الفناء، نفث ثلاثة صفوف متوازية، نؤدى التمرينات الرياضية ربع ساعة ثم نلعب بالكرة بقية الحصة.

لم يكن زميلنا محمد الدواخلى يشترك معنا فى الألعاب لأنه كان بديناً للغاية . . لم يكن يستطيع- بجسده الضخم وبطنه المترهل وعجزته الكبيرة- أن يرتدى الشورت مثلنا أو أن يستلقى على ظهره ويرفع ساقيه عالياً كما نفعل فى التمرينات . . لم يكن بمقدوره حتى أن يلعب معنا بالكرة، وهو الذى يتصبب عرقاً وينقطع نفسه لأقل مجهود ومن ثم، حدث اتفاق صامت ما، تجاهلت أبله سعاد بموجبه الدواخلى تماماً، فصار يقضى حصة الألعاب جالسا على درجات السلم المفضى إلى الفصول . . يقعد هناك . . بملابس المدرسة الجاكت الكحلى والبطلون الرمادى الطويل، يراقبنا فى صمت، أما نحن فما إن تقذف إلينا أبله سعاد بالكرة «الكفر» ذات المربعات البيضاء والسوداء حتى ننطلق جميعاً فى نفس واحد صيحة عالية «هياااااا» . . نلتقط الكرة

فوراً ونخوض نقاشاً عنيفاً حتى نتوصل إلى تقسيمة مناسبة، نلعب فريقين ويكون المرمى مشتركاً نحدده بقالبين من الطوب الأحمر، وما إن يبدأ اللعب حتى ننسى الدنيا، نجري بالكرة ونراوغ ونسجل الأهداف ونقلد اللاعبين الكبار الذين نشاهدهم فى التلفزيون. . فما إن يحرز أحدهما هدفاً حتى يندفع إليه زملاؤه مقبلين مهتئين ويختره هو ساجداً على أرض الفناء، يشكر الله على الهدف أو يجرى رافعاً يديه ناحية الأشجار المصطفة على جانبي الفناء، يتخيلها كأنها مدرجات مزدهمة بالجماهير الهادرة.

فى تلك الأثناء ننسى الدواخلى تماماً، نتذكره فقط إذا اختلفنا على لعبة ما، نلتفت إليه فى مجلسه البعيد ونصيح بانفعال - «الكرة جول يا دواخلى؟!».

عندئذ. . يقف الدواخلى وقد بدت على وجهه المكتنز أمارات الجحش، يهرع إلينا ويمد ذراعه مشيراً إلى موقع اللعبة ويقول - لاهثاً - فى حزم:

- «الكرة جاءت من هنا. . تبقى جول مائة فى المائة». هكذا يلقي بكلمته الفاصلة ثم يعود، بعد ما أدى واجبه، إلى درجات السلم. . يجلس ويراقب اللعب من جديد. . عندما أسترجع ذلك الآن، أدرك كم كان الدواخلى يتوق إلى اللعب معنا، كم كان يتمنى لو أن له بدلاً من جسده البدين المضحك جسداً عادياً صغيراً كأجسادنا. . لكننا كنا صغاراً، أصغر من أن نفهم. . كنا نراه كائنًا ضخماً طريفاً يبعث على الضحك والتسلية، تماماً كالأفيال والدببة التى نذهب إلى السيرك لنشاهدها. . وكانت السخرية من الدواخلى بالنسبة إلينا إغراء لا يقاوم، فكنا نغيره ببدايته دائماً حتى إن بعض التلاميذ صاروا تقريراً،

متخصصين فى مضايقة الدواخلى فكان الواحد منهم ، خلال الدقائق الفاصلة بين حصة وحصة ، ينهض من «التخته» وقد ارتسم على وجهه تعبير مشاكس عابث ، ينطلق إلى حيث يجلس الدواخلى وينقض عليه ، هكذا بلا سبب ولا كلمة واحدة ، يصفعه بقوة على قفاه ويجرى أو يخطف منه كراسة أو قلمًا أو - أضعف الإيمان - يقف أمامه على بعد مسافة تجعله آمنًا ، ويبدأ فى الاستهزاء به بصوت عال . . يقول مثلاً «يا دواخلى يا عجل!! . . ما الذى جعلك سمينًا لهذه الدرجة؟! ماذا تأكل فى بيتكم يا بغل يا حلوف؟!» ويستمر فى ذلك حتى يضح التلاميذ بالضحك .

وكان الدواخلى يستسلم للهجوم ، كان يدرك عجزه عن اللحاق بالمهاجم إذا طارده ، وكان يعرف بالخبرة أن مقاومة الهجوم قد تزيد من وطأته ولذلك كان يظل جالسًا ، صامتًا ، بجسده المحشور فى التخته ، يتظاهر بأنه لا يسمع أو ربما تبدو على وجهه ابتسامة صفراء خافتة ذليلة يتوسل بها لمن يهاجمه كى يكف . . وعندما يصفعه أحدهم ويجرى كان الدواخلى يلتفت إلينا - نحن الضاحكين - ووجهه مربد لم يزل من أثر اللطمة ثم يتنهّد ويهز رأسه كأنما يتعجب ويسألنا : «الولد ده مجنون؟» .

وبرغم ذلك ظل الدواخلى يتودد إلينا بكل طريقة . . كان يقرضنا أى شىء عن طيب خاطر ، ما إن نطلب حتى يعطينا سندوتشا أو كراسة أو حتى قلمًا إذا نسى أحدنا قلمه فى الامتحان وكان يبادر بالاتصال بأى تلميذ غائب ليملأ عليه ما فاتته ، وما إن يراك الدواخلى فى النسخة حتى يفتحك فى موضوع يهيمك ، كأنما ليلهيك عنه ، يحدثك عن زيادة المصاريف أو صعوبة مادة الجغرافيا أو ربما يجذبك من يدك ويتحنى بك

ويهمس بلهجة من يفضى بسر خطير، يقول «إنه قد بلغه أن مدرس
العربي سوف يجرى غداً امتحاناً مفاجئاً . . فخذ حذرك . .» ثم يربت
على كتفك بود ويمضي .

كل ذلك فعله الدواخلي حتى نحبه أو على الأقل نخجل من لطفه
معنا فتمتنع عن إيذائه، لكن محاولاته كلها ذهبت سدى . . كنا نستمع
إلى أخباره المثيرة ونتقبل مساعدته ونشكره، لكن حديثنا معه يظل دائماً
متوتراً محفوفاً بالخطر، يتأرجح عند نقطة ما، على حافة حرجة ثم
ينقلب فجأة فنعود إلى السخريّة منه ومعايرته .

غابت أبلّة سعاد وسمعنا أنها انتقلت إلى مدرسة أخرى . . جاء بدلاً
منها الأستاذ حامد، بقامته الفارعة وعينيّه الواسعتين القويتين ووجهه
العابس والخيرزانة لا تفارق يده، طويلة رفيعة لها طرف مدبب مؤلم
يلهب ظهورنا وأيدينا إذا تهاونا قليلاً في أداء التمرينات . . كان المدرس
الجديد صارماً وما إن رأى الدواخلي جالساً بملابس المدرسة على
درجات السلم حتى استدعاه وسأله عن زى الألعاب لماذا لا يرتديه؟!
أطرق الدواخلي ولم يجب فأنذره الأستاذ إن لم يحضر بالزى في
الحصّة التالية .

وفي الفسحة تخلّقنا حول الدواخلي نسأله فأعلن بوضوح أنه لن
يرتدى زى الألعاب أبداً . . وأكد أن التلاميذ الذين لهم «ظروف» مثله
ممنوع ارتداؤهم زى الألعاب، وأن هذه مسألة معروفة!

وبرغم تأكيد الدواخلي إلا أن شيئاً ما في صوته وعينيّه جعلنا نشعر
أنه في ورطة وأنه لا يعرف ماذا يصنع . . وفي الحصّة التالية انتظمنا في
الصفوف استعداداً للتمرينات والتفتنا ناحية الدواخلي فلم نجد، لم

يكن جالساً على السلم كعادته . . رحنا لنجوب بأنظارنا أنحاء الفناء حتى
عشرنا عليه . . كان هناك ، متوارياً خلف الشجرة الكبيرة المجاورة
«للكانتين» أخفى جسده وراء الجزع الضخم وأطل برأسه يرقب
الموقف . . كان أشبه بنعامة حائرة تحاول أن تختفى ولكن عبثاً . .
لمحه الأستاذ وزعق يناديه فهرع الدواخلي إليه وعاجله الأستاذ
بصوت منذر :

- جبت زى الألعاب ؟

سكت الدواخلي لحظة ثم - لدهشتنا - هز رأسه أن نعم .

فقال الأستاذ : اطلع غير وتعال .

سرت همهمة بين التلاميذ . . هذه فضيحة الموسم . . الدواخلي
يرتدى الشورت ويلعب تمرينات ؟ ! سوف غوت من الضحك على
منظره ولسوف نشبعه سخرية واستهزاء ، تملكنا فضول عارم ورغبة قوية
خبئة كتلك التى تملك المشاهدين فى مباريات المصارعة . . نريد الآن
أن نوذى ونؤلم ونشمت . . تعلقنا أنظارنا بالسلم ، من هنا يظهر
الدواخلي بعد لحظة . . أخذنا نتململ من فرط اللهفة ، كوحوش
صغيرة تتلمظ فى انتظار الفريسة . . ولم ننتظر طويلاً ، ها هو الدواخلي
يهل نازلاً الدرج ومنظره أغرب بكثير مما تصورنا . . فائلة الألعاب
أبرزت له ثديين كأنه امرأة ، وبطنه الكبير يتدلى ويترجرج ، وفخذه
السمينان بان بياضهما الناصع ، وعجيزته الهائلة قسمها الشورت إلى
فلقتين متساويتين متجاورتين . . تهبط واحدة وتصعد الأخرى وهو
يمشى .

دوّت عاصفة من الضحكات ، استغرقنا فى الضحك جميعاً حتى

الأستاذ حامد، انفرجت شفتاه عن ضحكة عريضة . . رحنا نصفق ونصفر ونصيح . . «يا دواخلى» وكان على الدواخلى أن يقطع الفناء لكى يصل إلينا فلم نطق صبراً، انطلقنا راكضين إليه والتفنا حوله نضحك ونصفق، وبدا الدواخلى يتصرف بطريقة غريبة، أخذ يضحك ويتظاهر بأنه لا يتمالك نفسه من الضحك ثم بدأ يبتنى فى مشيته ويبالغ فى إبراز عجيزته ويربت بيديه على بطنه، كان قد قرر أن يبدو مضحكاً لأقصى درجة وكانت هذه طريقته ليفلت من الموقف . . كأثما يقول لنا: «أرأيتم . . ها أنا مضحك للغاية، لدرجة أننى أضحك على نفسى . . فماذا تريدون؟!» .

وصابقتنا هذه الطريقة على نحو ما، كان ضحك الدواخلى المصطنع يبع قوة السخرية، لم تكن تكتمل بهجتنا بغير ألمه وغضبه . واستبدت بنا الرغبة الشريرة للنهاية كأن شيطاناً تلبسنا حتى إننا لم نأبه لنداء الأستاذ من خلفنا لكى نعود . . اقتربنا من الدواخلى وأمعنا فى الاستهزاء به وانقض عليه أكثر من واحد وصفعوه وجروا، لم نعد فى تلك اللحظة نضحك على منظره بل صرنا نضحك بشدة فقط لكى نؤله، حتى نكسر تلك القشرة اللامبالية التى يدارى بها حزنه . . ولم يستسلم الدواخلى، استمر يصطنع الضحك ويتبنى فى مشيته لكننا شددنا الهجوم أكثر وأكثر وقال أحدها شيئاً عن ثديه الذى يرضع به الأطفال فانفجرنا ضاحكين بشدة، عندئذ فقط، توقف الدواخلى عن المشى وطوح ذراعيه بقوة لبضربنا لكن ضرباته طاشت كلها فأخذ يحدق فينا وفتح فمه ليقول شيئاً ثم ارتعشت شفتاه وأجهش بالبكاء .



كلا ب بوكسر... جميع الألوان

«فواز حسنين» . . هكذا سوف يهمس إليك وهو يقدم نفسه ،
وعندما تراه لا بد أن تحبه ، لأن فواز حسنين رجل لطيف . . وهو أيضاً
«عائق» يشهد بذلك شعره المدهون بالفازلين و«الكاريه» الذى يعمل به فى
رأسه على طريقة «أنور وجدى» . وكذلك الحزام الجلدى العريض الذى
يلتف حول كرشه الضخم وتتوسطه «توكه» نحاسية مكتوب عليها
«حب LOVE بالإنجليزية» وأخيراً الأحذية اللميع ذات البوز المدبب
والكعب «كوباية» التى يؤثرها فواز بشكل خاص . . كل هذه موصات
انتهت من عشرين عاماً - أيام كان فواز شاباً - لكنه ما زال حريصاً عليها ،
وهو أحياناً يستشعر فى نفسه مدى أناقته فتراه وهو يكلمك يتأمل توكه
حزامه أو بوز جزمته بإعجاب وارتياح ، وفواز حسنين أيضاً مؤدب ،
مؤدب لدرجة تخجلك . . يكاد يذوب من الأدب . . ما إن يراك حتى
يهزول إليك مصافحاً ، ينحنى أمامك بشدة ويقوس ظهره وكأن الود
وده لو ينكمش جسده الضخم ويتضاءل احتراماً لوجود سيادتك . .
وهو إذا تحدث إليك همس وسبل عينيه وكور شفثيه الغليظتين ورققهما
وكأنهما متقار عصفور صغير برىء . . لماذا لا تحب فواز إذن؟ مع كل
هذا الأدب وهذه الوداعة ، الإجابة يعرفها «سكان حارة السكر

والليمون» حيث تعود فواز أن يجلس فى مقهى على أول الحارة، هؤلاء رأوا فواز وهو يتشاجر بالمطاوى والكراسى، حيث يطم شفتيه فى تحفز ويحذج غريمه بنظرة نارية ثم يستهل المعركة بسيل هادر من الشتائم التى تدور عادة حول الحياة الخاصة بوالدة الغريم . . هؤلاء لن ينسوا يوم أن تشاجر فواز مع الصول عبد الغنى عقب دور كوتشينة لعباء على فلوس . . يومئذ جمع فواز عيال الحارة ووقف معهم تحت بيت عبد الغنى عند شريط القطار . . وجعل ينشد بصوته الجمهورى المشروخ والعيال يرددون وراءه فى مرج: «يا تخينة يا فقلة يا مراة العسكرية . . تاكلى بسلة وت . . . جمبرى» . . .

هذا هو فواز حسنين الذى يعرفه الناس فى الحارة . . لكنهم لا يعرفون كل شىء فلا أحد يعرف ماذا يعمل فواز؟ أحياناً يكون معه فلوس وفى معظم الأحيان يكون مفلساً . . وفى ذلك الصباح كان فواز جالساً فى المقهى كعادته يشرب الشاى بالخليب ويدخن البورى . . عندما مر أمامه صبي يحمل كلباً صغيراً على كتفه . . كان الصبي حافياً ويرتدى جلباباً قديماً ممزقاً . . أما الكلب فكان شعره أسود ناعم وشكله جميل وقد علقت حول رقبته شريطة حمراء بفيونكة .
- ولد . . تعال هنا . .

هكذا صاح فواز وقد برق فى ذهنه خاطر . . واقترب الولد وهو ينظر إلى فواز بخوف . .

من أين جيت الكلب ده؟

سأله فواز بصوت رهيب . .

من المعادى .

لا . . أنت سارقه . . أنا حاوديك فى ستين داهية . . هكذا صاح

فواز ثم هوى بكفه على وجه الولد بلطمة عنيفة جعلته يلقي بالكلب ويطلق ساقيه للريح .

أمسك فواز بالكلب وحمله بين يديه (كان شكله غريباً ، بطنه متدل وأرجله قصيرة ووجهه مسحوب) ثم أحضر له عظماً صغيراً من عند الخاتى ليأكل وجلس يدخن البورى ويفكر «ماذا يفعل بهذا الكلب؟» .

إنه كلب من المعادى ولا شك أن ثمنه غال وهو قد سمع مرة أن الكلاب من النوع البوكسر يصل ثمنها إلى مائة جنيه . . بعد تفكير وتأمل توصل فواز إلى الحل . . وبعد يومين ظهر فى الأهرام إعلان يقول «كلاب بوكسر للبيع جميع الألوان موجودة» ثم رقم التليفون فى المقهى . . منذ الصباح جلس فواز بجوار تليفون المقهى يرد على مكالمات الزبائن ويصف لهم عنوانه فى حارة السكر والليمون . . وقبل الظهر ظهر أول «مشتري» . دخلت الحارة سيارة مرسيدس كبيرة سوداء ونزل منها رجل أشيب مهيب فى نحو الستين يرتدى معطفاً من الجوخ الأسود . . كان وجهه أحمر كالإنجليز حتى إن فواز ظن لأول وهلة أنه خواجة . . هرع إليه فواز وتلقاه بأدبه الجم وقدم له مقعداً وأمر له بشاى بحليب وطبعاً لم يعزم عليه بالبورى . . ثم التفت إليه وقال وهو يتسهم ويسبل عينيه ويكور شفتيه . .

- تحت أمر سيادتك .

- والله أنا جئت لحضرتك بخصوص الكلب .

ارتاح فواز لكلمة «حضرتك» ونهض فوراً وعاد بعد لحظات حاملاً الكلب على كتفه . . وكان قد ربطه فى الداخل بجوار «نصبة» القهوة . . تلقف «البك» الكلب بعينه قبل أن يمسكه وأخذ يداعبه وهو يتفحصه بيده الخبيرة . . وفى تلك الأثناء لم ينقطع فواز عن الكلام لحظة :

- الكلب ده يا فندم آخر كلب فاضل عندى . . أنا بعت ثلاثة وده
الرايع . . سيادتك طبعاً عارف إن البوكسر عزيز قوى اليومين دول . .
ناس كتيرة عايزة بوكسر ومش لاقية . .

وفى حركة مفاجئة ، مد فواز يده وأمسك بيد الزبون وقال :
- تصدق بالله؟! والله العظيم ثلاثة بالله يا شيخ أنا قلبى انفتح لك
والبوكسر ده من نصيبك . . إيه رأيك بقه؟!!

ابتسم «البك» وقال بهدوء . .
- أشكرك . . بس الكلب ده مش بوكسر .
- إيه؟!!

هكذا صاح فواز مستنكرا وراح يلتفت حوله وكأنه يبحث عن أحد
ينصفه من هذا الظلم . .

- يا فندم عيب تقول كده! الكلب ده بوكسر مية المية . . سيادتك بص
كويس تلاقيه بوكسر . . أهوه . . بيقول لك أنا بوكسر . . ده كلام
برضه؟! اتسعت ابتسامة «البك» . . كان واثقاً . .

- يا أستاذ . . البوكسر غير كده خالص . . أنا بقى لى ٤٠ سنة غاوى
كلاب .

- آمال ده جنسه إيه؟!!

هكذا دمدم فواز مدعنا فى النهاية وهو يلعن فى سره الزبون
والكلب معاً وقد بدأت العشرون جنيها التى دفعها فى الإعلان تلح
عليه وتؤله . . .

- الكلب ده «بيكينوا» .

- ومائه . . يكون زى ما يكون . . القصد . . تشتريه بكام ؟!
قال فواز بزهرق وقد عزم على أن يتخلص من الكلب اللعين بأى
ثمن .

سكت «البك» لحظة وأخذ يتأمل الكلب بإعزاز . . وكأنما استشعر
الكلب - بشكل ما - ما يحدث فراح يقفز على «البك» ويمد بوزه ويلعق
وجهه . .
- أنا أدفع ٣٠٠ جنيه .

كانت صدمة قوية استغرق فواز لحظة حتى استوعبها ثم علا صوته
شاكيا . .

- ده يرضى ربنا برضه ؟! يا «بك» حرام عليك . . بقى كلب (وهنا
استعصى على ذهنه الاسم اللعين) كلب متأصل زى ده تقول لى ٣٠٠
جنيه طب قول ٧٠٠ أو ٦٠٠ !

من هنا لهننا . . أخرج «البك» ٣٥٠ جنيهًا عدهم فواز بين أصابعه
بسرعة ثم طواهم بعناية وأودعهم جيب البنطلون . . حمل «البك»
الكلب على كتفه وقد طفح وجهه بالسعادة وأوصله فواز حتى باب
السيارة ثم انحنى وصافحه مودعًا وبعد ذلك اختفى . . من يومها انقطع
فواز حستين عن الحارة والمقهى . . ولم يعرف أحد سبب غيبته . . حتى
تردد بالأمس أن شبانًا من الحارة رأوه فى الصباح الباكر يتجول فى
منطقة المعادى، يحوم حول حدائق البيوت، وما إن يلمح كلبًا فى
الحديقة حتى يلقي إليه بعظم صغير من حقيبة يحملها ثم يكور شفتيه
وينادى بصوت خافت: «بوى . . بوى . . تعالى» .



مدام «رّتا منديس»

صورة أخيرة

... ١٩٦١ ...

يوم الأحد، يصطحبني أبي إلى بيتها . .

العمارة شاهقة تتوسط شارع عدلى . . . ما إن نعبّر البوابة حتى تهل علينا لفحة رطوبة . . . المدخل رخامى فسيح والأعمدة ضخمة مستديرة والبواب النوبى العملاق يهرع أمامنا ليطلب المصعد وأبى يدس فى يده ورقة مالية ينسحب إثرها لاهجًا بالشكر . . من الآن فصاعدًا يكون لأبى وجه آخر غير الذى أعرفه فى بيتنا، يصير أبى فى بيت طنط زتا رقيقًا مجاملاً مداعبًا هامسًا حنونًا مضطرمًا بالعاصفة . . اللافتة النحاسية الصغيرة على باب الشقة مكتوب عليها بالفرنسية «مدام زتا منديس» وهى تفتح لنا بنفسها، طلعتها مشرقة، وجه أبيض نضر رائق وأنف دقيق منمنم وشفتان مكتنرتان مطليتان بلون قرمزى والعينان زرقاوان واسعتان تبدوان برموشهما المشرعة كأنهما مدهوشتان والشعر الناعم الأسود يتهدل على الكتفين والفستان «الديكولتيه» ينحسر عن صدرها العامر وذراعيها المربربتين المرمريتين، حتى أظافر يدها وقدميها نظيفة أنيقة مرسومة بعناية ومطلية بالأحمر اللامع .

سوف أحتفظ طويلاً فى ذاكرتى بصورة زتا وهى تفتح الباب ،
صورة «المرأة الأخرى» المضمخة بعطر الغواية ، العشيقة الناعمة تجذب
إلى الداخل حيث عالمها السرى المخملى المحفوف باللذة والخطيئة . .
تلقائى طنط زتا بحفاوة ، قبلات وأحضان ، تردد بالفرنسية «أهلاً
بالرجل الصغير» . . . من خلفها يظهر أنطوان ، ابنها الذى يكبرنى
بعامين . . صبي نحيف طويل يغطى شعره الأسود أعلى جبهته وعلى
وجهه غمش كثير يجعله أشبه بالولد المرسوم فى كتاب المطالعة الفرنسية
المقرر علينا .

نادراً ما يتكلم أنطوان ويضحك ، يراقبنا - أنا وأبى - بنظرة قلقة ويزم
شفتيه ثم يتحرك فجأة ، ينهض أو ينصرف إلى حجرته ، يبدو دائماً
وكأن شيئاً هاماً يعتسل فى صدره ويوشك على التصريح به لكنه - فى
اللحظة الأخيرة - يعدل عن ذلك ، حتى عندما أَلعب معه فى حجرته
ينكب على اللعبة صامتاً كأنه يؤدى واجباً .

(مرة واحدة فقط ، توقف عن اللعب وسألنى فجأة : «ماذا يشتغل
أبوك ؟!» قلت أبى محام فأجاب بسرعة : «أنا أبى طبيب كبير فى أمريكا
وعندما أكبر سوف أسافر إليه» ولما سأله مدهوشاً : «وتترك مامتك ؟!»
حدجنى بنظرة غامضة ولم يرد .) .

هذا الطابع الشائك المريب لأنطوان يجعلنا أنا وأبى نلامسه بحذر .

هنا نحن جالسون جميعاً فى الصالة وأبى وزتا يحاولان أن يديرا
حواراً جديهما ، يقال أنطوان نافراً كعادته أما أنا فأستجيب . أدأعب طنط
زتا وأمسك بقبالاتها ، بهدوء عسى يظفرها ، القربى الألفافى يلمس بشرتها
الناعمة الناعمة . الحكى ليها نفس سرى منى وأحسب أن طولاً خبيثة

عبداللها «ع . . . الانى» وتصطنع هى التصديق والدهشة والخوف على من
أعمالى «الجبارة» .

أحببت طوط زتا كثيرا وتواطأت بالكامل مع أبى ، وفى رحلة العودة
بوصينى أبى كل مرة ألا أخبر أمى فأهز رأسى مؤكداً ، كرجل حقيقى
يتعهد ، وعندما تسألنى أمى بعينيهما المتوجستين الكارهتين المنذرتين
أقول لها : «أنا وأبى ذهبنا إلى السينما» . . . أكذب بجسارة ولا
أستشعر أدنى إثم أو خيانة .

كان عالم زتا المسحور بأسرنى ، أحفظه فى قلبى ، حتى شقتها ،
أستعيد تفاصيلها الآن كنموذج لأناقة أوروبية عريقة : المرأة الكبيرة فى
المدخل والمشجب الدائرى نعلق عليه المعاطف ، أوانى الزرع النحاسية
المستديرة اللامعة منقوش على جانبيها رأسا أسدين ، الستائر الكثيفة
الغامقة يتسلل منها نور النهار الخافت وورق الحائط الفاتح المنقوش
وطاقم «الفرتيلى» البنى الداكن له كسوة من القטיפنة لونها زيتى ، وفى
الركن يقبع بيانو أسود كبير (كانت زتا تعمل راقصة فى ملهى ما بشارع
الألفى وأرجح أن أبى قد عرفها هناك) .

تدخل طنط زتا لتعد الطعام فى المطبخ وأبى يقربنا أنا وأنطوان ،
يضع يديه علينا ويحدثنا بود كأب يسامر أولاده فى ساعة الراحة ، ومن
حين لحين يصيح أبى متذمراً بدعابة يستعجل الطعام فتحبيه زتا ضاحكة
من المطبخ (هذه الإشارات العائلية اعتبرها الآن دليلاً على أن أبى كان
ينوى الزواج من زتا) .

مائدة الغداء تحفة ، المفروش أبيض ناصع والشروط مكنوبة مطوية .
مهملة بأناقة والصحن البيضاء اللامعة ترفد حولها الشكاكين والشوك
والملعق بنظام واحد «صارة» النور ودمى فى المائدة والكلم من متاع الدنيا

زجاجة طويلة راقدة فى إناء معدنى ملئ بمكعبات الثلج . . أكل طنط زتا للذيد يشبه أكل المطاعم الفاخرة التى يأخذنا أبى إليها أحياناً أنا وأمى، أكل بحرص وأنظاها بالشبع سريعاً لئلا يتقعدنى أحد كما علمونى فى بيتنا، لكن أبى وطنط زتا لا يشعران بشىء، يجلسان متجاورين يأكلان ويشربان ويتهاامسان ويضحكان كثيراً ثم يلح أبى عليها كى تغنى، تمنع فى البداية ثم ترضى وتجلس أمام البيانو . . شيئاً فشيئاً تتلاشى الابتسامة ويكسو الجد وجهها، تمر بأصابعها على مفاتيح البيانو فتنبعث أنغام مترددة متفرقة وفى لحظة ما تطرق زتا وتغمض عينيها كأنما تستجمع خاطراً ما وتبدأ العزف، تغنى أغنيات ادى بياف : أغنية «لست نادمة على شىء» «Non, Je ne regrette rien» و . . . أغنية «الحياة بلون الورد» «La vie en rose» .

صوتها عذب به بحة شجية وعندما تنتهى تظل لحظات مطرقة مغمضة العينين ضاغطة بأصابعها على مفاتيح البيانو . . أصفق أنا بحرارة ويظل أنطوان صامتاً، أما أبى فيبلغ حماسه المدى، يكون قد خلع الجاكيت وفك رباط العنق . . . يصفق ويصيح «برافو» ويهرع ناحيتها ليطلع قبلة على جبينها أو يجمع يديها بين كفيه ويقبلهما . . هنا تكون الإشارة لى وأنطوان كى ننصرف، هكذا تعلمنا بالخبرة، ينهض أنطوان أولاً، يقول وهو يتجه إلى باب الشقة : «ماما . . سوف نزل للعب» وأذكر الآن . بتفهم وابتسامة . وجه أبى المنتعش بالشراب المضطرم بالرغبة وهو يبحث بلهفة فى جيوبه ثم ينفحنا أنا وأنطوان جنيين كاملين ويقول وهو يودعنا إلى الباب : «ما رأيكما؟ بعد اللعب، لو تأكلنا جيلاتى فى «النيوكورسال»؟!»

. . . . ١٩٩٦

مائدة الأجانب فى محل جروبى ، كلهم عجائز ، أرمن ويونانيون عاشوا فى مصر ولم يهاجروا وامتد بهم العمر حتى صاروا وحيدىن تماماً ، موعدهم الأسبوعى يوم الأحد ، فى الساعة صباحاً يقطعون شارع طلعت حرب الخالى ، يمشون بخطوات بطيئة واهنة ، يتساندون أو يتكئون على عصيهم . . يبدون كأنما بعثوا لتوهم ، نفضوا عن أنفسهم غبار الفناء وجاءوا . . .

يجلسون فى جروبى على مائدة واحدة لا تتغير ، بجوار النافذة ، يفطرون ويتحدثون ويطالعون الجرائد الفرنسية حتى يحين موعد قداس الأحد فيذهبون معاً إلى الكنيسة .

ذلك الصباح يبدون جميعاً فى أحسن هيئة . . يخلق الشيوخ ذقونهم بعناية ويلمعون أحذيتهم الإنجليزية ذات اللونين ويرتدون البدل الكاملة وأربطة عنق قديمة صارت منكشمة ومعوجة وبلت عنقون بمعاطف ثقيلة عتيقة حال لونها يخلعونها بمجرد دخولهم إلى المحل كما تقتضى التقاليد .

أما النساء العجائز ، اللاتى كن يوماً ما فائزات لعوبات فيرتدين اليوم ثياباً كان طرازها سائداً من ثلاثين عاماً ، ويضعن المساحيق على وجوههن المتغضنة بالتجاعيد . . والعجائز جميعاً يحرضون على قواعد السلوك . . يفسح الرجال للنساء الطريق ليسمرن أولاً ويساعدوهن فى خلع المعاطف وطبها برقة وعناية ويسحبون من أجلهن المقاعد ليجلسن ثم يتنافسون فيما بينهم على رواية الأشياء الطريفة المسلية للنساء اللاتى لم ينسين بعد كيف يطلقن أهات الدهشة والضحكات اللطيفة الرقيقة .

مائدة الأحد بالنسبة للعجائز هى ساعة السعادة يستسلمون بعدها

لوحدهم التامة المرعبة . . لم يتبق لهم سوى شقة كبيرة فى وسط
البلد يطمع فيها صاحب البيت أو الجيران ، الحجرات فسحة
والأسقف عالية والأثاث عتيق مهمل اهترأ قماشه والجدران مسافطة
طلاؤها والحمام من طراز قديم يحتاج تجديده إلى ميزانية لن تتوفر
أبداً ، والذكريات ، فقط الذكريات تسكن الأركان كلها ، هناك صبر
فوتوغرافية عزيزة بالأبيض والأسود لأطفال ضاحكين رائعين زحالك
أو إيلينا) صاروا الآن رجالاً كباراً ونساء ناضجات ، مهاجرين فى
أمريكا ، يبعثون بكروت رقيقة ملونة ويتحدثون فى التليفون بمناسبة
عيد الميلاد كما يرسلون كل شهر حوالات بريدية يقضى من أجلها
العجائز نهاراً كاملاً واقفين فى طوابير طويلة بطيئة حتى يقبضوا فى
النهاية أوراقاً مالية يعدونها مرتين للتأكد ثم يطوونها ويدسونها
بحرص فى الجيوب الداخلية لملابسهم الثقيلة .

بالرغم من الشيخوخة مازالت للذهن قدرة عجيبة على استعادة
الماضى بصفاء كامل وفى النفس شعور بيقينى بنهاية وشيكة لكن السزائ
متى؟ وكيف؟ يتمنون لو تنتهى الرحلة بهدوء واحترام وتطاردهم
هواجس مفزعة من قتل بغرض السرقة أو مرض طويل مؤلم أو موت
مفاجئ فى الشارع أو المقهى .

ذلك الصباح رأيت فى وجه السيدة العجوز شيئاً مألوفاً ، كانت
جالسة وسط العجائز وقد زينت وجهها بمساحيق ثقيلة ووضعت على
رأسها قبعة من الجوخ الأخضر مزدانة بوردة من قماش أحمر . . رحت
أتابعها بنظري ولما سمعت صوتها تأكدت . . كان منظرى غريباً . أنا
الرجل الأربعينى الوقور . لما هرعت ناحيتها وانحنيت على المائدة
وناديتها بلهفة :

«طنط زتا»؟!

رفعت رأسها ناحيتي ببطء ، صارت عيناها عجوزتين يكسوهما
البياض والنظارة الطبية الرخيصة معوجة قليلا تعطيك انطباعاً بأنها
تنظر إلى شيء ما خلفك ، ذكرتها بنفسى وحدثتها بحرارة عن أيام زمان
وسألتها عن أنطوان ، أخذت تستمع إلى صامته وعلى وجهها العجوز
ابتسامة هينة محايدة حتى ظننت أنني أخطأتها أو أنها لم تعد تعي
تماماً . . ثم مرت لحظة ووجدتها تستند بيديها على المنضدة وتنهض
ببطء حتى وقفت ، مدت ذراعيها اللتين انحسر عنهما كما الفستان فبدت
هزيلتين للغاية . . جذبت طنط زتا رأسي ناحيتها وشبت لتطبع قبلة .

كما برع علاء الأسواني في كتابة الرواية، فقد برع أيضا في كتابة القصة القصيرة. وفي هذا الكتاب تنفرد دار الشروق بنشر الأعمال القصصية المجمعة لمؤلف «عمارة يعقوبيان» في كتاب واحد. وهي القصص التي نشرت من قبل في مجموعتين قصصيتين نفذتا منذ مدة طويلة وهما: «الذي اقترب ورأى» و«جمعية منتظري الزعيم» ثم نشرت مختارات منهما تحت عنوان «نيران صديقة» عام ٢٠٠٤ وتقدم القصص تحليلا رائعا للمجتمع المصري في صورة نابضة وواقعية لقاهرة اليوم.

علاء الأسواني طبيب أسنان وأديب مصري. ولد عام ١٩٥٧ وأتم دراسته الثانوية في مدرسة الليسيه الفرنسية، وحصل على شهادة الماجستير في طب الأسنان من جامعة إلينوي في شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية. أحدثت روايته «عمارة يعقوبيان» (٢٠٠٢) و«شيكاغو» (٢٠٠٧) نجاحا هائلا جعله من أشهر أدباء العالم العربي وأكثرهم شعبية في مصر والوطن العربي والعالم، فتم تكريمه في أكثر من دولة وترجمت أعماله لأكثر من ٢٠ لغة.

علي مولا



التصميم: عمرو النمر لوى

دار الشروق

www.shorouk.com